الموقف الأدبي

مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب في سورية
السنة الثالثة والأربعون ، العدد 519، تموز 2014

للاشتراك في المجلة

داخل القطر للأفراد	1000
داخل القطر للمؤسسات	1200
في الوطن العربي للأفراد	3000
في الوطن العربي للمؤسسات	4000
خارج الوطن العربي للأفراد	6000
خارج الوطن العربي للمؤسسات	7000
أعضاء اتحاد الكتاب العرب	500

تنويه: للنشر في مجلة الموقف الأدبي يرجى إرسال المادة المراد نشرها مرفقة بـ CD مع التعريف بالكاتب

باسم رئيس التحرير
. اتحاد الكتاب العرب
دمشق . المزة أوتستراد
ص.ب: 3230
هاتف: 6117240 . 6117242 . 6117243
فاكس: 6117244
البريد الإلكتروني:
E-mail:aru@net.sy
موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:
www.awu.sy

في هذا العدد من الموقف الأدبي

أ / افتتاحية العدد

ب / بحوث ودراسات :

ج ـ أسماء في الذاكرة :

د/ الإبداع :

1/ **الشعر** :

2 ـ **القصة**:

هـ ـ حوار العدد:

ز ـ قراءات نقدية:

ز ـ وإلى لقاء:

العولمة والثقافة
(1)

❑ مالك صقور

إذا كانت "الإمبريالية" أعلى مراحل الرأسمالية؛ فإن "العولمة" هي آخر مراحل الإمبريالية، حتى الآن. أقول: (حتى الآن)؛ لأن الرأسمالية تجدّد نفسها دائماً كالأفعى التي تبدّل جلدها كل حين.

والحديث عموماً عن الإمبريالية والعولمة هو من اختصاص السياسيين والاقتصاديين، لأن جوهر الإمبريالية، ومن بعدها العولمة هو اقتصادي ـ سياسي بامتياز. ونحن هنا، معنيون بالثقافة، إلا أن إدوارد سعيد فتح الباب على مصراعيه في كتابه "الثقافة والإمبريالية"، كما مر معنا في الحديث السابق.

ولا يخفى على المهتمين بالشأن العام، والمتابعين أن ظهور مصطلح (العولمة)، قد أطلقته أميركا، بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وتفكيك المنظومة الاشتراكية، مع تكثيف إعلامي غير مسبوق للدعاية والتهليل للنظام العالمي الجديد. أي نظام القطب الواحد. أي، هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على مقدرات العالم كله، في ظل غياب القطب الآخر.

وفي ظني، أن أميركا أولاً، وبريطانيا وفرنسا ثانياً حلفاء الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، لن ينسوا أن الاتحاد السوفييتي، هو الذي سحق الفاشية والنازية، ولجم الإمبريالية حيناً من الدهر، والاتحاد السوفييتي هو العدو الأول للرأسمالية والإمبريالية، وصديق كل الشعوب المستضعفة.

ولكن في النهاية، انتصرت الإمبريالية على الاتحاد السوفييتي، حين تمكنت من صنع (حصان طروادة) في داخله، فتمّ التفكيك بانقلاب منظم وممنهج تمّ الشغل عليه أكثر من نصف قرن، بعد كلفة باهظة دفعت الولايات المتحدة (600) ستمئة مليار دولار في سبيل تفكيك الاتحاد السوفيتي(1).

أقول ذلك الآن، مذكّراً فقط، لأن مصطلح (النظام العالمي الجديد) ومن ثم مصطلح (العولمة) قد أطلقا بعد زوال الاتحاد السوفييتي.

والسؤال الذي يطرح اليوم، على خلفية وهم (الربيع العربي)، الذي حقق مآربه في تونس وليبيا ومصر، وإخفاقه في سورية، وعودة روسيا الاتحادية وريثة الاتحاد السوفييتي إلى الحلبة السياسية الدولية بقوة وصعود الصين الشيوعية وجمهورية إيران الإسلامية، وبروز دول البريكس، ألا يعني بداية النهاية للنظام العالمي الجديد والعولمة، الذي كان يعني أمركة العالم؟

وهل ستبدأ ثقافة جديدة؟ ثقافة ما بعد العولمة؟! وثقافة ما بعد الإرهاب؟

***

عندما انطلق مصطلح "العولمة" يجوب الآفاق، لم يكن واضحاً في البداية، اختلف كثيرون في فهمه، واجتهدوا آخرون في تفسيره، وشرحه، وتعليله، وانقسم مثقفون بين مؤيد ورافض، فيما عدّه بعض آخر أنه استمرار للحداثة، في حين خلطت قلة قليلة من الناس بين "المعلوماتية" و"العولمة" إذ تزامن ظهور العولمة، مع انتصار ثورة الاتصالات، وانتشار المعلوماتية، واكتساح الشابكة العنكبوتية للإعلام في العالم كله. هذا كله خدم فكرة العولمة من حيث الترويج والدعاية والإعلام والإعلان، لكن رافق ذلك حرباً عسكرية طالت البلقان وأفغانستان والعراق، والآن سورية. وقد خدمها في ذلك عشرات المئات من الفضائيات التي تبث أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة. وهذا كله، خدم المآرب العدوانية المضلّلة للعولمة.

ولكن بعد انكشاف النوايا العدوانية الخبيثة المدمّرة تحت هذا المصطلح: (النظام العالمي الجديد ـ العولمة) بدأ يقتنع الكثيرون بأن العولمة، هي أعلى مراحل الإمبريالية، أو آخر مراحل الإمبريالية، وقد أصاب السيد غازي أبو عقل عندما أطلق على العولمة "نظام النَّهب العالمي".

وعلى إعلامها: "نظام التضليل العالمي".

حول ظاهرة "العولمة، يقول د. حسن حنفي: "العولمة مفهوم ذاع في العقد الأخير للترويج لظاهرة اقتصاد السوق الحر، بعد انهيار النظم الاشتراكية والاتحاد السوفييتي ليشّرع للعالم ذي القطب الواحد. وقد توافق مفاهيم أخرى للغرض نفسه مثل: نهاية التاريخ، وحقوق الإنسان، الديمقراطية، المجتمع المدني، صراع الحضارات إلخ"(2). إلا أن الدكتور حسن حنفي الذي بدأ بتعريف العولمة، لا يتوقف عند ذلك، بل ينتقد العرب الذين يلهثون وراء المصطلحات والمفاهيم الغربية، يهللون لها، ولا يعرفون نتائجها، يقول: "الغرب ينتج المفاهيم

والعرب يشرحونها، الغرب يبدع والعرب ينقلون، ويلهث المثقفون العرب وراء هذا المفاهيم ويتبارون من أول الكاتبين فيها والمعارضين لها؟ والمؤلفين في موضوعها والحاصلين على جوائز الدولة بسببها؟ من أول المتحدثين الذين لا يفوته شيء أصدره الغرب دون اللحاق به وعرضه لبني جلدته(3).

إن الدكتور حسن حنفي يعي ما يقول ويعني ما يقوله، وأفهم من قوله، أنه ليس ضد الترجمة، أو ما يصدر عن الغرب. لكن يقصد اللهاث وراء كل ما يصدر، فمنه المفيد ومنه غير المفيد، لا بل والضار.

ونحن هنا، بين حالين، قد يكون أحلاهما مرٌّ، فإذا أغلقنا نوافذنا اختنقنا بالهواء الفاسد، وإذا شرّعنا أبوابنا ونوافذنا اقتلعتنا رياحهم، وهنا بيت القصيد.

نحن ننقل كل ما يصدر عن الغرب تقريباً. وهم إذا نقلوا شيئاً يبقى أسير أدراج مراكز بحوثهم، ولا يعمم لعامة الشعب والقراء، كما تفعل دور النشر عندنا، نحن نتأثر بثقافتهم، وشعوبهم لا تقرأ ثقافتنا، إلا ما يسمح له إعلامهم، وإعلامهم لا ينشر ولا يبث إلا الأشياء المسيئة للعرب، والمشوهة أصلاً.

***

كثيرة هي الكتب التي تناولت الثقافة، وثمة أكثر من تعريف للثقافة، وأهمها هو تعريف إعلان مكسيكو: "إن الثقافة بمعناها الأوسع، هي مجموع السمات الروحية و المادية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، والإنتاج الاقتصادي، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والأعراف والتقاليد والمعتقدات".

وإذا ما أمعنا النظر بهذا التعريف الشامل للثقافة، سنجد أنه ليس لكل شعب، بل لكل مجتمع ثقافته، وخصوصيته، وتميّزه، وتمايزه وعندما نطلع على أهداف (العولمة الثقافية) أو ثقافة العولمة، والأصح، القول: الأمركة، يعني تدمير هذه الخوصيات وأهمها الهويات القومية والوطنية، وإلغاء حتى الأعراف والتقاليد، بحجة التعددية الثقافية لصالح الأمركة عابرة القارات، لغرض هيمنتها الاقتصادية، العسكرية الثقافية.



وكما هو معروف، أن العولمة ترجمة للكلمة الإنكليزية (GLOBALISM) كما وتترجم (الكوكبة) أيضاً، نسبة إلى كوكب الأرض. يقول الدكتور وديع بشور: "بعد انتصار أميركا في الحرب الباردة، تم إعلان النظام العالمي الجديد، وهو يعني (أمركة العالم)، وهذا النظام يستند إلى ثلاثة مقومات أساسية كما يرى دعاته، وأنه بتحقيقها تحل مشاكل الإنسان هي:

1 ـ حكومة عالمية واحدة.

2 ـ اقتصاد عالمي واحد.

3 ـ دين عالمي واحد(4).

وثمة رأي آخر، كما يطرح د. سهيل فرح، أنه بانتصار الإمبريالية الأميركية، فإنه قد تمّت عولمة الاقتصاد، والخطوة التالية يجب عولمة الثقافة، وعولمة الثقافة محاولة مسعورة سعت وما زالت تسعى إليها النخب الحاكمة وأساطين المال وقادة الرأي في الولايات المتحدة، منذ انتصارها في الحرب الباردة، والذي شجعهم على ذلك الإمساك بالمفاصل الأساسية: المال والقوة والسلطة والمعرفة على المستوى العالمي، فالعولمة كما يشير توماس فريدمان هي "شاملة وسريعة وواسعة النطاق" تفرض قواعدها على الجميع دون أن تترك لهم حرية الخيار، فهي تتسع لتمتد إلى 195 دولة، وهي بذلك تصنع حضارة عالمية واحدة عبر ما تفرضه من أحكام وقواعد متجانسة، متجاهلة الظروف الخاصة لأي دولة، أو مجتمع، مدمّرة بذلك تمايز الهويات الثقافية والحضارية للشعوب(5).

وفي السياق نفسه يقول د. رمزي زكي: "وهكذا تحوّل العالم (بفعل العولمة) إلى رهينة في قبضة حفنة من كبار المضاربين الذين يتاجرون بالعملات والأوراق المالية، مستخدمين في ذلك مليارات الدولارات التي توفرها البنوك وشركات التأمين وصناديق الاستثمار الدولية وصناديق التأمين والمعاشات"(6).

أما الدكتور علي حرب فيقول تحت عنوان (الثقافة والعولمة): "لا شك أن ما يحدث اليوم يشكّل تغييراً هائلاً في مشهد العالم تدخل معه البشرية في عصر جديد هو عصر المجال التلفزيوني والفضاء السبراني والتواصل الإلكتروني.... إنه عصر الحواسيب وعلب المعلومات والرسائل الكوكبية التي تختزل الأبعاد وتطوي المسافات. هذه هي العولمة التي تتحول معها الأرض إلى قرية كونية صغيرة...

وهي تسفر ليس فقط عن عولمة السوق والمدينة والسياسة، بل تفضي إلى (عولمة الأنا) بما هي حامل لدلالة ومولّدة للمعنى ومنتج للثقافة والمعرفة"(7).

اعتقد أن مثل هذا الكلام، ينطوي على السلب والإيجاب في فهم عملية العولمة، من حيث هي قرّبت البعيد وطوت المسافات، ومع هذه العولمة، تحولت الأرض إلى قرية كونية إلخ....

لا يختلف اثنان في أن العصر الذي نعيشه الآن، هو عصر الحواسيب، والفضائيات والتواصل الإلكتروني، وهذا في رأيي، هو من منجزات العلم والتطور التكنولوجي، وهذا ما يحسب على عصر الحداثة، والتقانات العلمية بامتياز، فمنذ الثورة التكنولوجية ـ الصناعية، وعصر البخار، واختراع القطار، والبارود، ومن ثم المطبعة، ووتائر التطور تزداد باطراد، خاصة، بعد اكتشاف الكهرباء، ولولا الكهرباء لما كان كل هذا التطور الذي "ينعم" فيه بعضهم. فتقريب المسافات، كان في البدء باختراع القطار البخاري، والفحم الحجري، ثم اختراع السيارة، ومن ثم الطائرة، وباختراع وسائط النقل الثلاثة، قربت المسافات، ولا أحد يذكر السفن الشراعية، وتطورها.

إذن، ليس للعولمة من فضل باختراع هذه الوسائط. ولكن النخب الأوليغارشية، وأصحاب رؤوس الأموال، والشركات التجارية والصناعية العملاقة، وسطوة الإمبريالية الأمريكية، هي التي استثمرت هذا التطور الهائل في التقانات العلمية، وهذا ما سأناقشه عند الحديث عن كتاب (العولمة والثقافة) لمؤلفه جون توملينسون، إذ خصص بحثاً عن الطيران، وتقريب المسافات، وعن ثقافة المطارات أيضاً.

أما أن الكرة الأرضية، قد حولتها العولمة إلى قرية كونية صغيرة، فبتقديري هو وصف مجازي أكثر منه حقيقة، إلا إذا وافقنا، وهذا صحيح، أن العالم قد أصبح صغيراً، إذ بوسع المرء أن يتصل بأربعة أركان الأرض بلحظة واحدة. ويطلع على معلومات الدنيا برمتها، بواسطة الشابكة أيضاً بلحظة أخرى.

لكن السؤال الأهم، هل هذه القرية الكونية، كونية فقط من حيث الاتصالات، أم فرض عليها (لباس الجينز الأزرق، والكوبوي لباس رعاة البقرـ الذي أصبح موضة، وفرض عليهم نوع من الطعام مثل البيتزا، والهمبرغر، والشراب مثل الكوكولا الخ. نقول: قرية كونية!! وننسى أن لهذه القرية الكونية يجب أن يكون لها مختاراً واحداً، أو شرطياً واحداً، أو بلطجياً واحداً، الذي هو في النهاية ــ أمريكا. قرية كونية!! نعم!! لكن هل لاحظ المروجون لها، أنه ازداد فقراؤها، وتفشى فيهم المرض، والجهل، والتخلف، قرية كونية صغيرة!! ويالالأسف لم تتخلص هذه القرية من لعنة الغرب والشرق، ومأساة الشمال والجنوب. عندما تزول (السكْرة) وتحضر (الفكرة) يصحو المرء على كذبة كبيرة خادعة مضللة، جاءت بعنوان العولمة ــ الأمركة، التي استخدمت بدهاء، ووظفت بخبث التقانات العالية الإلكترونية، لمآربها الشخصية، وبذلك، تكون قد أكلته لحماً، ورمته عظماً. وجعلته لائباً،

مستلباً، حائراً، بعد أن فقد هويته، بحجة تعدد الثقافات والثقافة العالمية، التي وقع كثيرون في فخها. ومن هنا، يستدرك د. علي حرب قائلاً: "وهي تسفر ليس فقط على عولمة السوق والمدنية، والسياسة، بل تفضي إلى (عولمة الأنا). وعولمة الأنا، التي انصهرت بغيرها، تلاشت. وتضخمت (أناهم) هم.

***

يقدم كتاب (الثقافة) بين الكوني والخصوصي، بانوراما ثقافية شاملة، يعود فيها إلى بداية البدايات الثقافية عند الإنسان. وكيف تطور مفهوم الثقافة عبر الزمن، بالإضافة إلى نزعاتها، ووظائفها، بدءاً من النظريات الداروينية، مروراً بالأطفال الوحشيين، ومن الدماغ إلى الثقافة، محللاً رواية (الغصن الذهبي) حتى الثقافة الجديدة، وما بعد الحداثة إلى أن يصل إلى العولمة والقرية الكوكبية.

وتحت عنوان: (القرية الكوكبية) يقول مؤلفو الكتاب: "يعود تاريخ مسألة كوكبة الثقافات في الأصل إلى الأحلام اليوتوبية للمجتمع الكوني في القرنين الثامن والتاسع عشر، وأصابها التحديث بقوة مع كل تقدم تكنولوجي كبير في الاتصال (سكك حديدية، التلغراف، وأخيراً الانترنت).

تساءل الإنسان كذلك عن مسألة نهاية الثقافات الخاصة، بسبب تنامي الاتصالات منذ القرن الثامن عشر في أوروبا، ومع ذلك، فإن مسألة تحول الثقافات المحلية وتحديد هيمنتها، ستظهر في القرن العشرين. فمنذ بداية القرن بدأت الصناعة الثقافية الأمريكية ومنتجاتها بالانتشار. وتخوّف المتمسكون بالثقافة الأوروبية الرفيعة الأدبية والموسيقية والعلمية منذ عقد الثلاثينات من (الأمركة) التي افترضوها معادلة لفساد ثقافي (8)

إذن، كان خوف الأوروبيين مشروعاً، وفي مكانة، عندما استشعروا غزو أمريكا الثقافي الذي أعدّوه هجيناً ومنافياً للذوق العام، وفساداً ثقافياً. ويوضح المؤلفون قائلين: "وبعد الحرب الثانية وخلال الستينات، تعرّضت قوة الصناعة السينمائية الأمريكية، وبشكل عام انتشار بعض المنتجات الأمريكية النموذجية مثل الهمبرغر، والكوكاكولا، لاستنكار متزايد، وشهدنا على التوازي خلال الستينات والسبعينات ظهور تفكير حول مجتمع عالمي تحت تأثير الميديا الجماهيرية ثورة الاتصالات (9).

وبعد فرض العولمة الاقتصادية، واستخدام ثورة الاتصالات، والتقانات العلمية وتوظيفها في الإعلام الأميركي المضلل، يقولون: "وعلى صلة مباشرة مع الكوكبة الاقتصادية،

وخاصة مع ثورة الاتصالات، تسارع التفكير بالتجانس الثقافي بشكل مذهل خلال سنوات التسعينات. فقد شكلت شبكة CNN خلال حرب الخليج، التعبير الصارخ للبث الذي يكاد يكون كوكبياً لصور ولأخبار بشكل مستمر، وبعد عشر سنوات كانت هذه المحطة جزءاً من مجمع هائل تأسس من اندماجات متعاقبة: (تايم وارنر ـ أول) (10).

***

يُعّد آلكسندر بانارين العولمة الأميركية ـ هي السلطة الاقتصادية؛ (سلطة الأوليغارشية المالية بالدرجة الأولى) ـ التي تستهدف كبرياء الكوكب.

وأما عن (الثورة الثقافية العولمية) فيقول بانارين: "إنها مرتبطة بمفهوم السلعة باعتبارها معياراً عمومياً شاملاً لكل شيء. ويدور الحديث حول إكساب ظواهر الحياة والثقافة كلها حرفياً شكلاً سلعياً، وهذا معناه شكلاً مغترباً، من أشكال القيمة التبادلية. حتى هذه اللحظة كانت الثقافات ثنويه: فقد احتوت إلى جانب ما يباع ويشترى في السوق على صندوق متاح للقيم المخصصة للاستخدام الشخصي والجماعي. ويعتبر **الحب والإلهام والحقيقة والجمال في كل ثقافة سليمة قيماً غير معدة للبيع. كذلك لم تكن للبيع القيم الجماعية المجرّبة: اللغة الأم وأرض الأجداد المقدّسة، والأراضي القومية، والمصالح الوطنية والواجب الوطني والعسكري** (11).

بظني، أن هذا الكلام مفهوم جداً، وصحيح جداً، لا بل ومنطقي أيضاً، من وجهة نظر حاملي القيم. والذين ما زالوا يفاخرون على الأقل، معترفين، متمسكين بالقيم: الحقيقية، والحب، والإلهام، والجمال، ولكن الخضوع لسلطة الرأسمالي المتوحش، والغول الأمبريالي وما بعده العولمي، جعل كل شيء معداً للبيع والشراء، ومن هنا، أصاب بانارين بقوله (في كل ثقافة سليمة)، لأنه يدرك إدراكاً لا يرقى إليه الشك، أن الثقافة السليمة هي التي تحمل القيم الأخلاقية، بالإضافة إلى ما ذكر، يجب أن لا تقبل البيع والشراء حتى ولا المساومة.

يتابع بانارين قائلاً: "أما السلطة الاقتصادية الدولية المتمثلة اليوم بسلطة الدولار، فتنظر بغيرة مرضية إلى كل هذه القيم غير المعدة للبيع والمتاحة للجميع. وما دامت هذه القيم موجودة ستشعر هذه السلطة بأنها محدودة وغير مكتملة: حيث يوجد أناس لا يمكن شراؤهم، تنتظرها المفاجآت والمطبات غير السارة".

وهكذا يبين بانارين موضحاً، أن سلطة الدولار، ومن يديرها في العالم، تنظر بسخط لحاملي القيم الذين لا يباعوا ولا يشروا، ولا يساموا، وهذا معناه، أن سلطتهم ستبقى ناقصة غير مكتملة، إن لم يحققوا أهدافهم في تحقيق الخضوع والخنوع لسلطة الدولار.

من هنا، يفهم أيضاً، كيف تم ويتم شراء الذمم، تحت مسميات كثيرة، (بعض أشخاص معارضين، صحفيين، قنوات البث الإعلامي، وحقوق الإنسان، هذا في المجال الإعلامي، أما عن غير هؤلاء، وفي مجال المال والرأسمال، فيقول بانارين: "إن النقد الحالي، (ما بعد الحداثي) للقيم الأبدية، التي لا تفنى، قد يقدر حق قدره في ضوء غطرسة السلطة الاقتصادية العالمية، المملوءة عزماً على القضاء على آخر" بؤر المقاومة. ما دام كل شيء على الأرض لم يتحول إلى سلطة لها ثمنها ومعروضة للبيع، لا يمكن أن تعتبر السلطة الاقتصادية شاملة ـ تامة وتطال كل شيء. لهذا السبب تعتبر الليبرالية السائدة كل ما ليس له وضع السلعة، وما ليس له قيمة تبادلية معترف بها، هو من (مخلفات التقليدية).. ويتم تصور ختام الحداثة على أنه ختام عملية تحول القيم القديمة إلى سلعة عادية، لها بائعها ولها شاريها (12).

وأرى أنه من الأهمية بمكان، ما يقوله عن ثقافة العولمة: "يدور الحديث عن الثورة الثقافية العولمية الجديدة المرتبطة بتدمير المقدسات القومية، وتكون الخطوة الثانية هي خصخصة الكمون القومي من قبل النخب الحاكمة المتحولة إلى مالكته المحتكرة له باعتباره سلعة (13).

ويتعجب بانارين، من السياسات الأمريكية ومفارقاتها: "تكمن مفارقة أمريكا الديمقراطية التي تخوض هجومها العولمي، في أنها تنبذ على نحو منهجي مفهوم سيادة الشعب السياسية الأساسي للديمقراطية. والأمر يتلخص في أنه أين ما وجدت مثل هذه السيادة فإن المصالح القومية لا يمكن أن تكون وفقاً لتعريفها، مادة للبيع والشراء... ينبغي أن تصير المصلحة القومية سلعة، وأن تصير النخبة الحاكمة مالكتها غير المقيدة، بأية وثائق أوامرية من جهة الأمة (14).

***

وأعود إلى كتاب (ما العولمة؟)، وهو كتاب مشترك لكل من صادق جلال العظم وحسن حنفي. وكنت في البداية، قد ذكرت تعريف حسن حنفي للعولمة، أما صادق جلال العظم تحت عنوان ما هي العولمة؟ يستهل حديثه، بما جاء في مسرحية (يوليوس قيصر) لشيكسبير، يفتتح مارك أنطوني خطبته البليغة في تأبين الفقيد المغدور بقوله للحشد: "جئت لأدفن قيصر لا لأمتدحه". واقتداء بهذه الحكمة أريد أن أفتتح دراستي بالقول: جئت لا لأمتدح العولمة أو لأهجوها أو لأدفنها، حية أو ميتة، بل لأفهمها (15). ومن ثم، يقدم صادق جلال العظم مدخلاً ثقافياً يعرض فيه كيف انتهى عقد السبعينات والثمانينات فكرياً بالجدال الدولي الصاخب والواسع والحاد جداً الذي أطلقه كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق)، وكان قد أسهم صادق

جلال العظم في المناقشات والسجالات والاتهامات والمشادات - على حد تعبيره - التي استعرت في كل مكان تقريباً على سطح الكرة الأرضية، بشأن المشكلات الكبيرة التي أثيرت حوله وعنه وعن مؤلفه كذلك (16).

ويحدث الأمر ذاته مع صادق جلال العظم عند مناقشة رواية سليمان رشدي (آيات شيطانية) والحدث "بانفجار جدال دولي، سياسي - أدبي - ثقافي - أيديولوجي صاخب، بما لا يقاس الجدال الاستشراقي الذي سبقه، إن كان بالنسبة لخطورته أو لشموليته أو لعالميته أو لضجيجه، وأقصد رواية سلمان رشدي (الآيات الشيطانية) وما ترتب على نشرها من نتائج (17).

ويتكرر ذلك عند مناقشة (صدام الحضارات) لصموئيل هنتغتون، (ونهاية التاريخ) لفوكوياما. ويسأل صادق جلال العظم نفسه: "هل نحن أمام ظاهرة استثنائية وفذة أخرى في عالم الكتب والثقافة والأدب؟ (18). ويعود صادق العظم إلى سؤاله ليتساءل من جديد: "ماذا جرى في العالم مؤخراً، حتى تثير هذه المؤلفات الواحدة تلو الأخرى، ردود فعل نقاشية وسجالية ونقدية وتقريظية دولية، لا سابقة لها في التاريخ الحديث، من حيث شموليتها وعالميتها وكونيتها ولحظيتها، وعبر القارات والمحيطات واللغات والقوميات: في الشرق الإسلامي كما في الغرب العلماني، في الهند كما في أفريقيا، في أمريكا اللاتينية كما في الصين والعالم العربي، في الشمال كما في الجنوب؟

ويجيب العظم قائلاً: "اعتقد أن الجواب يكمن في ظاهرة العولمة التي أخذت تجتاح منذ فترة قريبة نسبياً الكرة الأرضية كلها؛ بشعوبها ومجتمعاتها وبلدانها ودولها وثقافاتها وحضاراتها كافة، دون تمييز إلا بالحجوم والدرجات والسرعات"(19)

هذه الأسئلة تستدعي أسئلة أخرى، ويعود العظم للتساؤل:

أ- هل نشهد تبلور ثقافة علمية حقيقية جديدة تتجاوز التراثات الثقافية المحلية والوطنية والقومية التي لا تعد ولا تحصى؟ أو، بعبارة أخرى، هل نحن أمام صيرورة توحيدية ما للعالم المعاصر، ليس اقتصادياً وتجارياً واتصالاتياً وتكنولوجياً فحسب، بل وثقافياً أيضاً؟

ب - هل تشهد في الوقت الحاضر تشكّل نخبة ثقافية عولمية عابرة للقارات والثقافات والقوميات واللغات والدول والبلدان...؟!

ويجيب العظم، الجواب نفسه: "أعتقد أن مفتاح الأجوبة عن هذه الأسئلة والتساؤلات كلها مرهون بظاهرة العولمة وبفهمنا لحركة نموّها واتساعها وميولها وتناقضاتها وتواتراتها وتأثيراتها، مع التأكد على أن تقدمها وتسارعها هو الذي صنع الشروط الضرورية والكافية

لتحول رواية سلمان رشدي، على سبيل المثال، من حدث إسلامي داخلي مزعج، إلى انفجار عالمي طاغٍ، ولتحول مشكلة إيرانية ـ إنكليزية متوقعة إلى قضية عالمية شاملة، ولتحول (فتوى) إيرانية ثورية إلى أزمة دولية عارمة" (20)

يبدو أن جلال صادق العظم يعرف، ولا يعرف، والأهم القول، أنه يعرف ولا يريد أن يعترف، أقصد من القول، وهو يتساءل عن رواية رشدي، وكتاب صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، ما الذي جعل منها وهي منشورة في مجالات محدودة الانتشار، على حد تعبير العظم وحوّلها إلى قضايا عالمية حقيقية عابرة للقارات واللغات والقوميات في كل مكان؟

إنه يعرف، كما أعرف، كما تعرفون، من هو الذي له مصلحة بتحويل هذه (القضايا) المحدودة، إلى قضايا عالمية وعابرة للقارات، إن المحرك (الدينامو) الذي يولّد، ويحرّك، ويمسك الخيوط كلها بيد، هو صاحب المشروع الإمبريالي، والعولمي، الذي يتمثل بالإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية.

وحسبنا أن نتذكر كتاب إدوارد سعيد (الثقافة والإمبريالية).

لقد ناقشت مع كثيرين رواية رشدي المضللة، مبيناً هناتها الفنية كرواية، قبل مناقشة مضمونها الكاذب المفتري، وبيّنت، كيف ولماذا اضُطر الإمام الخميني لإصدار الفتوى، لكن لم يسمح حينها أحدّ بالنشر. وإن كنت لا أريد هنا أن أناقش هذا الموضوع، لكن العظم يأتي على ذكر هذه الرواية مراراً في دراسته عن العولمة. اضطر للقول: إن العظم يرى وجهاً واحداً من المسألة، هي مسألة (التحريم) وذهنية التحريم، ويغفل عن قصد أو عن جهل من وراء الحملة المسعورة لإشعال فتن لها أول وليس لها آخر، ويغفل المرمى، والمغزى والهدف لمثل هكذا كتاب!!!

يتابع العظم دراسته عن العولمة، ويأتي بشواهد كثيرة لكتاب وصحفيين عن العولمة، قادحين ذامين هذه الظاهرة ما بعد الاستعمارية الإمبريالية، ويتوقف طويلاً مع كتاب لينين "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" الذي استنتج منه العظم، مع كتب أخرى لبوخارين في كتابه (الإمبريالية والاقتصاد العالمي) و(تراكم رأس المال) لروزا لوكسمبورغ، ليقول: "أستنتج أن التحليلات المذكورة للمرحلة الإمبريالية سليمة في خطها العام طالما بقينا ضمن إطار عالمية دائرة التبادل الرأسمالي وتوسع سوقها المطّرد إلى زوايا الأرض الأربع. لكنه يعود فيقول: "إن التطورات الطارئة لاحقاً على مسار الرأسمالية التاريخية وصولاً إلى لحظتنا الحاضرة، قد بيّنت أن وصف الإمبريالية في المؤلفات المذكورة أعلاه، إن كان ضمناً أو صراحة، بأعلى مراحل الرأسمالية أو آخرها هو تشخيص خاطئ ووصف في غير محله وتنبؤ سابق لأوانه بكثير"(21).

لا أريد نقاش العظم هنا، حول ما ذكر عن لينين وروزا لوكسمبورغ وبوخارين، لأنه ليس في هذا المقام، يتم ذلك، ولكن أقول: إن العظم يناقش دراسات وكتباً صدرت قبل مئة عام. والزمن هو الحكم الفصل في تبيان صحة رأيه أو آراء الذين ذكر.

ويختم العظم دراسة قائلاً: "لكن لابد من تحذير هام في هذا المقام يمنعنا، أولاً من اختزال الأشكال الثقافية العولمية الناشئة إلى مجرد عملية تجميع لروائع الكتب والروايات والمسرحيات والقصائد والأفكار" الخ، ومن ثم رفعه كله إلى مستوى أعلى نطلق عليه اسم "ثقافة عولمية أو ما شابه"..

ويتابع قوله: "يبدو لي أن مؤلفات (الاستشراق) لـ إدوارد سعيد و(الآيات الشيطانية) لـ سلمان رشدي، و(نهاية التاريخ) لـ فرنسيس فوكوياما و(صدام الحضارات) لـ صموئيل هنتنغتون، ـ بغض النظر عن تفاصيل محتوياتها وطبيعة طروحاتها وحقيقة أغراضها ونوع مواقفنا منها ـ هي نتاجات ثقافية عولمية"(22).

وسأترك التعليق والتعقيب للدكتور حسن حنفي الذي جاء تحت عنوان: التعقيب من مثقف وطني إلى مثقف غربي ـ حوار مع د. صادر جلال العظم ـ والمثقف الوطني هو حسن حنفي، والغربي هو صادق العظم.

يقول حنفي:

ولب الحوار هو التقابل بين موقفين:

الأول: يعتز بالثقافة الوطنية، وبالاستقلال الوطني، وبالدولة الوطنية وبالتراث القومي، وبالهوية الوطنية، وبالخصوصية الثقافية، وبالإبداع الذاتي للشعوب، دون أن يعني ذلك الانغلاق على الذات ورفض الآخر، بل التعامل معه من موقف الندية والتمايز، لا من موقف الانبهار والتبعية والتقليد.

والثاني: الاعتزاز بالثقافة الغربية، وبالذات الغربي، وبالعصور الحديثة التي أصبحت عصور العالم كله، وبآخر ما أنتج الغرب من مفاهيم مثل العولمة، فللعالم نظام واحد، وللتاريخ مسار واحد، وللثقافة بنية واحدة، على كل الشعوب والثقافات والمسارات التاريخية أن تتكيف معها، المركز مركز والمحيط محيط"(23).

ويُعدّ د. حسن حنفي أن هذا الحوار، هو حوار بين مفكرين عربيين:

أستاذين متخصصين في الفلسفة بين الإقليم الجنوبي والإقليم الشمالي في الجمهورية العربية المتحدة (1958ـ 1961) وهو في الحقيقة حوار بين الجنوب والشمال، بين الخصوصية والأممية، بين الثقافة الوطنية والثقافة المحلية، يقول حنفي: "الحوار، إذن بين الزميلين

والصديقين ليس حواراً بين الإسلام والماركسية بل بين الإسلام الوطني والماركسية الغربية"(24).

يرى حسن حنفي في معرض رده على صادق العظم، على أن الخلاف في وجهات النظر بين المفكرين العرب إلى المنهج أكثر منه إلى الموضوع، وتتعدد المناهج، أي طرق التناول، وقد يؤدي إلى نتائج واحدة، تتعدد نقطة البداية، وتتوحد نقطة النهاية، تختلف المقدمات وتتحد النهايات"(25).

يختلف حسن حنفي مع العظم في فهم كل منهما للآراء المتعددة، حول العولمة واتجاهاتها، مثل نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، والشركات الكبرى، يقول حسن حنفي: "وتستثمر الأفكار المساعدة في الانتشار مثل (المجتمع المدني)، و(الجمعيات الأهلية) و(حقوق الإنسان) و(حقوق الأقليات) و(حقوق المرأة)، وكلها كلمات حق يُراد بها باطل"(26).

ويستطرد مفنداً دراسة العظم إلى أن يقول: "فالعولمة ليست قضية نظرية، بل صراعاً تاريخياً بين المركز والأطراف، بين الدول الغنية والدول الفقيرة، بين الشمال والجنوب، بين الاستعمار والتحرر، بين الهيمنة والاستقلال، ولا يوجد خطاب نظري دون أن يكون الفعل السياسي وحركة التاريخ جزءاً من مكوناته"(27).

ويستنتج حنفي أن "العولمة إذن أحد أشكال الهيمنة الأوروبية على الشعوب غير الأوروبية، استيلاء على المواد الأولية خاصة النفط، وعلى الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية، وزرع الشركات المتعددة الجنسيات حيث العمالة الرخيصة وقرب الأسواق، فالظاهرة الاقتصادية تالية للظاهرة التاريخية"(28).

كما ويرى حنفي أن ربط العولمة بأحداث ثقافية معاصرة لها، لا يعني التحليل الثقافي لها.

وبعد تحليل حنفي لدراسة العظم، فقرة فقرة، خاصة، الثقافي منها، وما جاء فيها عن استعراض أسماء مثل لينين، وكاوتسكي، وسمير أمين، وجوندر فرانك، وغيرهم يصل إلى النتيجة التالية: "لا توجد ثقافة عالمية واحدة إلا ثقافة المسيطر الذي يمتلك أدوات إبداعها ونشرها. الثقافة لا تكون إلا خاصة مرتبطة بحضارة، وشعب، ولغة، ومرحلة تاريخية، فالثقافة العالمية أسطورة لا وجود لها. خلقتها أجهزة الإعلام الغربية حتى يتم تطويع الخارجين على سلطان الغرب. الثقافة تنبع من الهوية الثقافية، وليس من التغريب الثقافي" (29).

هوامش:

1ـ د. وديع بشور. مملكة الشيطان ـ المؤامرة مستمرة. 2005 ص78 من غير إشارة لدار النشر.

2ـ د. حسن حنفي. ما العولمة. (كتاب مشترك مع صادق جلال العظم) دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، 1999 ـ ص11.

3ـ المصدر نفسه. ص11.

4ـ د. وديع بشور. مملكة الشيطان ـ المؤامرة مستمرة ـ 2005، ص70؟

5ـ د. سهيل فرح، الحضارة الروسية. أسئلة الهوية والآخر العربي، دار علاء الدين، دمشق 2010، ص153.

6ـ د. رمزي زكي ـ من مقدمته لكتاب (فخ العولمة) المترجم عن الألمانية، سلسلة "عالم المعرفة" ، ص13.

7ـ د. علي حرب (الثقافة والعولمة) مجلة الشاهد. بيروت عدد 159، 1998 ـ ص83.

8ـ الثقافة بين الكوني والخصوصي ـ مجموعة من المؤلفين. ترجمة د. اياس حسن. دار الفرقد ـ دمشق 2008 ـ ص380.

9ـ المصدر نفسه. ص380.

10ـ المصدر نفسه. ص381.

11ـ الكسندر بانارين ـ الإغواء بالعولمة ـ ترجمة عياد عيد. اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2005ـ ص121- 122.

12ـ المصدر نفسه. ص122.

13ـ المصدر نفسه. ص122.

14ـ المصدر نفسه. ص123.

15ـ صادق جلال العظم، ما العولمة (كتاب مشترك مع حسن حنفي) دار الفكر ـ دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت 1999، ص61.

16ـ المصدر نفسه. ص62.

17ـ المصدر نفسه. ص65.

18ـ المصدر نفسه. ص65.

19ـ المصدر نفسه. ص69.

20ـ المصدر نفسه. ص70.

21ـ المصدر نفسه. ص106.

22ـ المصدر نفسه. ص206.

23ـ المصدر نفسه. ص212.

24ـ المصدر نفسه. ص213.

25ـ المصدر نفسه. ص213.

26ـ المصدر نفسه. ص215.

27ـ المصدر نفسه. ص218.

28ـ المصدر نفسه. ص220.

29ـ المصدر نفسه. ص233.

❑❑

بحوث ودراسات

بحوث ودراسات..

التلقي السلطاني للشعر العربي
(أبو الطيب المتنبي أنموذجاً)

❑ بنهشوم الغالي

لم يتخلف سلاطين الدولة المغربية منذ العصر المرابطي، وحتى مطلع القرن العشرين عن الاهتمام بشعر أبي الطيب المتنبي، وهو اهتمام جسده ذلك الإعجاب المنقطع النظير لشعره؛ فقد تفاعلوا معه من خلال تمثلهم بشعره في رسائلهم وفي مخاطباتهم، وفي المواقف المختلفة، وتناشدوا أشعاره في مجالسهم الأدبية والعلمية واختبروا سمارهم بخصوص شعره، وحفظوا لآلئ قصيده ووجهوا شعراءهم نحو معارضته واقتفاء أثره. وقد أعطى هذا التفاعل صورة عن تلقي هؤلاء لشعره مما يدفعنا إلى البحث في مستويات التلقي وفضاءاته، ووسائله وآلياته وأنواعه.

1. مستويات تلقي شعر المتنبي

1.1. مستوى التمثل بشعره في المواقف المختلفة

توضح مجموعة من النصوص الإخبارية تمثل سلاطين الدولة المغربية بشعر أبي الطيب المتنبي نذكر منها: أن السلطان أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، كان بينه وبين الأدفونش النصراني صاحب طليطلة مكاتبات؛ فكان منها رسالة كتب بها الأدفونش إلى الأمير يعقوب يتوعده ويتهدده ويطلب منه بعض الحصون، فلما وصل الكتاب إلى أمير المسلمين، مزقه وكتب قطعة منه: "ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون ،الجواب ما ترى لا ما تسمع !" وتمثل ببيت أبي الطيب المتنبي:

وَلا كُتْبَ إلَّا المَشْرَفِيَّةُ وَالقَنا
وَلا رُسُلٌ إلا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ(1)

وكثيرا ما كان مؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت يتمثل بقول أبي الطيب المتنبي المعبر عن لسان الحال:

إِذا غامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ
فَلا تَقنَعْ بِما دُونَ النُّجُومِ

---

* باحث من المغرب -- أستاذ التعليم العالي --- جامعة المولى إسماعيل -- المغرب.

فَطَعْــمُ المَــوتِ في أَمْــرٍ حَقــيرٍ
كَطَعْـمِ المَـوتِ في أَمْـرٍ عَظـيمِ(2)

ويتمثل بقوله أيضا:

وَمــا أَنامِنهُــمُ بِالعَيــشِ فيهــم
ولكِـن مَعـدِنُ الذَّهَـبِ الرَّغـام(3)

وبقوله أيضا:

وَمَــنْ عَــرَفَ الأَيَّــامَ مَعــرِفتي بِهــا
وَبالنَّــاسِ رَوّى رُمحَــهُ غَــيرَ راحِــمِ
فلــيسَ بِمَرحُــومٍ إذا ظَــفِروا بِــهِ
وَلا في الـرَّدى الجـاري عَليـهِم بِآثـمِ(4)

وجاء في الصبح المنبي:" حدث بعض المغاربة قال: كنا عند ملك المغرب فورد عليه مكتوب من بعض ثغوره يتضمن أن أعداء المسلمين خرجوا من البحر وفتكوا بعساكر ذلك الثغر أمير تهابه الحتوف، وتفرق من ملاقته الألوف، وسار إليه أعداء الدين، بجمع لا يبلغ عشر من قتلوا، فتلقاهم بالبيض المشرفية والسمر الخطية، فانهزمت أرواحهم إلى النار، وثبت أجسامهم كالأحجار، وعمد إلى سفنهم فأغرقها، وإلى أشلائها فأحرقها، فلما تمت قراءة الكتاب قال: رحم الله أبا الطيب المتنبي ومراده قوله: فليس يأكل إلا الميتة الضبع."(5)

ويذكر صاحب المنتقى المقصور أن السلطان محمد الشيخ السعدي، كان يحض على المشورة ويقول ولا سيما في حق الملوك وينشد قول الشاعر:

وَمَــنْ جَــهِلَتْ نَفْــسُهُ قَــدْرَهُ
رَأى غَــيرُهُ مِنــهُ مــا لايَــرَى(6)

وكثيرا ما كان يتمثل وينشد من الشعر بيتا واحدا هو:

النَّــاسُ كَالنَّــاسِ وَالأَيَّــامُ واحِـدةٌ
الدَّهرُ كَالدَّهْرِ وَالدُّنْيا لِمنْ غَلَبا(7)

بعث محمد بن الشريف برسالة ترغيب وترهيب إلى محمد بن الحاج الدلائي فختم رسالته متمثلا بقول أبي الطيب يقول فيها: " ... وحتى الآن أخر المراجعة بيننا هذا الكتاب. فإن رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبي، وإن عشقتم الغير فجوابي لكم قول أبي الطيب المتنبي:

وَلا كُتْــبَ إلاّ المَــشرَفِيَّةُ وَالقَنــا
وَلا رُسُــلٌ إلا الخَمــيسُ العَرَمْــرَمُ

والسلام "(**8**).

أما السلطان محمد الثالث، فقد كان يتمثل بقول أبي الطيب المتنبي:

وَلا تَحــسَبَنَّ المَجــدَ زِقًّــا وَقَيْنَــةً
فَما المَجدُ إلاَّ السَّيفُ والفَتكةُ البِكر(9)

ثم بقوله:

وَمـا كُنـتُ مِمَـن أدركَ المُلـكَ بالمُنـى
وَلَكِـن بِأَيّـامٍ أَشَبْـنَ النَّواصِـيا(10)

وكان شعر المتنبي وسيلة من الوسائل الترفيهية التي كان يروح بها هذا السلطان عن نفسه، ما يفسر ذلك جملة من الأبيات الشواهد التي وظفها في كتابه " ترويح القلوب".

ملاك الأمر: إن تلقي السلاطين لشعر أبي الطيب المتنبي في هذا المستوى كان يقوم على التمثل به في المواقف المختلفة، فقد كانت أشعاره تسعفهم في التعبير عن أغراضهم، وكانت أبياته ترجماناً عما كان يجول بخواطرهم، وعما كانوا يصبون إلى تحقيقه من طموح ورفعة، لأنهم وجدوا في شعره طاقة إيحائية لا توجد في شعر شاعر غيره، فكل بيت يتمثل به كان مثل

رسالة شافية كافية تامة المعنى والمبنى غنية عن أي تعبير، وذات حمولة دلالية تلخص مقصد المتلقي وغرضه بحيث تجعل هذا الأخير يتواصل ويتفاعل تلقائياً مع الشعر المتمثل به لأنه من:" القول الذي لكثرة جريانه على ألسنة الناس قيمة تعبيرية خاصة جعلتهم عند تشابه الحال لا يجدون أبلغ منه وأوجز في تصوير ما بأنفسهم والتعبير عن مرادهم"(**11**).

هكذا لخصت الأبيات المتمثل بها، مستوى من مستويات تلقي شعر المتنبي. ولم يقف التلقي عند هذا الحد بل تعداه إلى مستويات أخرى منها الحفظ.

2.1ـ مستوى الحفظ

اهتبل سلاطين الدولة المغربية بحفظ شعر أبي الطيب المتنبي، واشتهروا بذلك، منهم محمد الشيخ السعدي(**12**)، الذي ارتبط اسمه، بديوان أبي الطيب المتنبي لأنه " كان كثيرا ما يتعاطاه على شغف ويعرب بذوقه السليم، عن حكم أنيقة القُرط والشَّنَف، ويجلّي بمدارس الإدراك غرَرَه، ويستخرج بفهمه الثاقب، من بحور معانيه الزاخرة درَرَه، حتى اشتمل عليه حفظا ودراية، ورفع للشهرة بمعرفته الراية، وما زال رضي الله عنه يوصي بحفظه ودرايته إلى أعقابه الكرام وبنيه، ويشير بذلك على كتابه وعلماء وقته وذويه"(**13**).

ذكر صاحب نزهة الحادي سبب حفظه له؛ فقال:" لما غدرت به قبيلة المنابهة وأنجاه الله من غدرتهم، كتب إلى شيخه عبد الله بن عمر المدغري، يشكوله الحال فأجابه: أين أنت من قول أبي الطيب:

غاضَ الوَفاءُ فما تَلقاهُ في عِدَةٍ

وأَعوزَ الصِّدقُ في الإخْبارِ والقَسَمِ (14)

فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي، حتى علق بحفظه كله، ولم يعزب عنه بيت واحد منه."(**15**) وقد ساعده هذا الحفظ على الاستشهاد به في المناسبات والمواقف المختلفة.

توارث الأبناء هذا الحب وهذا الشغف بالديوان عن الآباء، بل كان من وصايا الآباء لأبنائهم، الإقبال على شعره، حفظاً وفهماً ودراية. فهذا أحمد المنصور السعدي كان هو الآخر من أشد السلاطين شغفاً وإعجاباً بشعر أبي الطيب وبشخصيته، ولذلك ألفناه مصاحباً لديوانه مجالساً له، مستأنساً به يحفظه ويتذوق معانيه. وفي عهده ارتقى ديوان المتنبي مكانة عالية، وعرف عناية خاصة، إذ أمر شاعره الخنذيذ عبد العزيز الفشتالي بجمع شعره، وترتيبه، ترتيباً خاصاً، وكانت خزانة المنصور حبلى بعدد من النسخ الخطية. ويذكر الفشتالي شغف المنصور، وهو شغف يجسد مدى تفاعل المنصور مع شعر" الصائح المحكي " فهو كما يقول صاحب الترتيب " كالخليفة أبيه كلف بضاعته ومغرم وولوعه المنيف قد طاف بمعطاته وأحرم ومازال على المدى مطلعا لشموس حكمه، ونوادره في كريم ناديه ومجيلا لقِداح المحاورة فيه مع جهابذة هذا الشأن وأهل واديه، حتى فاز من سهام المعرفة بمعانيه وأساليبه ومبانيه بالقِدح المعلَّى، وصار في حفظه وحفظ الأدب على الجملة ودرايته آية تتلى"(**16**).

يتبين من خلال هذه النصوص مقدار تفاعل السلاطين مع شعر المتنبي وهو تفاعل يتأسس على مستويات من التلقي منها الحفظ والفهم والدراية والتمثل ف:" من شروط التلقي حتى يتم التواصل بين الشعر والمتلقي، الوعي الذي يشمل المعرفة والإدراك والفهم" (**17**). هذا الوعي يتحدد عند

المتلقي من خلال طبيعة الرسالة الشعرية التي بثها المرسل/المتنبي، لأن تأثير الشعر يكون أشد إذا فهم المتلقون معانيه فقد كان شعر المتنبي يرضي في الناس حاجتهم القديمة إلى الأبيات الجيدة(**18**). .وهذا النوع من الشعر هو الذي يجد المتلقون/السلاطين فيه أنفسهم، وهو الذي يميلون إلى حفظه؛ فإذا أنشدوا أو غنوا به ازدادت حدة وقعه، ومن ثمة، فإن سلاطين الدولة المغربية وجدوا في ديوان أبي الطيب الشعر الذي يرضي في الآن نفسه حاجتهم المألوفة لجيد الكلام وحاجاتهم المستجدة المستحدثة له، لهذا تجانس شعره مع أفق انتظارهم كل التجانس، ووجد كل قارئ فيه شيئا من ضالته فتفاعل معه المولعون بالكلام، الذي يمازج النفس لأول وهلة، ويشدها إليه أول قراءة (**19**). لذا غدا شعره خير مترجم عما يجول بخواطرهم، وخير معبر عما يودون الإفصاح عنه، وخير مستجيب لذائقتهم وآفاق توقعاتهم، فربما عجزوا عن التعبير كتابة أو نثرا، فحفظوا شعره وتمثلوا به؛ فكان الحفظ أفضل وسيلة للتواصل بين الباث/ المتنبي، والمتلقي/ السلاطين.

3.1ـ مستوى السماع والإنشاد(20)

يعتبر السماع والإنشاد أهم وسائل تلقي السلاطين لشعر أبي الطيب، وهما عنصران ارتبط أحدهما بالآخر، وفي تاريخ الشعر العربي ما يدل على ذلك، ويكفي أن نضرب المثل بالقبة التي كانت تضرب للنابغة الذبياني في سوق عكاظ، حين كان الشعراء ينشدونه أشعارهم إنشادا، وكان يستمع إليهم فيفاضل بينهم. واستمر الأمر في العصر الإسلامي، إذ كان شعراء البلاط يمدحون مخدوميهم في مجالسهم الأدبية، وكان المدح يتطلب حسن إنشاد الشاعر، وحسن استماع الممدوح، وفي هذا الإطار يقول يوسف بكار:" وينبغي ألا يغيب عن البال أن الشعر القديم كان ينشد إنشادا وكان القدماء يعولون عليه كثيرا حيث كان يلقي الشعراء قصائدهم والأدباء انتاجهم في المناسبات والمحافل والأسواق الأدبية وغيرها، واستمر الإنشاد حتى العصر العباسي إذ قيل: إن الرشيد كان يطرب للإنشاد أكثرما يطرب للغناء"(**21**) مما يدل على أن التلقي عن طريق السماع ارتبط بتناشد الأشعار، وما يتطلب ذلك من صوت حسن وذلك "لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس"(**22**).

وبالعودة إلى تاريخ الأدب المغربي نجد بعض النصوص التاريخية – وهي قليلة جداً- تثبت تلقي سلاطين الدولة المغربية للشعر عن طريق السماع والإنشاد، نكتفي بذكر بعض النماذج التي لها علاقة بإنشاد شعر أبي الطيب المتنبي، من ذلك ما يحكيه الشاعر حمدون بن الحاج من أن ديوان المتنبي كان صديقا حميما وجليسا مؤنسا(**23**)، للسلطان المولى سليمان، الذي كان شغوفاً بقراءته، معجباً ببعض قصائده، وخصوصا قصيدته السينية التي مدح بها ابن زريق يقول حمدون:" وحدثني- نصره الله- أنه تأخذ بقلبه وتعجبه غاية سينية المتنبي"(**24**) التي مدح بها محمد بن زريق" هذي برزت لنا ... ثم أتى إلي- وأنا بمنزلي عنده- وبيده ديوان المتنبي فجلس حتى قرأتها عليه، فقلت معارضا لها والحاذق اللبيب هو الحكم والفيصل"(**25**).

إن افتتان السلطان بشعر أبي الطيب وخصوصا قصيدته – السينية- تجعل القارئ

يطرح مجموعة من الأسئلة تتعلق بطبيعة تلقيه لهذه القصيدة.

- لماذا كلف السلطان نفسه عناء حمل الديوان والذهاب به إلى منزل شاعره ليطلب منه قراءة قصيدة المتبي؟
- لماذا اختار القصيدة السينية دون غيرها من القصائد؟
- لماذا طلب من شاعره أن ينشده القصيدة، ولم يكلف نفسه عناء القراءة؟
- لماذا طلب من شاعره معارضة تلك القصيدة؟
- لماذا استبدل القراءة بالسماع ؟

تلك الأسئلة تجد أجوبتها:

أولا: في وعي وإدراك السلطان بالمقصدية الفنية والإيحائية للرسالة الشعرية/السينية، ثم في استجابة هذه الأخيرة لذائقته وآفاق توقعه وما يشبع حاجته الجمالية والشعرية، ولذلك كان من شروط التلقي التي يحصل بها التواصل التام بين الباث والمتلقي استجابة الأول لأفق انتظار الثاني، وما يحقق ذلك من فهم وإدراك ومعرفة مسبقة، فالنفس إنما تألف ماجانسها وتقبل الأقرب فالأقرب إليها وتسكن إلى كل ما وافق هواها " فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب "**(26)**، وهي الأريحية التي أوقعت السلطان في جمالية الرسالة الشعرية عندما وافقت هواه يقول أبو الطيب:

إنَّمــا تُــنجحُ المَقالــةُ في المَــر
ءِ إذا صــادفتْ هــوىً في الفُــؤادِ

وإذا الحِلمُ لَم يكُنْ عنِ طِباعٍ
لَم يُحَلِّم تَقَدُّمُ الميلادِ(27)

ثانيا: رغبة السلطان في سماع القصيدة إنشادا، لوعيه بأن القراءة لا تؤدي وظيفة الإنشاد ولن تحل محل هذا الأخير؛ لأن الشعر يفقد بالقراءة الشيء الكثير. ثم لعلمه ما للإنشاد من وقع حسن وأثر عميق في النفس:" لأن الصوت الحسن يسري في الجسم، ويجري في العروق، فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وتهش له النفس، وتهتز له الجوارح، وتخف الحركات"**(28)**، فربما لهذه الأسباب ولهذه الفوائد أحب السلطان أن يسمع القصيدة إنشادا من شاعره حمدون. ومعلوم أن الشعراء اشتهروا بفن الإلقاء والإنشاد؛ لذلك كان المتلقون –كما ذكر ابن سلام الجمحي- :" يحبون أن يسمعوا الشعر من أفواه أحسن المنشدين"**(29)** أو ربما اتصلت المسألة بسبب آخر يجعل السمع**(30)** أنسب قنوات التواصل والتلقي مع الشعر، لأن السامع يستقبل ما يرضيه، وما يغضبه، ولا اختيار له في ذلك. فإذا اجتمع الحسن والقبيح والجيد تهيأت له أسباب التميز والمفاضلة وعوامل التذوق والإدراك، وتلك أقرب إلى طبيعة الشعر، فالمتعة الفنية التي يحققها الشعر المسموع للمتلقي، لا سبيل إليها في قراءة ديوان أو حفظه. ولا شك في أن السامع / المتلقي أدرك للإنشاد لطيفة لم يفطن إليها قارئ أو حافظ. أو أحس أن للإنشاد والسماع "موهبة لها شأنها الخطير في امتلاك أزمة الآذان وجذب أعنة الصدق والتسلط على ألباب المستمعين في المحافل الحافلة، والمقامات المشهودة"**(31)**. زد على ذلك الدور الذي يلعبه الشعرالمنشد أو المغنى في التخفيف من أعباء الملك، وتهدئة الروع، وإسكان الغضب**(32)**.

ثالثا: جمالية القصيدة نفسها فهي ترشح بقيم فنية وجمالية امتزجت فيها خصال المديح مع فنية التعبير وجيشان العاطفة زد على ذلك حلاوة اللفظ وحسن العبارة وشرف المعنى، كل ذلك أحدث تأثيراً في المتلقي/السلطان. وهو ما جعل هذا الأخير يحس بلذة النص، ونشوته، أو بالراحة الوجدانية التي تغشاه وهو يتلقى النص الشعري سماعا، والفضل في ذلك يرجع –في نظر الجرجاني- إلى نوعية الخطاب ومدى حضور عناصر الإثارة فيه" وإذا عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن وتأمله، فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت "(33)، وهذا النوع من الشعر هوالذي يجد المتلقون فيه أنفسهم، وهو الذي يميلون إلى حفظه وسماعه، فإذا أنشدوا أوغنوا ازدادت حدة وقعه.

ينضاف إلى جمالية القصيدة، قيم المديح التي تغنى بها الشاعر، فالممدوح/سيف الدولة في هذه القصيدة بطل يخوض الشدائد والأهوال والحروب، شديد الحزم جيد الطعن في الأعداء يعطي من قصده؛ فهو بحر في الجود والعطاء، وهو بدروشمس وسيد، بل هو أفضل من ذلك، إنه ممدوح نموذجي ومثالي لا يشاركه أحد هذه الأوصاف(34). هذه الصفات التي مدح بها المتنبي ابن زريق هي نفسها التي كان يتصف بها السلطان، أو على الأقل كان يطلبها ولذلك أحب السلطان أن يسمعها إنشادا كما لو كانت تعنيه. وما يؤكد هذا الطرح، هو فطنة الشاعر حمدون بن الحاج عندما أحس برغبة مخدومه في نظم قصيدة على شاكلة سينية المتنبي يكون فيها السلطان هو الممدوح لا غيره. وهو ما تحقق بالفعل فقد نظم قصيدة عارض بها سينية المتنبي تحمل نفس القيم المدحية، بل إن كثيرا من المعاني والألفاظ مأخوذة من القصيدة الأصل.

لهذه الأسباب وغيرها أقبل السلطان يهرول إلى بيت شاعره ليسمع منه شعر أبي الطيب المتنبي إنشادا.

نستخلص أن التلقي عن طريق السماع حقق نوعا من التفاعل والتواصل بين الرسالة الشعرية وطريقة إنشادها وبين المتلقي/ السامع وهو تفاعل يفسره استجابة هذه الرسالة لأفق انتظار المتلقي/السلطان. وهكذا اجتمعت جمالية الإنشاد وجمالية التقبل/الفهم والإدراك على تأليف الحواس حول الشعر الذي يرضي الحاجة الكامنة في انتظاره(35).

1.4. مستوى التلقي في المجالس الأدبية والعلمية

مثلت المجالس الأدبية والعلمية فضاء رحبا لتلقي سلاطين الدولة المغربية لشعر أبي الطيب، لأنها فضاءات كفيلة بتوفير مناخ تستهلك فيه النصوص فتتدارس وتقوم، وفيها يختبر ويطارح الشعراء؛ وما من شك في أن المتنبي كان ضمن النصوص المستهلكة، وقد صدق الثعالبي عندما قال:"وليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل ولا لحون المغنيين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين. وذلك أول دليل على وفور فضله وتقدم قدمه وتفرده عن أهل زمانه"(36).

إن حضور المتنبي في المجالس الأدبية والعلمية السلطانية كان قويا، وهو ما تكشفه بعض النصوص الإخبارية التي تستجلي بعض مظاهرالتلقي لشعره فماهي هذه المظاهر؟

أ. مظهـر الاختبـار: اشـتهر أمـراء وسـلاطين الدولـة المغربيـة، في مجالـسهم العلميـة العـامرة بفطاحـل العلمـاء والأدبـاء، باختبـارهم لهـؤلاء في عـدة قـضايا، تخـص جانـب اللغـة والأدب والفقـه ونـضرب المثـل في هـذا البـاب بـبعض النـصوص الإخبارية الـتي أوردهـا المتوكـل الروداني صـاحب كتاب " نفحات الشباب". وهـو نـص يـروي اختبـار الأمير محمد العالم(**37**) في أحد مجالسه العلمية لبعض أدباء سوس يقول فيه:" مثل الثلاثة(**38**)، عند الحاجب فأخبرهم فمثلوا بين يديه [...] فـألقى الخليفة عليهم مسألة لغوية في التصريف وهي وزن (مرايا) وأصل الكلمة فمرقوا في ذلك بسرعة ثم سـألهم عـن الأدب ولم يكـد يعهـد مـن كـثير مـن فقهاء (سوس) أدبا عاليا فبغثه الثلاثة ما أعجب منه فقد وجدهم حفظوا كلهم المقامات وحفظوا قـصائد المتـنبي والـبحتري وأبـي تمـام وجريـر والفرزدق والأخطل وأبي فـراس وبشار ومـسلم بـن الوليـد فـضلا عـن المعلقـات [...] وكـان أول مـا سألهم عنه أن قال لهم: من قائل هذا البيت؟

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا

يـوم الكريهـة في المسلوب لا في الـسلب

فقـالوا متبـادرين مبتـسمين مـن سـؤاله عـن ضـروري: إن قائلـه أبـو تمـام الطـائي (حبيـب بـن أوس) ومطلع القصيدة:

الـسَّيفُ أَصـدقُ أَنْبَـاء مـنَ الكُتُـبِ

فِـي حـدِّهِ الحَـدَّ بـينَ الجَـدِّ واللَّعـب(39)

وقال: من الذي يقول:

وأَصـرعُ أيَّ الـوَحشِ قَفَّيتُـهُ بـهِ

وأَنـزِلُ عنـهُ مِثلَـهُ حيـنَ أركَـبُ(40)

فقال له السكتاني: إنـه لأحمد بـن الحسين (المتنبي) من قصيدة يقولها في كافور أولها:

أُغالـبُ فيـكَ الـشَّوقَ والـشَّوقُ أَغلَـبُ

وأَعْجبُ منْ ذا الهَجرِ والوَصلُ أَعجبُ

وإن شاء سيدنا أمليتها عليه كلها وأمليت على مسامعه الشريفة تاريخ كافور والمتنبي وكل القصائد التي قالها فيه (السيفيات) وهـي معدودة حتى هجويته التي شبهها بالكردن(**41**). قالوا لي لقد رأينا الخليفة اهتز اهتزازا القصبة في يوم مريح... "(**42**)

ولما رأى الخليفة قوة حفظهم وشدة فطنتهم لجـأ إلى أسـلوب آخـر في الاختبـار وهـو أسـلوب الأحجية فطلب منهم البحث عن أصل المعنى من الأبيـات الأخـيرة مـن قـصيدة الـسكتاني. قـال الخليفة أحاجيكم، ما هو الأصل في هذا المعنى الذي أخر هذه القصيدة(**43**)؟ وقد وصفه وصفا دقيقا فبادر الزدوتي فقال: إنه للمتنبي في ميميته المعلومة التي يقول فيها لسيف الدولة:

وَقَفْتَ ومَا في المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ

كـأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدى وهُو نائِمُ

تَمـرُّ بِـكَ الأَبْطـالُ كَلْمـى هَزيمـةً

وَوَجْهُـكَ وَضّـاحٌ وثَغْـرُكَ باسِـمُ

إلى آخـر المقـصود مـن تلـك القـصيدة فقـال الخليفـة: للّه درك فهـذا مـا أريـد، ولكـن أبـشر أديبنـا الـسكتاني أنـه أخـذه أخـذا حسنا، وذلـك الوصـف ممـا جعـل للقـصيدة قيمـة عظيمـة في نظري."(**44**)

ثمة ملاحظات يمكن للقارئ أن يستجليها بخـصوص تلقـي الأمـير لـشعر المتـنبي مـن خـلال هذين النصين:

اختبـاره للأدبـاء، وكـان مـن جملـة مـا اختبرهـم فيـه سؤالـه عـن صاحب هـذا البـيت:

"وأصرع أي الوحش[...] "وهو لأبي الطيب ثم سؤاله عـن أصـل المعنـى مـن قـصيدته تلـك ، واختبـاره للأدبـاء حـول شـعر الـصائح المحكـي لم يكـن اعتباطاً وإنما يعود إلى سببين: أحدهما أن شعر المتـنبي كـان مـن المقـروء الـذي يطالعـه، ومـن المحفوظ الذي يجري على لسانه، ومن المكتوب الـذي يخـط بـه رسـائله. وثانيهمـا أن اسـتدعاءه لشخصية المتنبي في بلاطه مرات متعددة من خلال بعض قصائده هو استدعاء لشخصية سيف الدولة الحمـداني وكـافور الإخـشيدي باعتبارهمـا نموذجـان للممـدوح المثـالي. وربمـا كـان يـرى في نفسه صورة طبق الأصل للممدوح النموذج.

فعـل الدهـشة الـتي اعـترت الأمـير عنـدما اسـتطاع الزدوتـي كـشف المعنـى الموصـوف مـن قصيدة أبي الطيب وهـي الدهشة التي عبر عنها بقوله:"لله درك فهذا ما أريد" وهي الدهشة نفسها الـتي جعلـت الأمـير يهتـز اهتـزاز القـصبة في يـوم مـريح إعجابـاً بنباهـة الـسكتاني، وبجماليـة قصيدة المتنبي، مما يدل على تفاعله الإيجابي مع الخطـاب الـشعري أو الرسـالة الـشعرية الـتي تعبر عن لسان الحال.

وهـذا المظهـر مـن التلقـي يعطـي تـصوراً عـن عمق الأثـر الـذي تحدثـه الرسـالة في متلقيها حـين تحصره في ردود فعل منبهرة مثيرة للدهشة، وهـي ردود تتـأرجح بـين المـستوى الأول لتلقـي الـشعر المتمثـل في الوقـع الأول، الـذي يثـار حـين قـراءة الـشعر أو سماعـه: التـأثير والإعجـاب والقيـام بأنظمة علامية تسد مسد العبارة(45)، فاهتزازه اهتزاز القصبة تعبيرعن الارتياح والإطراب(46)، النـاتجين عـن وقـع الرسـالة الـشعرية، فلـيس في تراثنا شـيء يقـوم مقـام الـشعر في تحريك المشاعر وإثارة الحماس، "فـلا يهتـز ملـك ولا رئـيس لـشيء من الكـلام كما يهتز ويرتاح لاستماعه"(47).

تفـضيل الأمـير لقـصيدة الـسكتاني الـتي مدحه بها لأنها تحمل بصمات شاعره المفضل أبـي الطيـب، فقـد ضـمن الـسكتاني بعضا مـن ألفاظ ومعـاني قـصيدة المتـنبي، في مـدح الـسيف وهـو مـا لاحظه المتلقي/الأمير فاستحسنه وجعل لقصيدته مكانـة عظيمـة في نفـسه، وهـو ملمـح يكـشف حسن سماع المتلقي وتدبره وفهمه لمعاني القصيدة وبذلك يرتقي هذا الأخير من متلق عـادي إلى متلق ناقد، يجهد نفسه في تنـاول الـنص الـشعري تنـاولا حاذقـا، معتمـدا في ذلـك علـى الـتروي و التفكـر والتأمل وغيرها من المفاهيم الـتي تنم علـى الـوعي النقـدي الـذي يخـرج مـن مـستوى الارتجـال إلى مستوى التلقي على أصـول وقواعـد، ومـن مـستوى القـراءة المبنيـة علـى الـذوق إلى مـستوى القـراءة المبررة بالحجة والدليل.

يستشف مـن هـذا كلـه: أننـا إزاء نـوعين مـن المتلقين:

- متلـق عـاد منـدهش يعـبر عـن دهـشته إزاء الرسالة الشعرية تعبيرا جسديا (الهزة).
- متلق ناقد يتلقى الأشعار فيفطن إلى مـا فيهـا مـن اشـتراك وتنـاص في المعـاني عـن طريـق الموازنة والمفاضلة.

ب. مظهـر التلمـيح والتعـريض: يكـشف الإفراني في كتابه " صفوة من انتشر مـن صلحاء القرن الحادي عشر " وصفا دقيقـا لأحـد المجالس العلميـة للمـولى الرشـيد(48)، وفيـه يـصور لنـا كيـف كـان هـذا الأخـير يبـدد أتعـاب العلمـاء والأدباء أعضاء مجلسه، ويحاول الترفيه عنهم من حين لآخر. وكان من جملة مـن حضر في المجلس ابـن المـرابط المسناوي الـدلائي، فـأراد أن يؤانسه ويزيـل وحـشته ويهـدئ مـن روعـه – بعـد تخريبـه للزاويـة الدلائيـة- كمـا أراد في الوقـت نفـسه

مباسطة بقية العلماء الحاضرين بذلك المجلس كعادته في سائر مجالسه المختلفة؛" فأنشده قول المتنبي وهو يعرض بابن المرابط الدلائي ويستطلع وقع البيت الشعري عليه:

ومِن نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يرى
عدُوّا لـه مـا مـن صَداقَتِهِ بُدُّ (49)

ففهم المرابط الإشارة والتعريض فقال: أيد الله أمير المؤمنين ياسيدنا رحم الله من قال: من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا، فاستحسن الحاضرون بديهته وحسن جوابه" (50)

إن التمثل ببيت أبي الطيب المتنبي في معرض التعريض والتلميح هو مظهر من مظاهر التلقي عند السلطان. فالبيت المتمثل به من الأبيات الحكمية، وما الحكمة إلا تعبير دقيق عن تجربة من التجارب الإنسانية العامة، يتضمن تفسيراً لها وتصويراً لوقعها على النفس بحيث يدفعها إلى العظة والإعتبار، وهي مظهر من مظاهر قوة النفس وبراعتها في استشفاف ما يعتمل بها إزاء موقف من المواقف المثيرة، وقدرتها على تصوير وقع الحوادث عليها تصويراً صادقاً. والتعبير عن ذلك تعبيراً موحياً يتجاوب مع كل نفس، بحيث تراه ترجمة عما يراودها ويعتمل بها من آلام(51)، ولما كانت الحكمة بهذا المعنى، فإن بيت أبي الطيب المتمثل به قد لخص مجموعة من الدلالات والمعاني التي أراد السلطان أن يوصلها إلى خصمه منها: أنه من نكد الدنيا أن الكريم لا يجد مندوحة من إضهار الصداقة فيها لعدوه مع علمه أنه له عدو، ليأمن شره، ويدفع غائلته. قال الخطيب التبريزي :"إنما أراد بهذا السلطان الذي لا بد من صداقته بإخلاص القول والنية، فبأيها أخل كان منه الضرر"(52)، فكان بيت المتنبي الحكمي خير معبرعما كان يريد السلطان الإفصاح عنه.

ج. مظهر المعارضة: أصبح استحضار شعر المتنبي في المجالس العلمية السلطانية سنة مؤكدة فإما أن يكون استحضاره من أجل المسامرة والمنادمة والترفيه والاختبار، وإما استحضاره في مناسبة من المناسبات كالإبلال من المرض كما هو الحال فيما يحكيه سليمان الحوات بقوله :" أبل أمير المؤمنين سليمان – حفظ الله ملكه- من حمى كان أصيب بها أول ربيع النبوي 1214هـ فأنشده بعض خاصته متمثلا قول المتنبي:

"المجد عوفي إذ عوفيت والكرم....إلخ" فقلت: معارضا بأمره، فقوله:" فقلت معارضا بأمره" دليل على إعجاب السلطان بقصيدة أبي الطيب وهو المتعبد بجمال قصائده، ودليل أيضا على رغبته في أن يبدع شاعره قصيدة على شاكلة ميمية المتنبي وزناً وقافية، وربما ساهم ذلك في شفاء السلطان من سقمه؛ فالشعر بلسم للنفس العليلة يقول ابن طباطبا:" إذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ ،التام البيان، المعتدل الوزن[...] كان أنفذ من نفث السحر، وأخفى دبيبا من الرقى، وأشد المرايا من الغناء. فسل السخائم وحلل العقد وسخى الشحيح وشجع الجبان، وكان كالخمر في لطف دبيبه وإلهائه وهزه وإثارته."(53)

ثمة ملاحظة تتعلق بتلقي المولى سليمان لابد من الإشارة إليها وهي: شغفه– ومعه سلاطين الدولة العلوية- بشعر أبي الطيب، فقد اتخذ من شعر هذا الأخير نموذجاً ومثالاً يحتذى، ولذلك ألفيناه يأمر شاعريه حمدون بن الحاج وسليمان الحوات بمعارضة قصائده، فضلا عن حفظه

وقراءته لديوانه. وبذلك يكون البلاط قد أسهم في توجيه الإبداع الشعري في المغرب كما هو في المشرق، الشيء الذي حفز الشعراء المغاربة على الارتماء في أحضان المعارضة الشعرية، شكل فيها المتنبي نموذجاً معارضاً مما يدل:" على تلك الممارسة الرسمية على الذوق الأدبي في توجيهه إلى مشارف الفحولة والجزالة والعمق فالشعراء في رغبة ملوكهم يقولون وحين يهوى حكامهم غالباً ما يتطلعون"(**54**).

هكذا إذن كانت رغبة بعض السلاطين شديدة في طلب معارضة شعر المتنبي مما جعل منها مظهراً بارزاً في التلقي.

شكلت المجالس الأدبية والعلمية فضاء رحبا لتلقي واستهلاك شعر المتنبي وقد تم ذلك عبر عدة مظاهر منها: اختبار السلاطين والأمراء لأدبائهم وندمائهم حول شعره، ثم التلميح والتعريض بالخصوم بوساطة أبياته وطلب معارضة غرر قصائده.

5.1. مستوى انتخاب الأشعار في المصنفات الأدبية

تكشف بعض المصنفات الأدبية التي ألفها بعض الأمراء والسلاطين أمثال المولى محمد بن عبد الله صاحب " ترويح القلوب "، وابنه المولى عبد السلام العلوي صاحب كتاب " إقتطاف الأزهار من حديقة الأفكار"، والذي أشرنا إليها سابقا(**55**)، مستوى آخر من التلقي يقوم على الاختيار والانتقاء المبني على الجودة الفنية والنقد الذوقي العملي.

6.1. مستوى التوقيفات على شعر المتنبي

عمد السلطان أحمد المنصور السعدي إلى وضع توقيفات على شعر أبي الطيب في ديوانه الذي رتبه شاعره عبد العزيز الفشتالي المسمى ب" ترتيب ديوان المتنبي". وفي هذا الصدد يقول محمد غريط:" الحمد لله يقول الواضع اسمه عقب تاريخه سامحه الله بمنه: إني سمعت سيدي الوالد رحمه الله يقول غير ما مرة إن المنصور السعدي كان مولعا بديوان أبي الطيب المتنبي وكانت له نسخ منه وكان يوقف على ما أعجبه من أبياته ويجعل مكان الرمل سحيق الذهب تنبيها على كثرته لديه، وإن نسخة من تلك النسخ عند السادة الشرفيين. ولا شك أنها هذه لما فيها من التوقيفات المذهبة."(**56**)

انصبت توقيفات المنصور على ما يمكن أن نسميه مواطن الاهتمام؛ أقصد بذلك الأبيات التي حظيت بإعجاب المنصور، فكان يقابلها بالحفاوة والاستحسان. والمقصود بمواطن الاهتمام أن تكون لكل قارىء اهتمامات وأسئلة منها ما يتعلق بالجانب الفكري ومنها ما يتعلق بالجانب الفني(**57**)، ومنها ما يتعلق بالجانب السياسي، يتوجه بها إلى الشعر، فتجيب عنها بعض الأبيات منه، وبذلك تنال إعجابه واستحسانه فيجعلها في متخيره وتحظى باهتمامه.

إن القارىء لتوقيفات المنصور سيلاحظ أنه يوقف في الغالب على أبيات حكمية أو غزلية، كما يوقف على أبيات في وصف الخيل والمعارك وقد يوقف على بعض المطالع التي تعجبه أو على بعض الأبيات التي عيبت على المتنبي:

فَقَلْقَلْتُ بِالهَمِّ الذي قَلْقَلَ الحَشَا
قَلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ(58)

ومعظم الأبيات التي وقف عليها هي من أبيات المتنبي السائرة، وربما وجد في بعضها ما يعبر عن واقع حاله كهذا البيت الذي وقف عليه:

ومَا كُنتُ مِمَّن أَدركَ المُلكَ بِالمُنى
ولَكنْ بِأيَّامٍ أَشَبْنا النَّواصِيَا(59)

لا شك أن لهذه التوقيفات فائدة في الدلالة على ذوق السلطان المذكور ومقياس اختياره، وكان كما هو معروف أديبا ناقدا(**60**).

نستخلص مما سبق: إن تلقي المنصور لشعر المتنبي كان يقوم على مجموعة من الوسائل:

أ. الحفظ: وقد أثبتنا في نصوص سابقة حفظ المنصور لديوان المتنبي.

ب. التمثل: بأشعاره في المناسبات المختلفة.

ج. اختيار بعض الأبيات الشعرية لأبي الطيب التي كانت تعجبه وتستجيب لأفق انتظاره وتأخذ بلبه، ووضع توقيفات مذهبة عليها وهي أبيات في باب الغزل والحكمة والحرب.

كما يتأسس تلقيه لشعر المتنبي على نوعين من القراءة:

قراءة انطباعية: تقف عند حدود الإعجاب وتتجلى في وسيلتي الحفظ والتمثل، خصوصا وأن النصوص المقروءة والمختارة تكتسي شرعية الذيوع والانتشار والجودة، وهذا النوع من القراءة يقف عند حدود الإعجاب ولا يجاوزه إلى بيان عناصر الإجادة والجمال فيها.

قراءة جمالية: تقوم على التذوق والانتقاد، وقد أفضت هذه القراءة إلى إقصاء النصوص التي لا تستجيب – في نظره – لمعايير الجودة في حين احتفظ بنصوص أخرى استجابت لذائقته الفنية وأجابت عن أسئلة عصره، وعبرت عن واقع حاله. وتدل هذه القراءة على التفاعل الجمالي الذي أنجزه المتلقي/السلطان مع نصوص أبي الطيب وهو تفاعل لم يبق سجين الدهشة والإعجاب بل يسعى إلى تبرير ذلك من خلال فعل انتقاء جيد الشعر عن طريق وضع توقيفات على الأبيات المنتقاة في الأغراض المختلفة مما يدل على أن المتلقي قارئ ناقد متخير يختار بذوقه وشهوته؛ فتوقيفاته على أبيات غزلية كان من باب الترويح عن النفس لما في الغزل: "من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء."(**61**) وتوقيفاته على أبيات حكمية سائرة تأتي في باب الوقع الذي تحدثه هذه الأبيات على المتلقي، فأحسن الشعر ما خرج من القلب وولج في القلب وأجود الأبيات ما طارت بها الركبان حاضرة على كل لسان متذوق للشعر والأدب لذا قال غير واحد من رجال العلم والأدب:" الشعر ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة والتشبيه الواقع [...] وقال عبد الله وزير المهدي خير الشعر ما فهمته العامة ورضيه الخاصة"(**62**) والحكمة في شعر المتنبي قد جمعت هذه الخصائص كلها في ربقة فنية رائعة استجابة لأفق انتظار العامة والخاصة. وأما توقيفاته على أبيات في وصف الخيل والمعارك فلأن الفترة كانت فترة فتوحات وانتصارات احتاجت إلى شعر يأخذ المتلقي/المنصور إلى أجواء الحرب حيث صليل السيوف وقرع الطبول وأشلاء القتلى تترامى هنا وهناك ونخوة النصر تعلو مُحيًّا الممدوح، حيث الوجه وضاح والثغر باسم. مثل هذه المشاهد اختص بتصويرها فنياً أبو الطيب في جل قصائده. وما توقيفات السلطان على هذه الأبيات إلا استدعاء لتلك الأجواء الحماسية واستدعاء لشخصية سيف الدولة الحمداني في شخص شاعره الكوفي.

هكذا نستخلص مما سبق أن المنصور السعدي:

قــارئ مــستوعب يقــرأ الــشعر يعجــب بــه فيحفظه ويتمثل به.

قارئ ناقد(**63**)، يحكم على جمالية الشعر انطلاقا من توقيفاته على الأبيات السائرة التي كان لها وقع على نفسه واستجابت لأفق انتظاره. في حين يقصي الأبيات التي لا تروقه. وهو بهذا يجسد نموذجا من التلقي في محاصرة جمالية النصوص المتنبيئية.

تجــدر الإشــارة إلى أن التلقــي عــن طريــق القــراءة (تلقــي المنــصور)، يختلــف عــن التلقــي بالسماع (تلقي المولى سليمان) فـ: قراءة النصوص ووضع توقيفات عليها، يعتمد التأمل وإعمال الفكر والتحليل؛ ذلك أن القراءة هي نقطة التقاء القارئ بالنص، وهي اللحظة التي يبدأ فيها النص في إحدات الوقع كما يرى أيزر(**64**)، وهي سابقة عن كل تأويل، ولا يتم التفاعل بين بنيات العمل الأدبي ومتلقيها إلا أثناءها(**65**). إنها لا تنظر إلى التواصل على أنه علاقة ذات اتجاه واحد، من النص إلى القارئ، بل إنها تفاعل فعال بينهما(**66**). في حين أن التلقي عن طريق السماع، يحظى بخاصية الإنشاد وغيرها من المميزات الصوتية، مما يجعله بمنأى عن التأمل. فهو تلق حسي حركي.

الهوامش

(1) ينظر نص الرسالة: زهر الأكم تح محمد الاخضرومحمد حجي، ج2/66 والبيت للمتنبي من ديوانه بشرح البرقوقي برواية" إلا المشرفية عنده"، ج2/335.

(2) ديوانه ،ج2/456.

(3) المصدر نفسه، ج 2/420.

(4) المصدر نفسه، ج 2/452.

(5) الصبح المنبي عن حيثيات المتنبي للشيخ يوسف البديعي، تحقيق مصطفى السقا ومن معه ط2، دار المعارف، ص: 332-333، الشطر من قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة، صدر البيت: لاتحسبوا من أسرتم كان ذا رمق. ديوانه، ج 2/530.

(6) محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، ط1 مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 1998، ص: 63، المنتقى المقصور، 1/286، والبيت للمتنبي ديوانه :ج 1/142.

(7) نزهة الحادي، ص 62 والبيت للمتنبي من ديوان المتنبي، ج 1/196، ورواية البيت في شرح البرقوقي:

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي

والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

(8) نزهة الحادي، ص 403، والبيت للمتنبي من ديوانه، ج2/335.

(9) ديوانه:ج1/472.

(10)ترويح القلوب ص: 79، ديوانه، ج2/586.

(11)مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للشاهد البوشيخي ص: 213

(12)هو أبو عبد الله محمد الشيخ ولد عام 893 هـ عني بالعلم من صغره، ينظر ترجمته: نزهة الحادي، ص 62

(13)مقدمة ترتيب ديوان المتنبي عبد العزيز الفشتالي.

(14)ديوان المتنبي، ج 491/2.

(15)ينظر نزهة الحادي ص: 63.

(16)ترتيب ديوان المتنبي ص: 2 .

(17)"وقفة مع كتاب " الشعروالتلقي" للدكتور نعيم الياڤي" ماجدة محمد محمود، مقال ضمن مجلة علامات في النقد ج37 شتنبر 2000، ص: 416

(18)المتنبي والتجربة الجمالية، ص: 402

(19)المرجع نفسه، ص403

(20)ورد الإنشاد عند الصولي بمعنيين: الأول "قراءة الشعر بطريقة متميزة في الإلقاء- وهو بيت القصيد- " والثاني: " هو رواية الشعر" المصطلح النقدي في تراث أبي بكر الصولي، محمود الأزهري، رسالة مرقونة بكلية الأداب بفاس، ج 403/1. و "السماع الغناء وكل ما يلتذ به السامع من الأصوات " محيط المحيط بطرس البستاني، مكتبة لبنان 1983 ص 427. والسماع أيضا: "الذكر المسموع الحسن الجميل والغناء " المعجم الوسيط، إخراج مجموعة من المؤلفين مطبعة مصر 1991 ص 452.. والإنشاد بهذا المعنى يدخل في باب السماع باعتباره صوتا، وهكذا فالإنشاد صوت والصوت سماع، وهذه الثلاثة عناوين لشيء واحد، لأن الواحد يؤدي إلى الآخر .ينظر: استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، ط1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1999 ص 123.

(21)بناء القصيدة العربية يوسف بكار دار الثقافة للطبع والنشر القاهرة1389 هـ ص: 313- 314، للمزيد من المعلومات في هذا الباب ينظر أخبار البحتري للصولي بتحقيق صالح الأشتر ط2 دار الفكر دمشق 1964 م ص: 179- 180، والبيان والتبيين 66/1- 67، ينظر " كيف تلقى العرب القدامى الشعر؟، ادريس بووانو مقال ضمن مجلة عالم الفكر ع2 مجلد 32، أكتوبر دسمبر 2003.ص : 7- 40.

(22)العقد الفريد، ابن عبد ربه، شرح وضبط مجموعة من المؤلفين، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط3 1948م. ج3/6.

(23)استجاب السلطان لنصيحة أبي الطيب المتنبي :

أعز مكان في الدنيا سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

(24)هي القصيدة التي مدح بها محمد بن زريق الطرطوسي وقد كان وليا على الثغور مطلعها:

هذي برزت لنا فهجت رسيسا
ثم انثيت وما شفيت نسيسا

ديوانه ،ج 310/2.

(25)النوافح الغالية، ص: 235.

(26)عيار الشعر، ص: 21.

(27)ديوانه ،ج 388/1- 389.

(28)العقد الفريد، ج 7/6 .

(29)طبقات فحول الشعراء 158 .

(30)حسن السماع هو الميزة أو الصفة المحببة التي تحفظ لمتلقي الشعر شخصيته وتدعم توازنه الثقافي، ولم تغير عصور الأدب والمتغيرات التي رافقتها من حسن السماع شيئا فقد ظل السمع أبا للتلقي وأما. ينظر استقبال النص عند العرب، محمد المبارك ص 109 وما بعدها .

(31)العقد الفريد: ج7/6، ينظر: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، دمحمود عباس عبد الواحد دار الفكر العربي، القاهرة1996 ص: 118.

(32)للتوسع في الوظيفة النفسية للشعر ينظر الأغاني:ج 335/4.

(33)دلائل الإعجاز، ص: 119 ينظر التلقي والتواصل الأدبي، قراءة في نموذج تراثي، أحمد المنادي، مقال ضمن مجلة عالم الفكر، ع 1 المجلد 34 يوليو –يوليوز 2005 ص 198.

(34)ينظر ديوان المتنبي بشرح العكبري،ج 197/2.

(35)المتنبي والتجربة الجمالية، ص: 400

(36)يتيمة الدهر ،ج 78/1

(37)هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الثالث، تولى الإفتاء والقضاء، توفي عام 1224 ه ينظر المعسول،ج 188/18

(38)يقصد بالثلاثة: الأديب الفقيه محمد بن عبد الله الزدوتي، والأديب الفقيه ابراهيم بن محمد السكتاني، والأديب الفقيه محمد الحسن الهيلالي الإيلاني، وهم من أشهر أدباء وعلماء سوس في القرن الحادي عشر ينظر تراجمهم في المعسول ج 18/ 221 - 298 .

(39)ديوانه:ج 40/1.

(40)ديوان المتنبي:ج 233/1.

(41)وهي القصيدة التي يصف فيها خروجه من مصر، ويهجو فيها كافور الإخشيدي، مطلعها:

ألا كلّ ماشية الخيزلى
فِدى كل ماشية الهيذبى

وفيها يقول:

وشعر مدحت به الكركد
نّ بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له
ولكنه كان هجوَ الورى

ينظر ديوانه بشرح البرقوقي.ج 136/1- 142.

(42) المعسول، المختار السوسي: ج 18 /291

(43) أعد هؤلاء الأدباء قبل لقاء الأمير قصائد في مدح الأمير يقول صاحب النفحا ت : "انفرد كل واحد منهم بعد صلاة التراويح تلك الليلة .لنسج قصيدة، وقد تواصوا على الإجادة وعدم مجاوزة القصيدة خمسة وعشرين بيتا ،لأن الإكثار قلما تجيء معه الإجادة .كما تواصوا أيضا أن لا يجعلوا في القصائد نسيبا. وأن تكون كلها مديحا... لأنهم يعرفون أن الخليفة ناقد بصير" المعسول "ج 294/18

والأبيات المقصودة من قصيدة السكتاني هي:

وقــد قــام ميــزان الهزيمــة فانــثنى
عن الوالد الحاني ابنه المستحي البر
هنـــاك مولانـــا يـــضيىء جبينـــه
حبـورا كـأن طافـت براحتـه الخمــر
قــاوم فــردا ثابــت الجــأش مقدمــا
كمــا خـر نحـو الـسفح مـن قنـة صـخر
يـــشايعه العـــزم الوطـــيد وقـــائم
مـــن المـــشرفيات البواتـــر والمهـــر
إلى أن يــرد الجــيش أدبــارهم وقــد
تقـــسمهم حـــد المهـــند والأســـر

المصدر نفسه:ج 294/18- 295

(44) المصدر نفسه، 299/18.

(45)أشكال التلقي في التراث النقدي، ص: 70.

(46)الإطـراب في اللغـة ": جمـع طـرب والطـرب : الفرح والحزن، وقيل الطرب خفة تعتري عند شـدة الفـرح أو الحـزن، وقيـل حلـول الفـرح وذهاب الحزن "لسان العرب مادة "طرب"

(47)الصناعتين ص: 157.

(48)بخـصوص المجـالس الأدبيـة والعلميـة الـتي كان يعقدها سـلاطين الدولة العلوية نحيل على كتاب المجالس العلمية السلطانية على عهـد الدولـة الـشريفة لآسـية الهاشـيمي البلغـيتي طبـع وزارة الأوقـاف والـشؤون الإسلامية 1996 صفوة من انتشر ص: 63.

(49)البيت للمتنبي من ديوانه:ج 361/1

(50)المجالس العلمية والسلطانية:ج 223/1.

(51)المتـنبي بـين ناقديـه في القـديم والحـديث.د محمـد عبـد الرحمـان شـعيب دار المعـارف بمصر 1964. ص125- 126

(52)ينظـــر ديـــوان المتـــنبي بـــشرح البرقوقي، ج361/1.

(53)عيار الشعر، ابن طبا طبا العلوي ص: 22.

(54)تيـارات النقـد الأدبـي في الأندلس، مـصطفى العليان، ص: 13.

(55)- ينظر الفصل الخاص بالمختارات الأدبية

(56)ترتيب ديوان المتنبي ص:.2.

(57)ينظر: النص وتفاعل المتلقي، د حميد سمير، ص160.

(58)ديوانه، ج 210/2.

(59)ينظر عدد من توقيفات المنصور على أبيات أبـي الطيـب : أبـو تمـام وأبـو الطيـب د محمـد بن شريفة ص 279- 304.

(60)للمزيد من المعلومات حول شخصية المنصور الأديـب الناقـد ينظـر: شـعر عبـد العزيـز الفـشتالي جمـع وتحقيـق ودراسـة، د نجـاة المـريني ص343- مناهـل الـصفا في مـآثر موالينا الشرفا .دراسة وتحقيق عبد الكـريم كريم ص 226- 227، الشعر السعدي د عبد الله بنصر العلوي ص 49- 50.

(61)العمدة ،ج 397/1- 395.

(62)العمـدة:ج 122/1- 123. ينظـر مزيـد مـن التفـصيل: جماليـة التـالقي ومفهـوم الـنص، محمـد كنـون الحـسني مقـال ضـمن مجلـة الموقـف ع 13- 14، سنة 1992، ص:39.

(63)يشير عبد العزيز الفشتالي إلى أن المنصور كان ناقدا ف"إذا امتدح بنظم، ورفع إليه الشاعر كلمة يتدبر معانيها ويعرض على محك اختباره مبانيها ..." مناهل الصفا، ص137

(64) iser acte de lecture ; p 44 -

(65) ibid p 198 -

(66) ibid .p 48 -

❑❑

الجراح العميقة
ملحمة شعب أصيل

❑ فوزية المرعي

إنّ تاريخ الإنسانية، هو تاريخ الإنسان كما عبّر عنه "آينشتاين" بقوله:ـ صانع العالم ـ هو الإنسان الفرد العظيم ـ .

وهذا القول يدعونا للتساؤل:

ـ لماذا أيها الإنسان.. أيها القيصر.. أيها السلطان.. أيها الحاكم بأمر الله تارة وأخرى برؤى الشيطان..

لماذا تُحيلُ هذا الكون الرائع إلى جحيم، لماذا أيها الإنسان..؟

لقد أتعب هذا السؤال كل من أدرك حقيقة الخير والشر على هذه الأرض وراح يبحث عن السبل الناجعة لوضع حد فاصل لهذه الازدواجية.. والتناقض المذهل بينهما..

فقد طرح زرداشت هذا التساؤل على نفسه في زمن يسبق تاريخ الميلاد بما يقارب(660)عاما، حين شهد الظلم يخيّم على أبناء شعبه وقتذاك، فاتخذ له مكاناً قصياً كناسك في جبل (سابلان)، وأقسم ألا يعود قبل أن يكتسب الحكمة ويصل إلى هدفه المنشود وحين أدرك سر الحكمة في تكوين النور والظلام، أدرك أيضاً أنّ العالم يتألف من الخير والشر، ولكنه عاد ليلقي بسؤاله المحيّر على نفسه، لماذا خلق الخير ولماذا خلق الشر؟ فنذر نفسه للأعمال النبيلة وانطلق بعد ذلك ليقود شعبه ليخلصه من الظلام إلى النور ومن الشقاء إلى السعادة ومن الشر إلى الخير.

ـ وهذا سؤال من شاعر شركسي يقودنا إلى عنوان هذه الندوة لنسهب في الحديث عن الشركس بعد طرحه السؤال إذ يقول :

ـ يا أبناء شعبي ..

من الذي غدر بكم ..وطعنكم من الخلف،
دون شفقة عند مفارق طرق الحياة؟

إن ظلالكم مازالت تتأرجح فوق هاوية الجبال الشاهقة..

ومن الوديان السحيقة تنطلق أصوات الصراخ...

- **إن أمجاد أولئك الذين قتلوا من أجل ضوء الحياة**

ستزّين بيارق مستقبلي إلى الأبد

- **وبعد هذا التساؤل عن سّر الشتات يتابع قائلاً:**

- **لو عرفت أنني استطيع أن أعيد إليكم شبابكم**

لحلقت بعيداً ... بعيداً بهذا الأمل وحده،

بحثاً عن بدايات حياة الإنسان

فليس بين القرون من لا يعرفني ..

وليس بينها من لا يستطيع أن يقدم لي المشورة

لكن الضباب المنتشر في كل مكان

هذا الضباب ينوخ بثقله بدلال فوق صفحات التاريخ

وتشرق الشمس فيئاً شاحباً

وفي صفحاتها يرتسم قلق كبير

ويخيل إليّ أنها تقول لنا: حان الوقت أيها الناس

لان تعقلوا وتلقوا بأسلحتكم

فأيّ مصائب هي التي تبحثون عنها

دون أن تجدوا وقتاً لزراعة الحبوب؟ .. (1)

ــ من هم الشركس:؟

ــ سؤال أطرحه على نفسي بهمس أحادي النبرة تارة وبأخرى يرتفع ليشمل أنت..الآخر.. الكل، من هم الشراكسة؟ فتجيب صفحات التاريخ:

الشراكسة: هم جزء من الشعوب الأديغية ويسمون أنفسهم (أديغة)

ــ أماكن وجود الشركس :

يكثر وجود الشركس شمال القفقاس، أما خارج القفقاس، فيوجدون في تركيا بالدرجة الأولى إضافة إلى عدة بلدان أخرى مثل سوريا والأردن وفلسطين ومصر ويوغوسلافيا إلى جانب بعض الدول الأوربية وأمريكا. وفي(فارنا) لا يزال يوجد أربع قرى شركسية يحافظ سكانها حتى الآن على لباسهم القومي ولغتهم الخاصة. وحسب ما هو مثبت في أرشيف الوثائق فقد أرسل ألف منهم إلى طرابلس الغرب ومن الممكن أن نجد الشركس حتى في بلدان لا نتوقع فيها وجودهم كالعراق واندونيسيا على سبيل المثال لا الحصر.

ويعيش الشركس كذلك في بلدان جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا حيث انتقلت هذه ا لقبائل إلى هناك بداية القرن التاسع عشر عندما ضم القفقاس إلى روسية القيصرية، ولقد هاجر في هذه الفترة عدد كبير من ممثلي الشعوب والأقوام القفقاسية التي عرفت كلها في المهجر بلقب واحد هو (الشركس).

ويعتقد أن لقب شركس مشتق من كلمة (كير كيت) وهو الاسم الذي أطلقة المؤرخون اليونانيون القدماء على جزء من الشعوب الأديغية التي استوطنت شمالي القفقاس.

كان لموقع القوقاز أهمية كبرى فهي صلة الوصل بين وسط آسيا وأوربا ومنها عبرت الهجرات البشرية باتجاه الغرب كما انتقلت عبرها الحضارات بين الشمال والجنوب والشرق والغرب وقد كانت الطريق التجاري الآمن بين

الهند والصين إلى أوربا وذلك قبل أن يبحر الأوربيون بطريق رأس الرجاء الصالح وقبل شق قناة السويس. والقوقاز تكثر فيه الغابات والسهول ونظراً لكثرة أمطاره تنتشر فيه زراعة المحاصيل. بشتى أنواعها ولعل البترول أهم ثرواته الباطنية .

تلك هي طبيعة الأرض التي عاش بها شعب القوقاز وهو الاسم الجامع لكل سكانها أما اسم شركس فهو اسم أطلقه الأجانب على شعوب وقبائل شمال القوقاز.

ولقب شركس أطلق على سكان القوقاز جميعاً الذين تجمعهم حضارة واحدة وإن اختلفت لغاتهم ......

وتضم شعوب شمال القوقاز (الأديغة) – البجدوغ – الابازاخ – الشاب سوغ - القرشاي - التشمقواي – النختواي – الوي ناح – الداغستان .

و القوقاز كلمة استعملها الإغريق (قاو قازوس) وحرّفها الروس إلى قفقاس وفي الكتب والمصادر العربية تسمى (القبق) وبلاد اللان ولقبها باب الأبواب، ويشار إليها ببلاد ما بعد جبال أرمينيا وقد أكد العالم الألماني (باخ) أن أرض القوقاز هي المصدر الأساسي للجنس الأبيض، وقد سماها السلالة القوقازية وإليها ينسب سكان آسيا الصغرى وأوروبا وشعوب المنطقة العربية وإيران.

أما أجداد الشركس القدماء فهم (الكاباردين – البيسلين) الذين كانوا جزءاً من سلالة الشعوب الأديغية، وتشير المصادر إلى أن هذه الشعوب قد استوطنت الأراضي المسماة حالياً جمهورية (كاراتشايف ـ تشيركس) منذ القرن الخامس الميلادي، ـ إذ عثر الباحثون التاريخيون على مقابر وبقايا قرى في منطقتي (آوروب ـ ولابي) جنوب أراضي الشركس، تم التأكد من أنها تعود إلى الشعوب الأديغية التي استوطنت في هذه المنطقة في القرن الخامس الميلادي، كما عثر الباحثون على بعض الآثار التاريخية الأديغية (الكاباردينية) في المناطق المحيطة بنهر (كوبان)، ـ تعود إلى فترة مابين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين.

ويعتبر المؤرخون هذه الآثار مهمة لأنها تتحدث عن ظاهرة هجرة الشعوب التي استوطنت في المناطق الواقعة شمالي نهر كوبان إلى المناطق الواقعة جنوبه، حيث تقطن شعوب وقبائل تربطها صلة دم وعلاقة قومية مع الشماليين، أي أن أقوام الشركس كانوا يعيشون جنوبي كوبان، ثم هاجر إليهم الكابارديني من شماله وكانت هجراتهم بأعداد كبيرة قد مكنتهم من السيطرة على هذه المنطقة، وبقيت تحت سيطرتهم إلى أن بدأت هجرات الكابارديني بالتلاشي في بداية القرن التاسع عشر، ولقد بلغ عدد القرى الكاباردينية في عام 1925 اثنين وستين قرية .

وإضافة للكاباردين، ساهمت أقوام (البيسلين) في تكوين السلالة الشركسية، وتشير مصادر القرن السادس عشر الميلادي التاريخية إلى أنّ(البيسلين) قد استوطنوا في مناطق نهري (لاب وكوبان) وسميت أراضيهم باسم بيسلين .

وكانت(بيسلين) محاطة من كل الجهات بالأقوام والشعوب القفقاسية الأزازينية والكاباردينية وأقوام (الماخوشيفي ـ والمامخو كوفسي) وقد بلغ عدد قرى البيسلين في القرن التاسع عشر ثلاثاً وثلاثين قرية.

وفي القرن التاسع عشر أصبحت سياسة روسيا القيصرية أكثر صرامة في شمالي القفقاس وتحولت مع مرور الوقت إلى حرب ضد شعوب هذه المنطقة، الذين هبوا بدورهم للدفاع عن حريتهم واستقلالهم، وخلال هذه الأحداث دُمرت وأُحرقت معظم القرى الشركسية (الكاباردينية ـ والبيسلينية).

وبعد الهزيمة التي ألحقتها روسيا بالجيوش التركية إبان حرب (1828ـ1829) وقّع الطرفان اتفاقية (أدريانا بولسكي) التي تم بموجبها ضم أراضي الشعوب الأديغية (شركس، كاباردين، أديغيون) إلى روسيا القيصرية، إلا أنّ هذا الضم لم يوقف النزاع العسكري الناشب في هذه المنطقة، إذ استمرت شعوب شمالي القفقاس بمقاومة الجيوش الروسية النظامية المتمركزة في مناطقهم، ونتيجة لتقدم الجيوش الروسية باتجاه الغرب بمحاذاة جبال القفقاس والأنهر المجاورة لها، تم تدمير الكثير من القرى القفقاسية ومنها الشركسية وتهجير شعوبها إلى مختلف أرجاء العالم، وشيدت روسيا خطوطاً عسكرية جديدة في هذه المنطقة (القفقا. أما من بقي من الشركس، فقد أعاد بناء عدد من القرى في القرن التاسع عشر وكان قد بقي من الدمار عشر قرى من أصل خمس وتسعين قرية كانت قائمة وعامرة قبل الحرب في القفقاس.(2)

ـ *وقفة للتساؤل بين:*
من.. ولماذا.. حصل ما حصل للشراكسة؟

يجيبنا الشاعر الشركسي ـ ورزاي أفليك ـ بحفنة سوناتات وهو يعزف على قيثارة المأساة بريشة روحه نائحاً:

- الريح الغاضبة تطرق نافذتي وتفتح بابي بغضب..
- ها قد أصبحت غرفتي مركزاً للعبور..
- وبدأ رذاذ الأزمنة الغابرة يتساقط...
- لا أستطيع أن أوقد مصباحي
- مع أنّ النوم قد جفاني
- وأسمع صوتاً يناديني تهتز له الغرفة ..
- أعدوٌّ هو من ينادي أم صديق؟!
- الزمان لا يحمل ديناً لأحد..إنه يمضي يمضي وينقضي دون أن يداري أحد..
- سقطت حبات الكرز قبل نضجها عن الشجرة ..
- وهاهو جذعها يذرف الدموع سراً..
- ومن بعيد ..يصل صدى غناءٍ شجي متواصل
- يعيد إلى الذاكرة ما غرق في بحور النسيان ...

ـ *مسببات تهجير الشركس* :

ثمة فوارق جمة بين الهجرة والتهجير، فالهجرة أمر يقوم به المرء لأي بقعة من العالم بملء إرادته لأسباب متعددة يدركها ويقدر نتائجها الإيجابية والسلبية قبل أن يُقدم عليها، أما التهجير القسري، فهو أمر يخضع له المرء رغم أنفه مكرهاً لا خيار له فيه، وإن كنا قد قرأنا في صفحات التاريخ عن تهجير الشركس والأرمن والشيشان وغيرهم، ورسمنا صوراً لمعاناتهم في مخيلتنا، فإننا نمازج بين المشهد الخيالي والواقعي الذي نشهده اليوم لما يكابده إخواننا في فلسطين والعراق من قتل وتنكيل وتدمير وتهجير على مرأى من العالم بأسره ونحن في القرن الواحد والعشرين ..

وقد تم تهجير الشراكسة من بلادهم بين عامي 1859 ـ 1864 عبر الطريق البحري مثل: تامان، تو آبسة، تسميز، سوتشي، آدلر، سوخوم

بوتي باتوم وغيرها إلى الموانئ العثمانية سامسون، سينوب، اسطنبول، فارنا، بوركاز وكوستنجة، أما التهجير الذي حصل بين عامي 1865 ـ 1866، وذاك الذي وقع عام 1878 بعد الحرب العثمانية ـ الروسية فقد تم عبر الطريق البري، وقد تم تهجير شعوب الشيشان والداغستان والأسيتين والقبردي عبر الطريق الشرقي، وقد استمرت الهجرات بعد ذلك عبر الطريق البري أيضاً.

وأثناء تهجير الشراكسة الذي يعتبر أكبر تهجير في التاريخ الحديث إذ تدفقت الدماء فيه أنهاراً، وكان الناس يصعدون السفن في أسوأ الظروف حيث كان الموت يحيط بهم كيفما اتجهوا، فقد كانت تحمل على متنها أكثر من استيعابها من أجل الحصول على المزيد من المال مما تسبب في غرق الكثير منها قبل ابتعادها عن الشاطئ بقليل، وذلك حسب ما سجلته القنصلية الروسية في(ترابزون ـ التركية) في شهر أيار من عام 1864، فقد قضى ثلاثون ألفاً نحبهم جوعاً ومرضاً، فالذي كانت تبدو عليه علامات المرض كان يُلقى به على الفور في عرض البحر .

ـ الجراح العميقة التي خلّفها التهجير:

يعدُّ تهجير الشراكسة أهم حدثٍ في التاريخ الشركسي عبر آلاف السنين التي خلت، فهذه الحادثة قد أثّرت بشكل سلبي في التكوين الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للقفقاس، ويؤيد العالم المرتوقي نوح، الذي يتبنّى وجهة النظر ذاتها أنّ نفي الشراكسة عام 1864 قد أدى إلى إحداث ضرر كبير في تكوين المجتمع الشركسي، كما انتقد في كتابه المعنون"تواريخ الجراكس" التهجير الذي تم عام 1864 والذي تم بعد ذلك في الأعوام 1878، 1890، 1888، وتلك التي حدثت مؤخراً عام 1900 إلى الدولة العثمانية كما ناصر الرأي القائل بعدم وجود أية ضرورة شرعية تبيح ترك الوطن بشكل جماعي .(3)

ـ ويأتي دور الأدب لتجسيد المأساة شعراً ونثراً وملاحم تبدأ ولا تنتهي :

يقول الشاعر ورزاي افليك:

- كم من الناس يرقدون تحت الأرض متجاورين
  بالرغم من أنّ قروناً طويلة تفصل بينهم ...
  وأقف مطرقاً مجفلاً من هذه الفكرة
  وتجمد الدمعة التي تجمّعت على صفحة العين...
- صامتةٌ هي السماء.. الأرض..
  وتقف شاهدة القبر حارساً فوق قبوركم دون أن تذرف دمعة..
  وتنبت الكروم حولكم في الفيافي
  والعين تفجّرت هناك.. ماؤها سلسبيل..
  ولأنّ ماء العين السلسبيل هدية منكم، فإنّ بطولاتكم ستكون شواهد لي
  وعلامات للطريق..
  ومن سخاء نفوسكم تغتدي روحي
  وكلما قصفت الرعود وأضاءت البروق
  أحسُ أنّ الكون لا يذرف دموعه إلا من أجلكم..
  أنا لم أخض حرباً.. وطوال عمري لم أصوّب بندقية صوب إنسان..
  ولكنني أفكر في الخفاء أنني ..ضحية حرب لم تعرف معنى الرحمة
  كم كنت أبياً يا شعبي ولكن ..

رصاص العدو أصابك غدراً فهويت
ومع أنك لم تكن تريد الأذى لأحد ..
فما أكثر الذين كانوا يبحثون عن أذاك..
مصرّين على إراقة دمائك على أديم الأرض....

ـــ اللغة الشركسية:

- لغة الشركس الأدبية، هي اللغة الأديغية وهي مشتركة بينهم وبين الكاباردين وتعتبر اللغات الأبخازية والأبازينية متشابهة وقريبة إلى اللغة الأديغية ومجمل هذه اللغات يطلق عليها اسم ـ اللغات الأبخاز ـ ديغة.
- هذا ويؤكد الكاتب(منذر بُج) في كتابه ـ الأصول الشركسية في اللغة السومرية ـ أنّ اللغة الشركسية تنطبق كمبنىً (أصوات الحروف) وكمعنىً تمام الانطباق على اللغة السومرية، وهذه حقائق تؤكد وحدة الأصول والجذور في عصور ما قبل التاريخ بين السومريين وسكان شمال القفقاس الذين تمت المقارنة بإحدى لغاتهم ذات الأصول المشتركة مع اللغة السومرية وهذه اللغة هي لغة(الأديغة).

ويشرح المؤلف في بيان المقارنة والتشبيه بين اللغتين السومرية والشركسية وقد استنتج من المقارنة التي قام بها وجود أكثر من مئة كلمة يتحد فيها اللفظ والمعنى في كلتا اللغتين بما لا يترك مجالاً للشك، من أنّ السومريين كانوا يتكلمون اللغة الشركسية.

ـــ استوقفتني عبارة المؤلف (بما لا يترك مجالا للشك) وكأنه قادني بهذه العبارة للتوقف على ضفاف الشك والتأمل بعمق بها، مع أنني لست من المتخصصين في علم الأركيلوجيا، أو سواها من اللغات القديمة، لكنني لجأت إلى الشك بتشجيع من الفيلسوف ديكارت الذي يؤكد في إحدى عباراته، "أنّ الشك خطوة ضرورية لابد من اتخاذها"، ولاسيما أنّ الشك عنده شك مؤقت يقوم على هدم الماضي في سبيل إصلاح ما فسد منه وهو يشمل جميع المعارف والعلوم الإنسانية .

- ويأتي من يدعم عبارة الكاتب منذر بُج، فيما يخص اللغتين الشركسية والسومرية، وهو ـ الدكتور الأركيلوجي نائل حنون في كتابه (حقيقة السومريين ـــ ص (31) أنّ الدراسة المعجمية للغة السومرية تبين وجود مجموعتين من المفردات، الأولى تشتمل على مفردات سومرية، والثانية تشمل عدداً كبيراً من الكلمات المستعارة من لغة غير سومرية .(4)

ويتابع قائلاً: وجد عدد كبير من العلامات المسمارية بقيم صوتية معروفة ومستعملة في اللغة السومرية ولكن ليس لها قيمة رمزية تدل على معاني مقترنة بها وقد أطلق الباحثون على هذه القيّم الصوتية تسمية (كاكاسيكا ـ kakasiga ووجود هذه القيم أو المفاتيح اللغوية يدل على أنها اشتقت من كلمات تعود إلى لغة غير سومرية .

أتراه يشير بالتأكيد على عبارة (منذر بُج) من جهة وبأخرى، ليقودنا إلى الشك من جديد حين يؤكد في كتابه أيضاً بأنه لم يُكشف النقاب عن مكنونات لا تعد ولا تحصى لـرُقُمُ مسمارية مطمورة في بقاع الأرض المنتشرة من تركيا إلى سورية إلى آخر بقعة وطأتها أقدام السومريين في بلاد الرافدين وما حولها ؟ .

ـــ الحياة الاجتماعية للشراكسة :

عاش الشراكسة على شكل تجمعات قروية متجاورة ذات سيادة مستقلة، تربط بينهما

قوانين التكافل والتضامن الاجتماعي، فالجميع أحرار ومتساوون في الواجبات والحقوق قبل استخدام الأراضي الزراعية والمراعي وحق التصويت في المجالس القروية والاجتماعات .

والأسرة الشركسية نوعان: كبيرة وصغيرة، وبقيت العائلات الكبيرة ، تشكل الغالبية عند الشركس حتى بداية القرن التاسع عشر، إذ أصبحت معظم العائلات الشركسية صغيرة، وكان هذا نتيجة ما عانته هذه الشعوب من ويلات الحرب والتشرد في فترة الحرب الروسية ـ القفقاسية .

ـ تقع إدارة شؤون الأسرة الشركسية على عاتق الرجل الأكبر فيها(الأب أو الجد) ويكون هو رمزاً للسلطة الاجتماعية في الأسرة، وفي حال موته تقع المهمة على عاتق الابن الأكبر، أما سيدة البيت فهي الوالدة أو الجدة، وتتحمل ربة المنزل الكثير من المسؤوليات المنزلية التي توزعها على نساء الأسرة من إعداد الطعام، والمؤونة لفصل الشتاء وتربية الأطفال وأعمال الحياكة ونسج الأقمشة .

ـ أما طقوس الزواج عند الشركس فإنها تتم وفقاً لقوانين صارمة إذ تمنع أن يتزوج الرجل والمرأة إذا كان بينهما أية صلة قرابة من طرف الأب أو الأم، حتى إذا كانا يحملان نفس اسم النسب دون أن يكون بينهما أي صلة قربى، فإن زواجهما يعدُّ غير محبب، وكذلك يمنع زواج يرتبط به أحد والديهما أو والدتهما بصلة الرضاعة (إخوة في الرضاعة) وكل من يخالف هذه القوانين يحاربه المجتمع وقد يصل الأمر إلى طرده..

ويدفع أهل الزوج للزوجة مهراً، أما أقرباء الزوجة فيجب عليهم أن يجهزوها بما يليق حيث تأخذ معها إلى أسرتها الجديدة (بيت الزوج) أشياء كثيرة مثل الأواني والأثاث والفرش وأشياء أخرى هدية لأقرباء الزوج..

ـ الشركس في مدينة الرقة:

ـ يعيش في مدينة الرقة عدد كبير من الشركس كما أن أحد الأحياء يعرف باسمهم ويطلق عليه (حي الشراكسة) ومن الأسماء البارزة التي تألق ذكرها وذاع صيتها في مدينة الرقة وما حولها عائلة(عمر بك أنزور) التي ينتمي إليها الشهيد البطل جواد طالوستان آنزور، الذي استشهد عام 1948 في معركة تل العزيزيات التي اشترك بها الجيش السوري، وفرقة الخيالة الشركسية ـ إحدى قطع الجيش السوري وشيّع جثمانه إلى الرقة التي دفن فيها، وقد ألهب مشاعر الأدباء والشعراء والباحثين ليجسدوه في شعرهم ونثرهم، وأقتطف هذه الباقة مما جاد به الباحث الرقي السيد علي السويحة:

بمهجته جاد يوماً جواد
وما جاد بالروح إلا الجواد
من الرقة أنساب مثل الفرات
قنيطرة وثراها المراد
وكرّ ثلاثاً بقلبٍ شجاع
وفي آخر الأمر خرّ الجواد

هذا وقد خلده الأديب الراحل عبد السلام العجيلي بمقالة وجدانية بعنوان(السيف والتابوت)، وأتبعها بمقالات أخرى عديدة حملت العنوان ذاته، وأختزل من هذه المقالة اللحظات الحاسمة التي سبقت استشهاد البطل جواد أنزور وقد أوردها الأديب المرحوم العجيلي على لسان من حدثه عنها، وهو الملازم الأول اسماعيل أنزور

والد المخرج المعروف نجدت أنزور يقول: "صدر الأمر إلينا، ـ فسرنا إلى الأمام، كان جواد على اليمين، ـ يسير ماشياً على قدميه وبيده عصا يضرب بها الأحجار في طريقه والحشائش الجافة، وكنت أنا وراءه، ووراءنا العسكر واحداً إثر واحد من سريتنا، على اليسار كانت سرية ثانية وثالثة، ووراءنا سرية احتياط، تقدمنا نحو كعب التل، فوصلنا بعد العصر دون أن تطلق علينا طلقة واحدة كما أنّ مدفعيتنا كانت تضرب القمة دون جواب، وبقينا فترة في موقفنا عند كعب التل دون أن نتلقى أمراً، وفجأة قام جواد وأعطانا الأمر بارتقاء التل.

يتابع اسماعيل أنزور، ارتقينا التل بعشرين جندياً، فلم يطلق أحد علينا ونحن نرتقي السفح، وتقدمنا إلى أن صرنا على بعد خمسين متراً من الاستحكامات التي كانت مقامة على القمة، حول شجرة وحيدة كانت هناك، وحين صرنا من الاستحكامات على هذه المسافة، انطلقت علينا نار العدو غزيرة، فأصدر جواد الأمر بأن تنقسم فئتنا إلى زمرتين: عشرة جنود يتقدمون وعشرة يضربون، ولكنا وجدنا أن النار المنصبة علينا كانت غزيرة، وأنّ ذخيرتنا أمست قليلة، كانت لدينا قنابل من صنع محلّي نضربها بالبنادق فلا تنفجر، ولو كانت أسلحتنا صالحة لاحتللنا وحدنا الاستحكامات دون معونة أحد، مما اضطرنا لطلب ذخيرة جديدة، فلزما الأرض وأرسلنا واحداً من الجنود ليأتينا بها، ثم أتبعناه بآخر، ولكن الليل هبط ولم يعد الجنديان، في هذه الأثناء جاءنا ملازم كان شجاعاً ومندفعاً فقال لجواد لحظة وصوله: أنا تحت قيادتك: أُأمر لنهاجم.. هدأ جوا د من اندفاع الملازم وقال له: طلبت ذخيرة وعسكراً، حال وصولهم سنهاجم..

ولكن الأمر طال والليل يتقدم والذخيرة لم تأت. فجأة سمعت جواد يصرخ بالفرنسي: آفان..إلى الأمام! ـ وتقدم هو إلى الأمام..هجمنا نحن على الاستحكامات بينما كنت أستمع إلى جواد وهو يسب ويشتم بثلاث لغات، بالعربية والفرنسية والروسية، كان الليل شديد الظلام وأنا مشغول بإطلاق النار، فلم أنتبه إلى ما أصابه إلا حين انقطع صوته عني، ذهب أحد الجنود ليبحث عنه في الظلمة ثم عاد ليخبرني :جواد قتل..!

تركنا تل العزيزيات بعد أن رفعنا راية النصر عليه، وعدت لأحمل البطل الشهيد جواد في سيارة جيب جثماناً ممدداً إلى دمشق، ثم وضع في تابوت خشبي مغلف بالمعدن ليرقد في مثواه الأخير بمدينة الرقة .

هذا وقد أفادني السيد إسماعيل حبش بمعلومة أقسم أنه سمعها عن المرحوم إسماعيل أنزور قائلاً: حين احتضنت جواد نطق بكلمات أخيرة: خذني من هنا.....

وأطلق اسم جواد آنزور على أحد شوارع دمشق، أما مدينة الرقة فخلدته بثانوية الشهيد جواد بك آنزور وتصَدَّرَ اسمه أيضاً أحد الشوارع، وقد تحدثت عنه محطة البث التلفزيوني بالرقة بتاريخ 20ـ11ـ2006، وخلال عام 2006 أقيمت ندوة بجمعية العاديات تحدث فيها الباحث الرقي علي السويحة مطولاً عن حياة البطل جواد بك آنزور منذ نشأته، حتى لحظة استشهاده ..

كما ألقى الباحث الرقي محمد الجدوع محاضرة بمدينة البعث في القنيطرة عام 2009، بعنوان (جواد آنزور ـ بطل تل العزيزات) .

ومن الباحثين الذين صبوا جُلّ اهتمامهم بقضية الشركس الباحث الرقي الأستاذ محمد

عبد الحميد الحمد، في كتاب بعنوان (تاريخ الشركس وآل آنزور) وقد ترجم إلى اللغة الانكليزية .

هذا ويتمتع المجتمع الشركسي بسلوك ملفت للنظر على الرغم من بعدهم عن الوطن الأم، فقد حافظوا على لغتهم بالإضافة إلى لغة البلاد التي استوطنوا فيها إضافة لالتزامهم بعادات أجدادهم وتقاليدهم وأكثر مايميزهم هو الصدق والنظام والإباء والشجاعة والصبر واحترام الكبير والعطف على الصغير وأينما حلّوا تحل مواصفاتهم معهم حتى أصبحوا مضرباً للأمثال، ففي مدينة الرقة عندما يتحلى أحدهم بصفات حسنة يقال عنه" فلان ..رائع كأنه شركسي" .

ومن الذين لمعوا في هذا المضمار المحامي المرحوم محمد عمر بك آنزور، فهو بالإضافة إلى سلوكه الراقي كان شاعراً ومثقفاً، لكنه لم يدفع بقصائده إلى النشر، إلا أنّ المرحوم الأديب عبد السلام العجيلي حاول أن يشده إلى حلبات الشعر والمبارزة في معارضة لقصيدة طويلة أقتطف منها بعض الأبيات:

ـ معارضة العجيلي:

في الصدر همُ وفي الأجفان تسهيد
ماذا الذي ترتجي في حبك الغيد
تعرضت لك بعد الشيب فاتنة
كأنّ قامتها الهيفاء أملود
ترنو لتغويك لا تدري بما فعلت
بك السنون ولا أيامها السود
وكيف لروحك صرف الدهر أحنى لها
ولا بعد طول الشدو تغريد
يا حلوة الثغر أيام الهوى عبرت
وأضحت ذكرا تلك المواعيد

ـ معارضة محمد آنزور:

أشكو إليك فهل لي منك تأييد
يا من قضيت بأن تفنى العناقيد
هوّن عليّ فجرحي نازفُ أبداً
وللهموم تسهيد وتجديد
إن قال أرضاكم ما قال شيخكم
على قنوط وقلب الشيخ مجهود
إني أعارضكم وابن الحسين معا
فيما ارتأى وبعض الرأي تجديد

ـ معارضة الشاعر بسام بليبل:

يا حلوة الثغر فلتفنى العناقيد
لا الهم همُ ولا التسهيد تسهيد
من قال عهد الهوى قد مرّ مرتحلاً
فليس للحب عمرُ أو مواعيد
فلا تراعي لما قد قيل عن عرب
وفي الأحاديث إضمار وتجريد

هذا، وقد بثت محطة (bbc هذه المعارضات وقد شارك وتابع المعارضة شعراء آخرون.. وصل عددهم إلى أكثر من عشرين شاعراً.

ومن الأسماء التي برزت من عائلة- آنزور- الأستاذ(نجدة إسماعيل آنزور)المخرج السينمائي والتلفزيوني المعروف، الذي تألق نجماً في سماء الفن العربية وستدفع به رياح النجاح إلى العالمية بخطىً واثقة تقوده ثقافته الواسعة وإصراره

بالعزف على أوتار الفن بمقامات تنبض بها روحه تارة، وأخرى يتكئُ فيها على سلالم العلم والمعرفة، مشكلاً مفصلاً بين من سبقه في هذا المضمار وبين أجيال ستأتي بعده، وقد حصد العديد من الجوائز لأعمال وعناوين حازت على إعجاب جميع العواصم العربية وغيرها، والجدير بالذكر أنّ والده الأستاذ اسما عيل آنزور كان أول مخرج سينمائي في سوريا، وبهذا ينطبق عليه المثل الدارج هذا (الشبل من ذاك الأسد).

ــ السؤال الأخير:

ـ سؤال أخير يطرحه الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف :

ــ (عندما يسألونك من أنت؟ تستطيع أن تبرز وثيقة، أو جواز سفر يحتوي على المعلومات الأساس...)

أما إذا سألوا شعباً من أنت، فإنه سيقدم علماءه.. كتابه.. فنانيه.. موسيقييه.. رجاله كوثائق، فماذا صنعنا كشراكسة في الداخل والخارج لسؤال كهذا ؟

ـ فاسمحوا لي أيها الأخوة الشراكسة في الرقة وفي كل مكان أن أجيب على سؤال الشاعر الكبير رسول حمزاتوف نيابة عنكم، لأقول:

ـ لقد صنعنا على خارطة التهجير الكثير ..

ـ بكت الشركسيات بصمت آناء الليل ..

حتى تفجرت من عيونهن جداول المأساة ..

وفي الصباح زمزمن الجداول، فتحولت أمواهُها إلى نهر

ليشرب ويتوضأ منه النارتيون..

فصهلت حناجرهم مدويّة بصوت واحد ..

ارتجت لصداه جبال القوقاز :

ـ نحن أحفاد سوسروقة يا رسول ..

حين عبثت بنا العاصفة، تناثرنا كالشرر خارج الأسوار..

كنشأتنا فوق هامات الجبال..

نحن.. النارتيون

حين ولدنا شظايا من رحم الجمر

وأطفأنا الإله "لبش" في الماء، تحولنا إلى فولاذ..

هكذا كانت نشأتنا ..

فهل من خشية على الفولاذ أينما حلّ أن يتصدع؟!

زوادة التهجير.. وصايا الأجداد.. نقش مسماري على صدورنا..

سنعود يوماً.. على صهوات الجياد الشاغدية

ونلتف حول موقد جدتنا (ستناي)

لتروي لنا ما غاب عنا من ملاحم (نارت) من جديد.

ــ الملاحم الشركسية:

لكل أمة من الأمم، ولكل شعب من الشعوب آدابه وملاحمه التي تجسّد بمجملها الموروث الموغل في القدم، وتعكس بذلك العادات والتقاليد والمعتقدات ونظرتهم إلى الآلهة والطبيعة والكون والإنسان .

ولعل ما يميز الشعب الشركسي عن غيره من الشعوب (ملاحم نارت) التي تحمل موروث الشعب الشركسي في القوقاز، وقد تناقلتها

الأجيال عبر قرون طويلة أناشيداً وأغاني ولازمات (بشنالة) وابتهالات دينية، وقصائد ونصوصاً نثرية وملاحم شعرية، وهي معروفة عند العديد من شعوب شمال القفقاس الأخرى .

ـ من أساطير الشراكسة :

كان النارتيون يعيشون حياة البطولة والجرأة والحركة وبينما هم يعيشون هذه الحياة، أرسل الإله إليهم طائر سنونو صغير رسولاً :

- أتريدون أن تبقوا قلة طيبة وتعيشون حياة قصيرة ولكن بطوليّة وتخلد مقامكم عبر القرون؟ أم تفضلون أن تتكاثروا ويزداد عددكم وتعيشوا حياة طويلة للطعام والشراب دون كرامة وعزة نفس؟
- أجاب أحدهم:
- نختار الحياة القصيرة

وليبق صيتنا ذائعاً

ودون أن نجانب الحقيقة

لتكن العدالة طريقنا

ولنعش بقلوب حرة

دون أن نعبأ بالصعاب

وهكذا اختار النارتيون أن يبقوا قلة، وليعيشوا حياة قصيرة ملؤها الشجاعة والبطولة وأعادوا طائر السنونو الصغير بهذه الإجابة إلى الإله ..

ـ موت ستناي:

كان الوقت ربيعاً، وكانت تدور رحى حرب طاحنة يشارك فيها سوسروقة ،

و ذات ليلة رأت ستناي في الحلم حمامتين بيضاويتين حطتا على الشجرة التي في دارهم وأخذتا تنتفان ريشهما .

استيقظت ستناي وقالت: "إذا لم يرحمه الإله فإن مصيبة قد حلت بولدي،

ورأت ستناي في الحلم مرة أخرى جروين أغبرين يحفران عتبة الباب .

أفاقت ستناي وقالت لنفسها "ربما حلّ غضب الله، علينا لابد أن شراً ما حدث لولدي الوحيد"

استغرقت ستناي في النوم للمرة الثالثة ورأت حلماً آخر: "كانت أعواد قصب المستنقعات تشاركها الغسيل" .

استيقظت ستناي ونهضت من فراشها: "لقد قضي الأمر، وحلت بنا مصيبة الإله ...

لبست ستناي ملابسها وانطلقت تبحث في كل الجهات وحين توجهت نحو مشرق الشمس صادفت فخذ سوسروقة الأيسر..

وصاحت: أية شيخوخة تعيسة ستكون شيخوختي؟، فهذا الفخذ هو فخذ ولدي، وتابعت البحث عن الأعضاء الأخرى، فصادفت الفخذ الأيمن، فحملته بلوعة ووضعته بجانب الفخذ الأيسر، وبعدها تابعت العثور على بقية أعضاء جسده، ورتبتها في أمكنتها الصحيحة ..

وتساءلت كيف سأدفن ولدي دون أن أغسله، وها أنا قد أضحيت في منأى عن موارد الماء ؟

لكنها راحت تجمع قطرات الندى من الأزهار البرية ومن فوق الأوراق الخضراء في كفها، وهكذا غسلت جسد سوسروقه بالندى ولم يبق سوى وجهه، ولم يعد هناك أية قطرة لأن

الشمس قد التهبت ولعقت كل الندى..

احتضنت رأس ولدها وراحت تنوح عليه غاسلة بدموعها وجهه، ففتح سوسروقه عينيه، وفرحت ستناي وقبلت شفتيه، ثم فتح فمه وتنهد، وفي هذه الأثناء انتقلت روح ستناي إلى ولدها وسقطت من فوقه جثة هامدة..

نهض سوسروقه، وعندما وجد أمه جثة هامدة، بكاها من أعماق قلبه ثم حملها بين ذراعيه وأعادها، وطلب من(لبش) أن يصنع لها مقبرة من الفولاذ الخالص.

ــ هذه قبسات من تاريخ شعب عظيم، مسالم، مقاوم، شجاع، أبيّ، ابتلي على مدى العصور بنبال غزاة التاريخ الأشرار الذين يبنون أمجادهم على جماجم الأبرياء ..

❑❑

المصادر والمراجع:

(1)الشاعر ورزاي افليك

(2)موسوعة الشعوب الإسلامية في القفقاس وروسيا وآسيا الوسطى- ترجمة طه الولي .

(3) نهاد برزج، تهجير الشراكسة، ترجمة عصام عبد الحق - نوح المرتوقي

كتاب ــ نور المقابس في تواريخ الجراكس ــ مطبعة قازان 1912

(4) - حقيقة السومريين - دراسة - د. نائل حنون - دار الزمان - دمشق -2007.

المــنهج النفــسي في النقد الأدبي ..

□ زاهر محمَّد الشمَّاع

مدرسة التحليل النفسي:

لا مناص لنا عند الحديث عن هذه المدرسة من التعرُّض للمؤسِّس الحقيقي لها ألا وهو: سيغموند فرويد، الذي وضع منهجها ونظريتها الأساسية. وهو أصلاً طبيب نمساوي متخصِّص في الطب العصبي والنفسي حيث كانت بدايته التي طوَّرها، إذ أتاحت له مهنته وضع نظريته في التحليل النفسي، بما أمدَّته من خبرات وتجارب ومواقف وتأمُّلات لسلوك مرضاه النفسيين.

كان فرويد في البداية يعالج مرضاه بالتطهير والتنويم المغناطيسي، لكنه هَجَرَ هاتين الطريقتين "إيذاناً ببزوغ التحليل النفسي الذصي الذي اكتشفه عندما اكتشف: المقاومة، والكبت، والخبرات الجنسية الطفليَّة. وأصبحت نظرية الكبت حجر الأساس في فهم العصاب."(1)

فقد جاء أول بيان عملي عن تطوير التحليل النفسي وموضوعه، في خمس محاضرات ألقاها فرويد عام ألف وتسعمئة وتسعة في جامعة **كلارك بورسستر** في ولاية **ماساشوستس**.

وقد عرض في هذه المحاضرات الخمس بدايةَ عمله مع **بروير** وتَخَلِّيه عن التنويم وإقامة نظرية جديدة في **الهستيريا** تقوم على الحتمية النفسية والكبت والمقاومة واللاشعور وقيمة الحياة الجنسية (بمعناها في التحليل النفسي والذي يقوم على الوجدان لا التناسل فحسب) في تعليل المرض، وأهمية الخبرات الطفليَّة.

كما أشار في هذه المحاضرات إلى: النكتة والأحلام والهفوات والمركبات المرضية وتطوُّر الليبيدو والتخييلات والإبداع الفني.(2)

وهكذا مضى **سيغموند فرويد** وحده، في تطوير مكتشفاته وإقامة صرح نظرية التحليل النفسي بديلاً عن التطهير الذي بدأ به. فاكتشف الرقابة والمقاومة والكبت والصراع والجنسية

الطفلية وإعلاء الغريزة الجنسية وتفسير الأعراض في الأمراض النفسية وتفسير الأحلام وآلية تكوينها وتفسير الهفوات والرمزية والليبيدو وعقدة أوديب وغريزتَي الحُبِّ والعدوان، ووَضَعَ تصوُّرات لتكون الشخصية من ثلاثة أجهزة هي: **الهو (أو الهي) (ID)، والأنا (EGO)، والأنا الأعلى (SUPER EGO)**، وعملها على المستويين: الشعوري، واللاشعوري. وعلاوةً على كل هذا، ابتدع منهج: **التداعي الطليق**، وهو منهج التحليل النفسي وطريقته التي يعتمد عليها في كل من البحث والعلاج لمرضاه.(3)

ويعرِّف **جان بلامان نويل** التحليل النفسي قائلاً: " التحليل النفسي ــ أقصد به المذهب الفرويدي لا العلم ـ هو فن تفكيك رموز الحقيقة في كل القطاعات الغامضة للتجربة الإنسانية كما يعيشها الإنسان، أي كما يرويها للآخرين أو لنفسه ".

ثم يضيف: " لا يميِّز هذا المذهب بين مسألة وموضوع معرفة، كما أنه ينفي وجود قضية محددة أو قابلة للتحديد ووجود مواضيع الفكر التي لم يتم الولوج إليها بعد، ويستند هذا المذهب إلى نظرية وممارسة، بدون تقنيات ملزمة أو أنظمة شفافة ونماذج طبق الأصل ومفاهيم أحادية المعنى ونقاط استدلال ثابتة."(4)

- **التحليل النفسي والأدب:**

ارتبط التحليل النفسي منذ بدايته بالممارسات الفكرية للإنسان، فالتحليل النفسي: "وسيلة الباحث في الأعماق، والمتوغِّل في سراديب اللاوعي، طلباً للحوافز الكامنة وراء الإبداع."(5)

ولتوضيح العلاقة بين الأدب والتحليل النفسي نقول:

إنَّ حياة الإنسان النفسية: مزيج معقَّد من الوعي واللاوعي، تكمن بينهما القوة العازلة، أي الكبت. فإذا كانت الكلمة هي أداة التعبير عن الخبرة الواعية ـ وهذه تحمل بشكل أو بآخر أثر اللاوعي ـ فإن تحليل الخطاب هو مَعْبَر المحلِّل إلى المضمون أو اللاوعي.

ولمَّا كان التحليل النفسي يعمل على مستوى اللغة أيضاً، وبما أنَّ الأدب يحمل في طيَّاته اللاوعي، فإنَّ مهمَّة المحلِّل النفسي هي تقديم نظرية تعالج ما يفلت من الوعي.(6)

ومن هنا، فإنَّ العلاقةَ وثيقةٌ بين الأدب وعلم النفس.

وقد بدأت هذه العلاقة منذ أن استطاع **فرويد** أن يثبت أنَّ الأحلام التي يخترعها الكاتب تخضع للتفسير عينه الذي تخضع له الأحلام الحقيقية، فالأحلام المتخيلة هي أيضاً وسيلة اللاشعور لتحقيق ذاته على صعيد الشعور.

وقد عمَّم **فرويد** هذه الملاحظة بقوله: " لماذا لا يكون للخيال الأدبي عموماً ظروفه الخفية ودوافعه اللاشعورية ؟

لماذا لا يترجَم العمل الأدبي عن طريق الإواليات المعروفة، كالنقلة والتكثيف والترميز، عقداً غير واعية ؟

ألا يكون العمل الفني في هذه الحال كالحلم، له وظيفة محدَّدة، ودلالة معينة ؟ "(7)

إذاً، فالكاتب يُسقِط عقده على إنتاجه شاء أو أبى. ففي نظر **فرويد**: إنَّ مسرحيات القدامى تُسقط عقداً ومآزم، وتجسِّد موضوعات طالما استوطنت مخيِّلة البشرية.

وقد أبدى بشأن **هاملت** بعض الآراء التي فتحت أمام تلميذه **جونز** آفاقاً واسعة لتحليل **شكسبير** بأسلوب جديد، يوضِّح للمرَّة الأولى حوافز الكاتب الحقيقية لتأليف هذه المسرحية.

- **التحليل النفسي كمنهج من مناهج النقد الأدبي:**

إنَّ الواقع الأدبي لا يستمدُّ زَخَمَه إلا عندما يتضمَّن قسطاً من فقدان الإحساس واللاوعي. والمهمة التي أخذها النقد الأدبي على عاتقه، تكمن في إظهار هذا النقص أو هذا الإفراط. وقد بدأ النقد المعتمد على التحليل النفسي في الأدب، حين نشر **فرويد** كتابه: (تفسير الأحلام) عام ألف وتسعمئة للميلاد. على أنَّ أهمَّ ما كتبه فرويد في هذا الميدان، ثلاث دراسات طويلة هي:

- ليوناردو دافنشي: دراسة نفسية جنسية لذكريات طفولية.
- دوستويفسكي وجريمة قتل الأب.
- دراسة لقصة ألمانية عنوانها: غراديفا، لولهلم ينش.

وبهذه الدراسات، أقام **فرويد** منهجين من التحليل، الأوَّل: دراسة الشخص المريض نفسياً، واتخاذ إنتاجه الفني هادياً له في الدراسة. والآخَر: دراسة الأثر الأدبي دراسة تحليلية نفسية.(8)

وقد اعتمدت نظرية التحليل النفسي على مفاهيم عدَّة، جَرَى استخدامُها في جميع المجالات التطبيقية للنظرية، بما في ذلك الفن والإبداع الأدبي. ومن أهم تلك المفاهيم والتي كثر استخدامها في نظريَّتَي **فرويد ويونغ:**

1- **الشعور:** وهو حالة من الوعي، أو هو مجال العقل الذي يشتمل على الإحساسات والإدراكات وعناصر الذاكرة التي يكون المرء واعياً بها بشكل مؤقت.

2- **اللاشعور:** هو حالة تتميَّز بافتقاد الوعي أو نقصه، فتسمَّى حالته: لا شعورية. وفي مجال علم نفس الأعماق، يشير المصطلح إلى الموقع أو الجانب النفسي الذي يشتمل على الوظائف المكبوتة الخاصة بالهو (ID). فاللاشعور يشتمل على الدوافع والرغبات البدائية وعلى الذكريات والصور والنزعات التي تثير القلق إلى حدٍّ كبير، ولا يمكن قبولها عند مستوى الشعور، ومن ثم يجري تحويلها إلى منطقة اللاشعور وكبتها هناك.

3- **الكبت:** المعنى الأساسي هنا مشتقٌّ من الجذر الخاص بالفعل (يكبت)، الذي يعني: الإخفاء والقمع والتحكُّم والرقابة والاستبعاد... إلخ. وقد استخدم فرويد هذا المصطلح ليشير إلى العمليات العقلية المفترضة التي تنشط من أجل حماية الفرد من الأفكار والاندفاعات والذكريات التي يمكن أن ينتج عنها: القلق والخوف والشعور بالذنب، إذا أصبحت واعية.

4- **عقدة أوديب:** هي مجموعة من الرغبات والمشاعر والأفكار اللاشعورية التي تقوم على أساس الرغبة في امتلاك الوالد أو الوالدة من الجنس المقابل، وفي الوقت نفسه إزالة الوالد أو الوالدة من نفس الجنس.

5- **الإعلاء أو التسامي:** يشير هذا المصطلح إلى العملية التي يجري من خلالها تهذيب وإعادة الدوافع والاندفاعات البدائية والغريزية والمحرَّمة في شكل سلوكيات جديدة ومتعلَّمة وغير غريزية.

6- **العملية الأوَّليَّة:** تشير إلى تلك الوظائف التي تكون نشطة عند مستوى الهو (ID) الغريزي.

7- **العملية الثانويَّة:** تشير إلى النشاطات الشعورية العقلية والمنطقية، وهي ترتبط بشكل وثيق بالأنا (EGO) ومبدأ الواقع.

8- **اللاشعور الجمعي:** مصطلح استخدمه **يونغ** كي يشير به إلى ذلك الجانب من اللاشعور الذي يشترك فيه كل البشر. وقد افترض **يونغ** أن هذا اللاشعور الإنساني موروث وينتقل عبر الأجيال، والمكونات الأساسية له تسمى: **الصوَر أو النماذج البدائية**.(9)

تلك هي أهم المفاهيم التي كثر استخدامُها في نظريَّتَي **فرويد ويونغ** بشكل خاص، وهي المفاهيم التي جرى تطبيقها أيضاً على الإبداع الأدبي والأعمال الفنية بشكل عام.

بيد أنَّ هناك مصطلحات أخرى جرى استخدامُها في المنهج النفسي أيضاً وهي:

التكثيف، والتحويل، والمجازية، والتفسير، والتكوُّن الثانوي.(10)

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الدراسات النفسية التي تناولت الأعمال الفنية، لم تقدِّم لنا أمثلة من التحليل النفسي للعمل الفني تكشف عن جوانبه الجمالية وأسرارها النفسية، ولكنها قدَّمت لنا تحليلاً نفسياً صرفاً خالياً من الجمال، بيد أنَّ الناقد الأدبي وحده هو الذي يستطيع أن يمزج بين الجانب الذوقي ونتائج الدراسات النفسية.(11)

وينبغي أخيراً أن نشير إلى أن اختيار المنهج النقدي المناسب للنص الأدبي يفرضه النص نفسه لا الناقد، ذلك أنَّ طبيعة النص وخصائصه تتطلَّب منهجاً نقدياً معيناً دون آخر، يعرفه الناقد الحاذق ويطبِّقه في تحليل النص الأدبي. ويبرز المنهج النفسي واحداً من المناهج النقدية المعروفة، والذي يتمتَّع بالقدرة على سبر أغوار النص ومؤلِّفه في آنٍ معاً، وذلك من ميزات هذا المنهج، إضافةً إلى الكشف عن الجوانب الجمالية والذوقية في النص. فلا عجب أن يحظى المنهج النفسي بما حظي به من الشهرة والأهمية في ميدان النقد الأدبي.

❑❑

الهوامش:

(1): موسوعة علم النفس والتحليل النفسي: ص179
(2): ينظر: المرجع السابق: ص179
(3): ينظر: المرجع السابق: ص592
(4): التحليل النفسي والأدب: ص11
(5): في النقد الأدبي والتحليل النفسي: ص29
(6): ينظر: التحليل النفسي والأدب: ص16
(7): في النقد الأدبي والتحليل النفسي: ص30
(8): ينظر: المذاهب النقدية: ص163
(9): ينظر: الأسس النفسية للإبداع الأدبي: ص49 وما بعد.
(10): ينظر: مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي: ص54 وما بعد.
(11): المذاهب النقدية: ص169

المراجع:

- الأسس النفسية للإبداع الأدبي: شاكر عبد الحميد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – 1992
- التحليل النفسي والأدب: جان بلامان نويل – ترجمة: عبد الوهاب ترّو – دار عويدات – بيروت – ط1 – 1996
- في النقد الأدبي والتحليل النفسي: خريستو نجم – دار الجيل – بيروت – ط1 – 1991
- المذاهب النقدية: ماهر حسن فهمي – دار قطريّ بن الفجاءة – الدوحة – ط2 – 1983
- مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي: مجموعة من المؤلفين – ترجمة: وائل بركات، وغسَّان السيِّد – دار زيد بن ثابت – دمشق – 1995
- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي: فرج عبد القادر طه، وشاكر عطيَّة قنديل، وحسين عبد القادر محمد، ومصطفى كامل عبد الفتَّاح – دار سعاد الصباح – الكويت – ط1 – 1993

اللغة العربية الفصحى لغتنا القومية بين روادها وأنـصارها وأعدائها

❑ أحمد سعيد هواش

تقـوّمُ الأمـم والـشعوب مـن خـلال لغتهـا الأصـيلة لأنهـا عنـوان هويتها وهي لسانها الذي تعبّر به عن أمانيها وتطلعاتها القومية، لذا تعمد الدول المحتلة والمُسْتَعْمِرَة إلى طمس لغة الشعوب المحتلة والمُسْتَعْمَرَة ومنع المحادثة والكتابة بلغاتها الأصيلة، وقد حصل ذلك في القطر العربي السوري أيامَ حملة التتريك الهادفة لإحياء اللغة التركية والنزعة الطورانية، كما جربت فرنسا ذلك إبّان الانتداب الفرنسي على سورية العربية.. وكان ذلك أكثر وضوحاً في القطر الجزائري الشقيق الذي تعرض لاحتلال فرنسي طويل الأمد، وكان للجزائريين موقفهم الصامد في وجه حملة الفَرْنسة الشرسة كما كان لعلماء المسلمين الدور المشرف في وجه تلك الموجة العارمة لطمس اللغة العربية والتحدث باللغة الفرنسية والكتابة بها.. والدعوة إلى التمسك باللغة العربية لغة القرآن الكريم.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

«لا جـرم كانـت لغـة الأمـة هـي الهـدف الأول للمستعمرين، فلن يتحوَّلَ الشعبُ أوَّلَ ما يتحوّلُ إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب ماضيه، رجعت قوميته صورةً محفوظة في التاريخ، لا صورةً محققةً في وجوده، فليس كاللغة نسبٌ للعاطفة والفكر، حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئٌ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء»(1)، ويبين الأستاذ مصطفى الرافعي ما يلجأ إليه المستعمِر نحو لغة البلد المستعمَر فيقول(2): «وما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلا ذَلَّ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرضُ الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على

الأمـة المستعمرة، ويستخدمهم بهـا، ويُشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيته».

ويظهـر الأستاذ مصطفى الرافعي دور اللغـة الأجنبيـة وأثرهـا في الخلـق القـومي، فيقـول[3]: «فاللغات تتنازع القومية، ولهي والله احتلالٌ عقليٌّ في الشعوب التي ضعفت عصبيتها، وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه»، لذا أجمع الكثيرون من المفكرين واللغويين على إبراز المكانة التي تحتلها «اللغة» في حياة الشعوب والأوطان، وكذلك الدور الذي تلعبه في المسيرة البشرية نحو العلم والتقدم والحضارة.

يقول الدكتور صالح زهر الدين[4]:

«فاللغـة هـي مستودع تـراث الأمـم، وقلَّمـا تعرضت لغة أمة من أمم الأرض إلى ما تعرضت له اللغـة العربيـة، وهـذا مـا يدفعنا إلى التساؤل عـن الأسباب والأبعاد الكامنة وراء ذلك.»

لقد بيَّن الرسول العربي الكريم محمد (ﷺ) زارع أول بـذرة قوميـة، منزلـة اللغـة مـن القوميـة، عندما ناشـد قومـه قـائلاً: «أيها النـاس إن الـرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هـي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

ومـن ثـم يتـابع الـدكتور صـالح زهـر الـدين أهميـة اللغـة في حيـاة الشعوب مستشهداً بـأقوال أعلام اللغة العربية فيقول[5]:

«وفي هذا الإطار كتب الدكتور صالح أحمد العلي (رئيس المجمع العلمي العراقي) مؤكداً أن «اللغـة أداة التفـاهم واكتسـاب المعرفـة وإنمـاء الفكـر» وهـي بوجهتها السليمة أمـتن رابـط يشدُّ الأفـراد، ويكوّن من مجموعهم أمة متميزة قادرة علـى النقـاء والنمـو، وللعربيـة مكانـة متميـزة بـين لغـات الأمـم، لا لأنَّ لغتها مـن أقـدم اللغـات الحيَّـة فقط، بلْ لأن تكوينها وخصائصها يسَّرا لها القدرة علـى التعـبير عـن مختلـف الأشـياء الماديـة وأدق الأفكـار المجـردة، ويكفيهـا فخـراً أن القـرآن الكريم نزل بها، وأكد أن من معجزاته أنه بلسان عربي مبين وكان - وهو كتاب الله المنزل والمعين الصافي السليم- المرجع المعتمد للغة العربيـة، والأداة المكينـة في نـشرها بـين الـشعوب الـكثيرة الـتي آمنـت بالإسـلام واتخذتـه معتقـداً وموجهـاً للحيـاة.. ويـضيف الـدكتور العلـي قـائلاً: «اللغـة العربية هـي أبـرز مـا يتميـز بـه العـرب، وأقوى رابط يشدّهم إلى تـاريخهم القـديم، ويظهـر استمراريتهم وبقـاءهم، ويجمعهـم اليـوم بـالرغم ممـا بيـنهم مـن اختلافات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية..»..

ويتابع الدكتور صالح زهـر الدين مظهـراً دور اللغة العربيـة في وحدة الأمة فيقول: «وعندما أكـد المفكـر والمؤرخ محمد جميل بيهم أن اللغة القومية الأم هـي الأسـاس الرئيـسي لوحـدة الأمـة لم تكـن اللغـة العربيـة في نظـرة مجـرد رمـوز ولا مجـرد أداة للتفـاهم، ولكنهـا صـورة تاريخنـا ووعـاء تراثنـا ومرتسم حـضارتنا أيـضاً، حـسب تعـبير الـدكتور مـازن المبـارك، وفـوق ذلـك كلـه، فهـي لغـة الملايـين من المتحدثين بها في الوطن العربي أو النـاطقين بهـا في العالم الإسلامي وبعض أرجاء المعمورة الأخرى».

ويتابع الـدكتور زهـر الـدين دالاً علـى فصاحة اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فيقول:

«ويمثل كتاب الله أرفع كلام عربي وأسماه.. وروعـة القـرآن الكـريم في بلاغتـه.. وفـصاحته وأسلوبه تـدل علـى أن العربيـة قديمـة، وهـو يحمـل سمـات الأصـالَة، ويتحـدى الزمـان». وعـن دور اللغـة الفصحى وقدرتها علـى الاستمرار واحتفـاظ النـاس بها كتب الدكتور أحمد محمد الضبيب (الأستاذ في جامعـة الريـاض والأمـين العـام لمؤسـسة الملـك فيصل).. يقول: «وعندما نزل القرآن الكريم باللغة الفـصحى ازدادت اللغـة العربيـة رسـوخاً في أذهـان النـاس واحترامـاً في نفوسـهم، فعاشـت بـين العـرب والمسلمين في مختلف العصور والبيئـات لغـة للثقافة والعلم والأدب، وسفيراً بين الأجيال يـربط حاضـرها بماضـيها، ووسـيلة رائعـة مـن وسـائل الاتـصال بـين العرب في مختلف بيئاتهم وأماكنهم».

ولأهمية اللغة العربية الفصحى قام أعداء الأمة العربيـة بالـدعوة للأخـذ باللـهجات العاميـة لإحـداث

الخلل والاهتزاز في بنيان اللغة العربية والأمة العربية بهدمِ مداميكها من الأساس، ولنا في هذا المجال نماذج من هذا الأسلوب في شرقي الجزيرة العربية والمغرب العربي (وخصوصاً الجزائر) ومصر ولبنان. لندرك بالتالي جدية الاهتمام الاستعماري في مسخ اللغة العربية وتشويهها، وقد تصدى لدعاة العامية بعض المفكرين العرب نذكر منهم: المربي الأستاذ عبد المعين الملوحي، رحمه الله، في كتابه: «دفاع عن اللغة العربية» فقال[6]:

«يحلو للشعوبيين من دعاة العامية والأحرف اللاتينية و(التعسير) أن يرددوا حين يتحدثون عن اللغة العربية الفصحى أنها لغة (سيبويه) في لهجة هي أقرب إلى السخرية وأبعد ما تكون عن الواقع، فاللغة العربية هي لغة عدنان وقحطان ومحمد... إنها لغة أجدادنا وآبائنا وأمهاتنا منذ قرون وقرون، ونحن متمسكون بها، حريصون عليها رغم كل المحاولات في الشرق والغرب لمحوها من ضمائرنا وطمسها في خفقان قلوبنا وحرمان ألسنتنا منها...».

ويتابع الأستاذ الملوحي راداً على مغالطات هؤلاء الشعوبيين قائلاً:

«ويحلو لهؤلاء الدعاة أن يرددوا مغالطة أنانية.. فهم يزعمون أن لغتنا الأم هي اللهجة العامية التي نتحدث بها لا اللغة الفصيحة التي نقرؤها في كتبنا ونسمعها في خطبنا وإذاعاتنا ومحاضراتنا، وينسون أن اللهجة العامية هي الفرع، وأن اللغة الفصحى هي الأصل، والإنسان ينتمي إلى أصله ولا يمكن أن ينتمي إلى فرعه، وأن أم العرب جميعاً هي لغة القرآن الكريم».

ويتابع الأستاذ المربي عبد المعين الملوحي رده على دعاة العامية ذاكراً نماذج من دعاتها والأقطار التي ينتمون إليها، فيقول[7]:

«في مصر قالت السيدة بنت الشاطئ في جريدة الأهرام عام 1960م إن اللهجة المصرية مؤهلة لتكون لغة العرب، فهي لغة الشاشة والمسرحيات والعرب يفهمونها في كل مكان»، وفي لبنان يدعو «سعيد عقل» إلى اللهجة اللبنانية، ويعتبرها، الأولى في الانتشار.

ويقول الأستاذ الملوحي مخاطباً إياهم: «أي لهجة تريدون أن نتبناها..؟. ». ويدلل على أصالة اللغة العربية الفصحى وأحقيتها بالاتباع، فيقول[8]:

«إن اللغة العربية الفصيحة هي التي تربط العرب جميعاً ببعضهم، وهي مفهومة في كل الأقطار لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة حكماء العرب وكتابها وشعرائها، والشعر، بعد كتاب الله وأحاديث رسول الله (ﷺ) ، هو ديوان العرب ومعجمهم المحفوظ بحكم تداوله على الشفاه وخفته على ألسن الرواة، وكيف إذا كان المأثور هو اللغة التي لا تربط العرب جميعاً إلا روابطها، ولا تلم شملهم جميعاً إلاَّ وشائجها..»، وفي مصر العربية نرى موقفاً مشابهاً لموقف الأستاذ الملوحي، هو موقف الشاعر العربي الكبير عزيز أباظة ـ رحمة الله .. إذ أظهر موقفه من اللغة العربية الفصحى حين قال في كلمته في أثناء تسلمه جائزة الدولة التقديرية في مجمع الدولة والعلم وعلى مشهد من المهرجان الكبير[9]:

«إن في الشرق العربي كله جماعات ليست كثيرة العدد، ولكنها كثيرة المدد لعلها ترى أن الخير لا يقوم إلا على أنقاض الجليل الكريم من مأثورات أمتنا العربية المجيدة.. تلك المأثورات التي لم يزدها توالي السنين إلا توثقاً واستقراراً دائماً وازدهاراً، وعندي وعند جمهرة هذه الأمة أن الغضَّ عن هذه المأثورات كبيرة من الكبائر، فكيف إذا كان هذا المأثور هو لغة القرآن الكريم، كتاب الإعجاز الخالد الذي يقول الله تعالى فيه: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر- 9]** ».

ولله در الشاعر عادل الغضبان الذي قال[10]:

هذي هي الفصحى فهل هي قصّرت

عن غايةٍ فنلجّ في نقصانها

لغة وإن قدم الزمان فإنها

ريَّا الشباب تميسُ في ريعانها

وعن نضال العرب لحفظ هويتهم أمام هجمة اللغات الأخرى التي يتكلم بها المستعمرون قال المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» صاحب كتاب

(العرب بين الأمس والغد) إن العرب، في ظل الاستعمار، لجؤوا، لحماية هويتهم وأصالتهم، إلى اللغة العربية أو بالحري إلى اللغة العربية القديمة، ومن هنا نلمسُ قوة وصلابة وقيم ومزايا اللغة العربية التي ناضلت بنجاح. لا ضد غزو اللغات الغربية المسلحة بقدرة عملية على الإيصال وحسب، وإنما كذلك ضد اللهجات (المحلية العامية) التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة».

وهكذا يؤكد هذا المستشرق ارتباط الدعوة إلى العامية وتبنيها بالاستعمار الذي يغذيها للنجاح في سياسة التفريق والتجزئة الإقليمية.

ومن المستحسن أن نقف عند بعض اللغويين من المجمعيين المحدثين، ومن هؤلاء المرحوم الدكتور عبد الهادي هاشم عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، فقد كتب مقالة بعنوان: (اللغة والقومية) أبرز فيها أهمية العربية في إقامة صرح القومية العربية في الوقت الذي كان فيه الاستعمار يمزق أوصال الأمة العربية ويشتت شعوبها بقوله: «إن اللغة العربية هي أحد أسس القومية العربية.. وإنها كانت وستبقى العامل الأقوى والأساس الأمتن لهذه القومية..».

ونختتم بما قاله أستاذنا الدكتور عمر موسى باشا مشيداً باللغة العربية الفصحى: «وبعد... هذه عربيتنا الفصحى بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وبين أصالتها وإعجازها وحداثتها، وبين روادها وأنصارها وأعدائها هذه هي العربية الفصحى المعجزة، صامدة مع الدين... حفظها القرآن العربي... إنها الكلمة الطيبة والحرف الرمز، أصلها راسخ في جبروت هذا التراث العربي الحضاري وفرعها شامخ في السماء»..

المراجع

1 ـ دفاع عن اللغة العربية والتراث العربي، عبد المعين ملوحي، دار الملوحي للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ط1996/2.

2 ـ مجلة الفكر العربي، العدد 61/ تموز ـ أيلول/ 1990. مقال: لغة الضاد في ملف المستشرقين. د. صالح زهر الدين.

3 ـــ وحي القلم الجزء الثاني، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2000/1م.

الهوامش

(1) وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 2000م.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) الشواهد: من مقال لغة الضاد في ملف المستشرقين، د.صالح زهر الدين، الفكر العربي، العدد (الواحد والستون)، تموز ـ أيلول 1990.

(5) الشواهد: من مقال لغة الضاد في ملف المستشرقين، د:صالح زهر الدين، الفكر العربي، العدد (الواحد والستون)، تموز. أيلول 1990.

(6) دفاع عن اللغة العربية والتراث العربي، عبد المعين الملوحي، دار الملوحي للطباعة والنشر، دمشق، ط2، 1996م.

(7) المصدر السابق.

(8) المصدر السابق.

(9) المصدر السابق.

(10) من قصيدة للشاعر عادل الغضبان، بعنوان (العربية)، مجلة الكتاب، القاهرة، عدد 2، 1946م.

(11) مجلة الفكر العربي، العدد الستون، نيسان، حزيران، إشكاليات اللغة العربية بين الأصالة والإعجاز والحداثة: د.عمر موسى باشا.

(12) المصدر السابق.

❑❑

أسماء في الذاكرة ..

عمر أبو ريشة والنجوم..

❑ د. أحمد زياد محبك

يمتلك الشاعر عمر أبو ريشة (سورية 1910ـ 1990) نظرته الخاصة إلى الطبيعة، وله موقفه الفني منها، وهو موقف متميز، فهو يسقط عليها مشاعره، ويتَّحد بها، ويعبر من خلالها عن مشاعره، وهو يمنحها الحياة والقيمة، ولا يتخذها مجرد مادة للتصوير، وتظل في الحالات كلها حاملة لقيمة، وشافَّة عن نزعة صوفية متجذرة في أعماق الشاعر، كما يظل ممتلكاً شخصيته المتميزة وهو يتعامل معها، وما يمتاز به هذا التعامل هو التنوع والغنى والعمق الثقافي، كما يمتاز بالجدة، والحرص دائماً على الإدهاش.

ولعل مرجع هذه الرؤية المتميزة للطبيعة إلى موهبته وتفرد شخصيته والبيئة التي نشأ فيها، ولعل مرجعها أيضاً إلى تربيته الصوفية، وثقافته العربية والغربية الواسعة، وزياراته إلى أماكن متعددة من العالم، بحكم عمله سفيراً لبلده في عواصم عدة من العالم، وهو ما أتاح له سعة الأفق، وعوَّده الحرص الدائم على التجديد.

وما يسعى إليه هذا البحث هو دراسة مظهر من مظاهر الطبيعة في شعره، وهو النجوم في السماء، ولها في شعره موقع متميز، وله منها موقف مختلف، وهذا ما سيظهر في سياق البحث.

*

للشاعر مع النجوم علاقة خاصة، فهو يخاطبها أو يسمع نجواها، وإليها يسمو، ويرى فيها مجالاً لتطلعاته وطموحاته، بل يراها بعيني عاشق متصوف، وفيها يجد مستقره ومأوى روحه. فالشاعر يريد التعبير عن شعوره بالوحدة، وإحساسه بالغربة، وعن طموحه إلى البعيد والسامي الذي لا يطال، فيستعين بالطبيعة ليعبر من خلالها عن هذه المعاني، في قصيدة عنوانها "**نجمة**" (1944) يقول فيها: [1]

* أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب، عضو اتحاد الكتاب العرب

مــن ينــاديني ؟ وقــد أنكرنــي

في دروب العمــر مــن يعــرفني

أغريــب مــلَّ في غربتــه

عبــث الــوهم ولهــو الــزمن

أم شــقي نــسي الكــبر علــى

شــفتيه بــسمات المــؤمن

مــن ينــاديني؟ وأعــراس الــصبا

لم تدع في الكأس ما يسكرني

أبتــول ســلها مــن خــدرها

شــوقها المخــضوب بــالحلم الهــني

أم هلــوك ألفــت روضــتُها

شــفةَ الــساقي وكــفٌّ المجــتني

مــن ينــاديني؟ وسمــار الــدجى

كُحِّلَــتْ أجفــانهم بالوســن

أحبيــب؟ أي أحبــابي تــرى

مـن كـوى الغيـب سـرى يؤنسني؟

مــا لأصــداء المنــادي خفتــت

وتلاشــى وقعهــا في أذنــي

نجمــة ضــاءت علــى البعــد فيــا

ذيلـها الوضـاءَ كـن لـي كفـني

لقـد سمـع الـشاعر صـوتاً يناديـه، فلـم يعـرف مصدره ولم يعرف صاحبه، وهو يسأل عمَّن يمكن أن يناديه وقد نسيه الجميع، ويخفت الصوت، ثم يحدس أن النجمة هـي الـتي نادتـه، فالشاعر يحس بالغربة، يعيش في وحدة، ولا يجد الخـلاص إلا في الـسمو إلى الفـضاء الرحـب، ولقـاء نجمـة عاليـة لا تطال، والشاعر لا يطمح إلى بلوغ النجمـة فحسب، إنما يتطلع إلى الاحتراق بها والفناء فيها، لتكون له كفنـاً، وفي هـذا غايـة الطمـوح إلى التوحـد مـع الكـون والفنـاء فيـه، للخـلاص مـن بـؤس الواقـع وشـقائه، والنجمـة نـار ونـور، هـي نـار المعرفـة ونـور الوجد، وبذلك تغدو النجمة رمزاً للخلاص، وتعبيراً عن طموح العاشق الصوفي.

وفي القـصيدة عـدة أسـئلة عـن مـصدر النـداء المجهول، وفيها نبرة حزن مؤلم، وفيها تشويق، إذ يتـأخر الجــواب عــن مــصدر النــداء إلى نهايــة القـصيدة، بـل إلى بيتهـا الأخـير، ليغـدو بيـت القصيد، ولا بد من إعادة قراءة القصيدة ثانية في ضوء البيت الأخير، أو في ضوء النجمة.

فالـشاعر لا يتوقـع الخـلاص في الأرض، ولا من البشر، إنما يرتجيه مـن الـسماء، ومـن مـصدر النور، ومن الأعالي، وهـو موقـف رومنتيكـي فيـه مـن الإحساس بالوحدة والشعور بالغربة بقـدر مـا فيه من الرغبة في السمو نحو الأعلى والأرقى.

*

وبعد عشرين عاماً يعبر الشاعر عن طموحه المشبوب وعـن خيبتـه في الواقـع، وهـو يـدرك أن مرجع معاناته إلى طموحه، وهـو لا يعبر عن هـذه الرؤية للحياة التعبير اللغوي المجرد المباشر، إنمـا يعبر عـن هـذه الرؤيـة مـن خـلال الطبيعـة، وهـو لا يسقط عليهـا مشاعره أو أفكـاره أو حالتـه، إنمـا يتحد بها، بل يحل فيها، ويرى ذاته مـن خلالها، وذلك في في قصيدة عنوانها **"ما بعدك"** (1965)، يقول فيها [2]:

مــا بعــدك ؟ يــا أفقــي الأعلــى

دنيــاي تــوارت في العتمــه

ســرٌّ يغــريني بالتــصعيد

وأنــت تحبِّــب لــي كتمــه

أعطـــــتني أيـــــامي أشـــــهى

مـــا مـــر علـــى خـــاطر نعمـــه

فـــصباحي مـــن أمـــل بـــسمة

ومـــسائي مـــن حلـــم ضـــمَّه

ومـــساحب أقـــدامي في الـــترب

حـــديث العطـــر إلى النـــسمه

مـــا بعـــدك يـــا أفقـــي؟ إنـــي

منطلـــق مـــشبوب الهمَّـــه

ويحـــي مـــا لـــي أنهـــار ومـــا

لمطـــافي يـــستنزف حلمـــه

مـــا لـــي أهـــوي وأحـــس الغيمـــة

تقـــذف بـــي إثـــر الغيمـــه

لأظـــن ... جنـــاحي محـــترق

محـــترق مـــن لمـــسة نجمـــه

والشاعر يستهل القصيدة بسؤال يحمل قدراً كبيراً من المرارة والخيبة، إذ ماذا يمكن أن يخبئ أفقه ودنياه قد توارت في العتمة؟ وهو يختار للأفق صفة الأعلى لتثير الإحساس بالتناقض مع الدنيا، التي هي اسم أصله صفة للحياة مشتقة من الدنو، ويلاحظ الحس المكاني، وما بينهما من صراع وتناقض بين العلو والدنو. ثم يلاحظ اعتزاز الشاعر بذاته وثقته بنقائه وفخره بسموه، وهو يعبر عن هذا كله من خلال الطبيعة أيضاً إذ يجعل مساحب قدميه في التراب حديث العطر إلى الغيمة، وفي الصورة انطلاق من أرض الواقع المتدني إلى سمو النسمة ورقتها وشفافيتها، والمرتفع من ذاك الدنو إلى هذا السمو هو العطر، وفيه من دلالات النقاء والطهر والرفعة دلالات كثيرة. وأخيراً يعبر الشاعر عن إحساسه بالسقوط والانهيار، وما هو سقوط بسبب فساد الواقع أو رداءته، وما هو سقوط بسبب خطأ أو إثم، إنما هو سقوط بسبب الطموح البعيد، والتطلع إلى الارتقاء والسمو، وهو سقوط بسبب الاقتراب من نار نجمة عالية، وفي النجمة نور ونار و في النجمة سمو وبعد لا يطال، ولطالما عبر شعراء الصوفية عن احتراق جناح الفراشة بنار الشمعة، متخذين من نار الشمعة رمزاً للحب الإلهي أو المعرفة، ومن الفراشة رمزاً للمحب.

ومن ذلك ما أورده الشاعر الفارسي المتصوف فريد الدين العطار (توفي 1230م) في كتابه "منطق الطير"[3]، وتحكي عن فراشات رأين نوراً في نافذة بعيدة، فاتجهت إحدى الفراشات إلى النافذة ورجعت لتخبر الفراشات أن مصدر النور شمعة، فقالت لها إحدى الفراشات ما عرفت، فتوجهت فراشة ثانية إلى النور، اقتربت منه، فاحترق جناحها، فرجعت إلى الفراشات لتخبرهن بما رأت، فقالت لها إحدى الفراشات ما عرفت، وسرعان ما اتجهت فراشة ثالثة إلى النور، واقتربت منه، فاحترقت فيه، ولم ترجع، فقالت إحدى االفراشات عنها: تلك التي عرفت.

فالشاعر لا يسقط، إنما يقترب من نار الحب أو نور المعرفة، فيهوي، ويلاحظ اختياره فعل أهوي، والغيمات تدفعه، فهو أمام هُوِيٍّ، وليس أمام سقوط، فالسقوط مرتبط لدى كثير من الناس بالإثم والخطيئة، أما الهوي فهو مرتبط في جذره اللغوي وفي أصوات حروفه بالهوى، أي الحب والعشق، ويؤكد هذا الإيحاء الغيمات التي تدفعه، وفيها إيحاء بالخصب والخير والعطاء.

وقد أكد الشاعر الاحتراق مرتين، كما أشار إلى أن الاحتراق مس منه الجناح فقط، ولذلك هوى ولم يحترق، وثمة غيمات تدفعه، كأنها تريد إطفاءه بالماء، وكأنه يتمنى لو أنه

احترق كله وفني في نار الحب، ولم يكن المحترق منه مجرد الجناح، لأن احتراق الجناح وحده يقود إلى الهوي والسقوط، أما الاحتراق الكلي فيقود إلى الفناء في الحبيب، وتظهر هنا بصورة غير مباشرة ثقافة الشاعر الصوفية، بل إن الأبيات لتشف عن صوفية عذبة، فيها قدر كبير من الرقة واللطف.

وقد اجتمعت في القصيدة العناصر الأربعة، التراب وفيه قدمه، والنار وقد احترق بها جناحه، والغيوم وفيها الماء وهي تدفعه، والهواء وهو يحمله، وبذلك يملأ الشاعر الفضاء كله، ويشغل ما بين المساء والأض، قدمه في تراب الأرض، وجناحه محترق من همس نجمة.

*

ولعل الذي يؤكد عشق الشاعر للنجم، ونظرته إليه نظرة صوفية مختلفة عما ينظر إليه الآخرون هو قوله في مقطَّعة عنوانها: " **رسالة** " قبل دخوله إلى غرفة العمليات، وفيها يقول[4]:

رفـيقتي لا تخـبري إخـوتي
كيف الردى كيف عليَّ اعتدى
إن يـسألوا عـني وقـد راعهـم
أن يبـصروا هيكلـي الموصـدا
لا تجفلـي لا تطرقـي خـشعة
لا تـسمحي للحـزن أن يولـدا
قـولي لهـم سـافر قـولي لهـم
إن لـه في كوكـب موعـدا

وواضح خصوصية الشاعر في تعامله مع النجم، فهو بالنسبة إليه مجلى العشق ومجال السمو، واللافت للنظر أن الشاعر يصور الموت وقد اعتدى عليه، وأنه لم يمت، إنما هيكله فقط هو الذي أغلق، أما هو فقد ارتحل إلى نجم بعيد، كان له معه موعد من قبل، فالنجم هنا مكان للعلو والسمو، وهو موضع لحياة جديدة، والنجم نور ونار، أي إن النجم حياة خالدة لا تفنى، ومرتبة عليا لا تطال.

والقصيدة قصيرة، تدل على لحظة توتر وقلق، وفيها يتوجه بالخطاب إلى زوجته، ويناديها رفيقتي، ليدل على رفقة العمر، وهو يخاطبها بست جمل طلبية، يرجوها ألآ تخبر إخوته، وألا تحزن، وأن تقول لهم بمثل ما يوصيها به، وهو أنه لم يمت، وإنما سافر إلى نجم بعيد، وه بذلك يريد تأكيد خلوده فنياً على الأقل من خلال شعره.

*

ولقد كرر الشاعر هذا المعنى في قصيدة أخرى له، عنوانها " **حب الأرض**" وفيها يقول[5]:

مـلاك المـوت طـاف بـيَ الأعـالي
وشـق بهـا غياهـب كـل تيـه
وأبـرز لـي النجـوم وكـل نجـمٍ
يتيـه بمـا لديـه علـى أخيـه
وقـال لـيَ انتـق المـأوى فـإني
أريـدك تنتقـي مـا تـشتهيه
فأنـت شـقيت في دنيـاك ممـا
بلـوت بهـا مـن العـيش الكريـه
وأنـت قـضيت عمـرك في الـتغني
بفـردوس الجمـال وسـاكنيه
فـأين تريـد أن تحيـا بعيـداً
عـن القلـق المريـر وعـن بنيـه
ولاح إلـيَّ نجـمٌ مـن بعيـدٍ
تفلَّـتَ مـن مواكـب راصـديه

توشَّــح بــالغيوب فكــان بــدعاً

يتـــيم النـــد منفـــرد الـــشبيه

فقلـت هنـاك قـال بكـل رفـقٍ

هــو الـنجم الـذي قـد مـت فيـه

فالشاعر يرقى إلى السماوات، وحين يعرض عليه مَلَكُ الموت أن يختار كوكباً ليعيش فيه بعيداً عن الأرض، حيث عاني كثيراً في الأرض، فإنه يختار كوكباً فريداً، وإذا هو كوكب الأرض نفسها. والقصيدة تدل على اعتقاد الشاعر أن الموت ليس فناء، وإنما هو حياة أخرى في كوكب آخر، فريد متميز، كما تدل القصيدة على أن الشاعر يحب الأرض، ولا يكرهها، ويدل على ذلك عنوان القصيدة، ولكن هذا الحب لا يتأتى إلا بعد أن يسمو الشاعر بعيداً عن الأرض، وينظر إليها من بعيد، ويجعلها كوكباً فريداً متميزاً جديرة أن يعيش فيها حياته الثانية بعد الموت. وفي هذا الموقف ما يدل على عزة الشاعر وإبائه، فهو يرفض أن يستسلم إلى الأرض ليعيش فيها، أو يموت، على ما هي عليه، بل يريد أن يعيد تكوينها، أو يعيد تصويرها فريدة متميزة، جديرة بعيش راق أو موت جميل.

ويكرر الشاعر فكرة الخلود من خلال الشعر في قصيدة عنوانها "**اقرئيها**" (1965)، وأردف العنوان بتقديم من كلمتين هما: " أوراق ميت"، وفيها يقول[6]:

إنهـا حجرتـي لقـد صـدئ النـسيان

فيهــا وشــاخ فيهــا الـسكوت

ادخلـي بالـشموع فهـي مـن الظـــ

ـلمـة وكـر في صـدرها منحـوت

وانقلـي الخطـو باتئـاد فقـد يجـــ

ـفـل منـك الغبـار والعنكبـوت

عنـد كأسـي المكـسورحزمة أورا

ق وعمـــر في دفتيهـــا شـــتيت

احمليهـــا ماضـــي شـــبابك فيهـــا

والفتــون الــذي عليــه شــقيت

اقرئيهـــا لا تحجـــبي الخلـــد عنـــي

انــشريها لا تتركــيني أمـــوت

والشاعر يتحدث عن غرفته فيؤكد أنها غرفته، وهو يذكرها بضمير الغائب، فكأنها بعيدة عنه، أو كأنه بعيد عنها، وتفسير ذلك يكمن في العنوان وفي التعقيب على العنوان، فليس العنوان مثلاً حجرة الشاعر، أو حجرتي، إنما هو "اقرئيها"، ويجيء التعقيب في كلمتين، وهما: "أوراق ميت"، وهذا يعني أن الشاعر يود أن يوحي إلينا بأن الحديث عن الحجرة جاء بعد موته، ولذلك يذكرها بضمير الغائب "ها"، مؤكداً بعده عنها، وبعدها عنه، ومؤكداً أيضاً أنها حجرته.

ثم يطلب الشاعر من المرأة أن تدخل إلى تلك الحجرة بالشموع، وأن تنقل الخطو باتئاد ليوحي بقداسة المكان وعذريته، فكأن أحداً لم يدخله من قبل، وكأن المرأة هي أول من يدخله، وثمة عنصر في الحجرة يمتاز بقوة التأثير وبعد الإيحاء، وهو الكأس المكسور، ووصفه بالمكسور يدل على عمق المعاناة، وشدة الألم، ويوحي بالوحدة والعزلة، فهو كأس لشارب واحد، محروم من لقاء الحبيب، ولو كان ثمة كأسان، لاختلف الأمر، وهو بعد ذلك كأس مكسور، وفي هذا مايوحي باليأس، لأن الواثق والمطمئن والآمل لا يحطم كأسه، إنما يتركه لغد، ويتضح من ذلك كله أن الشاعر رضي من تلك المرأة بالحرمان، فقد عاش في شبابه على الشقاء بها وبفتونها، وقنع باستلهامها الشعر، ولا طموح له سوى أن تقرأ أشعاره وتنشرها لتمنحه

الخلود، والذي يؤكد ذلك كله قوله: "والفتون الذي عليه شقيت"، ولم يقل مثلاً: " الذي عليه حييت"، وبذلك يكون الشاعر قد عبّر عن حب عذري، عماده التغني بالمرأة، والشقاء بها، وبما يكابد في حبها من معاناة، وما يتطلع إليه من خلود من خلال الحب والشعر.

وبذلك تكون المرأة هي الملهمة، والمانحة للحياة قيمتها، وكان ذلك كله على أساس من الشقاء، لا المتعة، وهذا الموقف بحدّ ذاته يدل على تقدير للحب، وسمو بالمرأة وتصعيد للمشاعر، وتطلع صوفي إليها، عماده الحب والحرمان، ويزيد الموقف سمواً، استلهام المرأة الشعر، ونشدان الخلود من خلال المرأة والشعر.

وفي الختام يطلب الشاعر من المرأة الحبيبة أن تقرأ ذلك الشعر وأن تنشره في الناس، كي تنقذه من الموت، وتمنحه الخلود، وبذلك يتحد الشعر والحب ليمنحا الشاعر الخلود. وبذلك تغدو الحجرة الضيقة المعتمة المهجورة أشبه بقبر من جهة، لأنها حجرة مهجورة لشاعر ميت، كما تغدو من جهة أخرى أشبه بالرحم، لأنها احتضنت أوراقه بما فيها من شعر تضمن قصة حبه وحياته، ومن هنا يكون خلوده، أو بالأحرى ولادته الجديدة على يدي حبيبته، التي تنقذه من الموت، إذ تبعث فيه الحياة، بقراءتها شعره، ونشرها له، فإذا هي تمنحه الخلود، وتنجيه من الموت.

وبذلك ينطلق الشاعر من ضيق الحجرة المحدودة ومن أبعادها الضيقة، إلى آفاق الحب والفن والحياة الخالدة، كما يتحول من الموت إلى الحياة، ومن أوراق ميت تقرؤها الحبيبة فتتحول إلى كلمات تنبض بالحياة، ولعل في هذا سرّ العنوان: " اقرئيها"، وسرّ التعليق: "أوراق ميت".

إن المكان المحدود، الذي هو حجرة الشاعر، لم يعد مجرّد مكان، إنما أصبح رحماً يحمل الحياة، مثلما أصبح رمزاً لقيمة، يتمثل فيها الشعر والحب والخلود، وبذلك يتحول المكان من المحسوس إلى المجرد، ومن المحدود إلى المطلق، ومن الضيق إلى الرحب، ومن العابر الزائل إلى الخالد، وصانع هذا التحول قوتان اثنتان هما الحب والشعر، أي الإنسان والكلمة الجميلة.

وإذا دلّ ذلك كله على شيء فإنما يدلّ على انتصار الفنان على المكان، وهو انتصار يتحقق بالشعر والحب. وفي هذا قدر غير قليل من السمو والتحليق وتجاوز الأبعاد بوساطة الكلمة والحب، وهو أقصى مايطمح إليه الصوفي الذي يسمو فوق المحدود ويعشق المطلق.

*

وتتأكد النزعة الصوفية في قصيدة أخرى للشاعر، وفيها يصور حالة العشق والتجاذب بين الكواكب نفسها، فهو يتصور نجماً نقياً صافياً مترفاً يغازل الأرض، وتستجيب إليه، وتمد يدها نحوه تريد مخاصرته، ولكن هيهات، وعنوان القصيدة "**إفرست**" (1961)، وفيها يقول[7]:

إليك غير الظن لا يرتقي
ياعاصب الغيم على المفرق
لأنت مجلى الأرض في شوقها
إلى البعيد المترف الشيق
غازلها نجم غوي السنا
وهزها من خدرها الضيق
فانتفضت تهتف: "ياخصره
قرِّب ويا وجدي به طوق"
فكنتَ منها اليد ممتدة
ولم تزل ممتدة يا شقي

والشاعر في القصيدة يصور الأرض هامدة ساكنة، هي حبيسة خدرها الضيق، ولكنَّ نجماً عالياً في السماء غازلها، وهو نجم أنيق مترف راق، فيه سمو، فهزها من خدرها الضيق، وبعث فيها الشوق، وحركها، ومدت إليه يدها تناديه وتهتف به، ترجوه أن يدنو منها، لتخاصره، ولكن ما كان للنجم والأرض أن يلتقيا، وظلت يدها ممتدة إليه، وظل هو يكابد الشوق والرغبة، وما يزالان في حالة تجاذب أبدية لا تنتهي، ولا يمكن أن يكون لهما لقاء ولا وصال، ولكن الشوق باق، والمكابدة مستمرة.

وهذا الحب بين الأرض والنجم هو حب صوفي، قوامه شوق مستمر، ورغبة دائمة، مع يقين باستحالة اللقاء، وما هذه اليد الممتدة من الأرض إلا قمة إفرست، في علوها وشموخها، وإذا كانت تبدو للعيان ثلجية فهي دافئة راعشة تحمل أقصى الشوق، وما علوها إلا سمو وارتقاء.

فالقصيدة تجربة صوفية تحلّق في فضاء السمو، وليست قصيدة وصف لجبل، والشاعر لايصف جبلاً، ولا يصور مادة، إنما يعبر عن تجربة إنسانية، قوامها السمو، وهو يتعامل مع الجبل ليس بوصفه حجارة، وإنما بوصفه خبرة إنسانية.

والمكان عند الشاعر لايبقى مجرد مكان، أو مادة للوصف والتصوير، وإنما يتحول إلى قيمة، وبما أنه مكان مرتفع، هو القمة، بل هو أعلى قمة في العالم، يغدو قيمة مطلقة تدل على الجمال الكلي والحب الكلي والشوق الكلي إلى لقاء ماهو كلي أي يصبح المكان العالي تعبيراً عن شوق إلى لقاء الكلي وهو لقاء مستحيل، ومن هذا الطموح إلى لقاء المستحيل يكون ذلك العلو الشاهق أو السمو العالي المتصاعد، أو بالأحرى يكون الانعتاق من الجسد الأرض نحو البعيد المترف الشيق.

وثمة حركة في القصيدة، قوامها الشوق المتقد، ومغازلة النجم، وما بينهما من لقاء لن يتحقق، وبذلك تظل الحركة مستمرة، لاتنتهي، اليد تمتد دائماً، والنجم يغازل دائماً، ولا ينتهي الشوق والحرمان، وبذلك تترسخ ثانية قيم السمو والنقاء والبراءة من خلال حركة غير منتهية، وعدم الانتهاء هو بحد ذاته قيمة عليا. والبعد بين الجبل والنجم يزيد من اشتعال الرغبة، واشتعال الرغبة يزيد من حرمانها، وهكذا دواليك في حركة غير منتهية أيضاً، مما يؤكد دائماً معنى السمو والصفاء والنقاء.

*

ولعل إيحاءات النجم تزداد وضوحاً في شعر الشاعر إذا ما قورنت نظرته إلى النجوم بنظرة شاعر آخر هو الشاعر الإنكليزي الرومنتيكي جون كيتس (1795 ـ 1821م) ولا سيما في قصيدة له عنوانها " **أيها النجم المتلألئ** "[8] وفيها يقول:

أيها النجم المتلألئ، ليتني كنت ثابتاً مثلك
لا لأكون معلقاً في الليل عالياً، وحيداً في مجدي
أرقب بجفون سرمدية مفتوحة
كناسك الطبيعة الساهر الصبور
المياه الجارية وهي تمضي في عملها
تطهر شواطئ بني البشر كما يفعل الكاهن
أو لأحدق في قناع الثلج المتساقط في هدوء
فوق الجبال والبراري
لا، إنما أود الثبات وعدم التغير
كي أظل متوسداً صدر حبيبتي الجميلة الناهد
أحس دائماً بحركات صدرها اللينة
وأظل يقظان أبداً في قلق حلو
وأنا ساكن، ساكن، أنصت لأنفاسها الرقيقة

وكذلك فلأحيا للأبد أو فليغشني الموت.

إن الشاعر الإنكليزي ينظر إلى النجم على أنه ثابت في محله، وهو يريد أن يظل مثله ثابتاً فوق صدر حبيبته، ويظل يقظان، وفي قلق، لا يتحول عنه، دليل التعلق بالجسد، ويتمنى أن يناله الموت إذا كان سيتحول في يوم ما عن صدر الحبيبة، وهو يحدد صفة واحدة في النجم يريدها لنفسه وهي الثبات.

والشاعر لا يريد من النجم سوى صفة واحدة، وهي الثبات، ولا يريد لنفسه مثله صفة العلو، لأن في العلو بعداً عن صدر الحبيب، أي البعد عن الحس والجسد، والشاعر أيضاً لا يريد لنفسه صفة أخرى للنجم، وهي مراقبة الأرض مثل كاهن، يرى المياه وهي تطهر بني البشر، أو يرى الثلج الأبيض وهو يغطي الأرض، فهو يرفض ثلاثة أمور، وهي أن يكون نقياً صافياً بعيداً عن الجسد مثل كاهن، وأن يكون صافياً نقياً مثل الماء يطهر آثام البشر، وأن يكون أبيض طهوراً مثل الثلج، وهو يرى الثلج مجرد قناع، ولعله يحس فيه البرودة والهدوء والسكون.

ويؤكد ذلك أنه يريد بالمقابل أن يظل (يتوسد صدر الحبيبة الناهد)، فهو يريد الحس والجسد بما فيه من دفء مناقض للثلج وبما فيه من دنو مناقض لعلو النجم، فالعلو الحقيقي بالنسبة إليه هو في صدرها الناهد، لا في علو ذلك النجم، وهو لايريد حركة الماء الجاري الذي يطهر شواطئ البشر بل يريد الإحساس بحركات صدرها، ولا يريد الإنصات إلى صمت الثلج النقي المقدس، بل يريد الإنصات إلى أنفاسها الرقيقة.

ويتمنى أن يظل هكذا إلى الأبد، وإذا كان سيفصل عن ذلك الجسد، فهو يفضل الموت على التحول عنه، ويصرح بذلك حين يقول:"وكذلك فلأحيا للأبد"، وهو يعلم أن هذه الأمنية لن تتحقق. إن بعد النجم أوحى له بالقرب، وعلوه أوحى إليه بالدنو، وصفاءه الروحي أوحى له بالقلق الجسدي، وبرودة الثلج أوحت إليه بدفء الجسد، وحركة الماء وهو يطهر أوحت له بحركة الصدر الناهد.

وهكذا فالنجم يوحي للشاعر بكل ما يناقض صفات النجم، أو ما هو متوقع أن يوحي به النجم، سوى صفة الثبات، أي إن النجم العالي الثابت أوحى إلى الشاعر بفكرة واحدة وهي ديمومة المتعة الحسية قرب صدر الحبيبة، وهو يعلم أن النجم حقيقة ليس بثابت، وأن اللذة الجسدية ليست بدائمة. إن الشاعر بتطلع إلى خلود النور، وهو متمسك بالطين والجسد الفاني، وينظر إلى النجم وهو مُثَّاقل إلى الأرض. ولا يمكن الزعم بأن الشاعر في القصيدة يقصد بالثبات ثبات المشاعر والعواطف، لأنه لم يشر إلى شيء يتعلق بهذا، وإنما اشار إلى الصدر الناهد وحركاته والأنفاس. لقد اختار الشاعر من النجم صفة الثبات وحدها، ونفى عن وعي كل ما سواها، وقد صرح بذلك كله في نهاية القصيدة بقوله:

كذلك فلأحيا إلى الأبد، أو فلْيَغْشَني الموت

وهكذا فالقصيدة تعبير عن قلق الموت، وزوال المتعة، وفناء الجسد، والرغبة في الخلود.

وعلى العكس من ذلك كله فقد سما عمر أبو ريشة نحو النجم، فإذا هو صوت يناديه، وإذا جناحه يحترق لما دنا منه وحاول مسه، ثم إذا هو مستقر له، يتحول إليه عندما يعتدي عليه الردى، بل إنه يتمنى أن يصعد إليه، وفي هذا ضرب من العشق المتسامي، ونوع من النزوع الصوفي يسمو به من أرض الواقع إلى سماء النجم.

*

وفي هذا ما يؤكد ثانية خصوصية النجم أو الكوكب لدى الشاعر، وهذه الخصوصية تنبع

من تمجيده النجم أو الكوكب، ونظرته إليه على أنه مرقى عال، للسمو والرفعة، ويرجح أن يكون مرجع هذه الرؤية لدى الشاعر إلى ثقافته الصوفية، وهو الذي نشأ في بيت جده لأمه في عكا، حيث تلقى الطريقة الشاذلية، وظل وفياً لها طوال حياته، "**حيث كان يختزن في خزان شعوره الأكبر إيقاع الطريقة وإيقاع الحضرة، وإيقاع المذاكرة... وفي كل مكان مضى إليه عمر كان في جيب سترته الداخلي كتيب صغير اسمه "الوظيفة الشاذلية" وهي الورد الذي يقرؤه أبناء الطريقة مرتين في اليوم**"[9].

*

ولقد نظر معظم المتصوفة إلى الكواكب والأبراج والنجوم على أنها مراتب علوية ترقى إليها النفس الإنسانية وتسمو، بفضل اتباع الطريقة الصوفية. ومن ذلك ما تصوره الشاعر المتصوف ابن العربي (560هـ ـ 1165م= 638هـ ـ 1240م) في " كتاب الإسرا إلى مقام الاسرا " من قيام السماء على سبع سماوات في كل سماء نبي من الأنبياء، وفق مراتب الأبراج والكواكب والنجوم[10]، ولقد كان لدى المتصوفة تصور لترتيب الكواكب يبدأ بزحل ثم المشتري ثم المريخ ثم الشمس ثم الزهرة ثم عطارد ثم القمر، والفيض عن الذات الإلهية يمر عبر هذه المراتب نزولاً من كرة السماء الأولى ثم الكواكب الثابتة إلى زحل حتى يبلغ مرتبة القمر ومنه إلى النفس الإنسانية، في حين يرقى العشق الإلهي من النفس الإنسانية إلى مرتبة القمر صعوداً حتى يبلغ زحل ثم الكواكب الثابتة ثم كرة السماء الأولى حتى يبلغ مرتبة تدنيه من سدرة المنتهى فالكرسي ثم العرش. ومن الممكن أن نجد اعتقاد الإنسان بخلود النجوم وبقائها في الشعر الجاهلي، ويمثل ذلك لبيد بن أبي ربيعة في قصيدة له مطلعها[11]:

بلينا، وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

فقد نظر الإنسان القديم إلى النجوم فرآها تطلع كل مساء، بعد أن تغيب، فكأنها تموت ثم تولد، ورأى الإنسان يموت ولا يرجع، ولذلك حسب النجوم والكواكب خالدة، ومن ثم عبدها، بل ظنَّ أن الأرواح تسكنها، وأن الموتى يصعدون إليها لتكون لهم فيها حياة أخرى. وهذا ما آمن به المصريون القدماء، "**ففي جو مصر النقي تبرز النجوم لألاءة براقة..ولكن هناك قطاعاً واحداً من السماء له مدار أصغر، تهوي النجوم فيه نحو الأرض دون أن تحتجب فيه أبداً، تلك هي النجوم القطبية التي تتأرجح حول نجم الشمال التي قال عنها المصريون إنها "لا تعرف الهلاك" ... هذه الكواكب التي لا تموت اتخذوها رمزاً للموتى الذين انتصروا على الموت وظفروا بالخلود، وقد كان الطقاع الشمالي من الفضاء جزءاً مهماً من الكون، فهم يرون ألاّ موت فيه، ولذا فهو مقام الخلود...وكانت غاية الميت منطقة "دارت" في الجزء الشمالي من السماء حيث يتاح له أن ينضم إلى الكواكب القطبية التي "لا تعرف الهلاك" فيحظى بالخلود، هناك جعل المصريون فراديسهم وأسموها حقل القصب وحقل القرابينن، حيث يحيا الموتى كأخ، أي كروح، فعالة**"(12).

*

وهكذا فقد سما عمر أبو ريشة نحو النجم، فإذا هو صوت يناديه، وإذا جناحه يحترق لما دنا منه وحاول مسه، ثم إذا هو مستقر له، يتحول إليه عندما يعتدي عليه الردى، وفي هذا ضرب من العشق المتسامي، ونوع من النزوع الصوفي يسمو به من أرض الواقع إلى سماء النجم، وكان تعبيره عن النزوع الصوفي غير

مباشـر، يمتـاز برقـة التعـبير، وجـدة التـصوير، وبقدرة كبيرة على التكثيف وتحقيق الإدهاش.

الهوامش:

1 ـ أبـو ريـشة، عمـر، **ديـوان عمـر أبـو ريـشة**، دار العودة، بيروت، طب. ثانية عام 1988، ج1 ص 415

2 ـ المصدر السابق، ص 181

3 ـ العطـار، فريـد الـدين، **منطـق الطـير**، تـر. بـديع محمـد جمعـة، الهيئـة المصرية العامـة للكتـاب، القــاهرة، ط. رابعــة، 2006، ص 2002، ص 109

4 ـ أبـو ريشة، عمـر، **مجلة الـضاد**، حلب، العـددان 9ـ10 أيلـول وتـشرين الأول 1991، ص 93 وص 106.

5 ـ أبـو ريشة، عمـر، **أمـرك يـارب**، دار الأصـفهاني للطباعــة، جــدة، عــام 1398هـ ـ حــوالي عــام 1975م.ص 61 ـ 62

6 ـ عمر أبو ريشة، **ديوان عمر أبوريشة**، ص 205

7 ـ أبـو ريشة، عمـر، **غنيـت في مـأتمي**، دار العـودة، بيروت، حوالي 1970، ص 10 .

8 ـ المسيري، د. عبـد الزهـاب، ومحمـد علـي زيـد، **مختارات مـن الـشعر الرومـانتيكي الإنكليـزي**، المؤســسة العربيــة للدراســات والنــشر، بــيروت، 1979، ص 265

9 ـ أبـو ريشة، زليخـة، "عمـر أبـو ريشة، شـهادة "، **مجلة المجلة الثقافية**، الأردن، العـدد 23 كـانون الأول 1990 ص 110.

10 ـ ابـن عربـي، محيـي الـدين، **رسـائل ابـن عربـي**، تقـديم: محمـود محمـد الغـراب، وضـبط: محمـد شــهاب الــدين العربــي، دار صــادر، بــيروت، 1997، ص 171 ـ 235، ولاسـيما ص 205 ـ 206.

11 ـ لبيد بن أبي ربيعة، **ديوان لبيد**، نشر. د. حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993، ص 110، المصانع: حفر لجمع المياه، أو مسيل يصنع حول الخيمة، ليبعد عنها الماء، وهو نفسه النؤي، لأنه ينأى بالماء عن الخيمة.

12 ـ فرانكفورت، وزملاؤه، **ما قبل الفلسفة**، تر. جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.ثانية، 1980، ص 62 ـ 63

المصادر والمراجع

ـ ابن عربي، محيي الدين، **رسائل ابن عربي**، تقديم: محمـود محمـد الغـراب، وضـبط: محمـد شـهاب الدين العربي، دار صادر، بيروت، 1997.

ـ أبو ريشة، زليخة، "عمر أبو ريشة، شهادة "، **مجلة المجلة الثقافية**، الأردن، العدد 23 كانون الأول 1990.

ـ أبـو ريـشة، عمـر، **أمـرك يـارب**، دار الأصـفهاني للطباعــة، جــدة، عــام 1398هـ ـ حــوالي عــام 1975م.

ـ أبو ريشة، عمر، **ديوان عمر أبو ريشة**، دار العودة، بيروت، ط. ثانية، ج1، 1988.

ـ أبـو ريـشة، عمـر، **غنيـت في مـأتمي**، دار العـودة، بيروت، حوالي 1970.

ـ أبـو ريـشة، عمـر، **مجلـة الـضاد**، حلـب، العـددان 9.10 أيلول وتشرين الأول 1991.

ـ العطار، فريد الدين، **منطق الطير**، تر. بديع محمد جمعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـاهرة، ط. رابعـة، 2006، ملخـصها ص 109، ونـصها ص 406.

ـ فرانكفورت، وزملاؤه، **ما قبل الفلسفة**، تر. جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.ثانية، 1980.

ـ لبيد بن أبي ربيعة، **ديوان لبيد**، نشر. د. حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993.

ـ المـسيري، د. عبـد الزهـاب، ومحمـد علـي زيـد، **مختـارات مـن الـشعر الرومـانتيكي الإنكليـزي**، المؤســسة العربيــة للدراســات والنــشر، بــيروت، 1979.

❑❑

الشعر ..

حصين !

❑ غسان كامل ونوس*

كأنّ الصباحَ الذي قد تبدّى

على شاطئٍ من هلام

يؤوبُ في وقعهِ المستدام

بلا لثغةٍ أو نشيد

كأنّ الوريدَ تضايقَ

أو راودتْهُ الضّفافُ

عن الدّفقةِ العابره

كأنّ الذي في الضّفافِ المديدةِ

ملّ التداني العليل

ونبضَ المآقي الكسول

كأنّ الذي كانَ في دندناتِ السواقي

تكوّرَ في عريهِ واستراح

كأنّي تكوّرتُ

في أنّةٍ مزمنه

كأنّي تكوّمتُ في نأمةٍ مدبره

يكاد الشراعُ يفرُّ-

النشيدُ يلوبُ على ذاكره

وتلكَ الأكفُّ تتوهُ

- تكاد-

وصوتُ المنادي

يغيضُ

ورجعُ الرياحِ

يفيضُ

على الساحةِ المقفره

تحومُ النّدوبُ على السارياتِ

تهيمُ

وتسخرُ منْ مُشتهاها

المتون

وتُقرَعُ في الذاكراتِ الثّكالى

النواقيسُ-

* شاعر من سورية.

تهرعُ حمّى الزمانِ الكظيم

وتوقدُ في الحشرجاتِ-

التّعاويذُ- تَدْمَى

مساماتُ عمرٍ تَناهى

إلى بركةٍ آسنه

تكادُ الجهاتُ تفرُّ

أو تستكين

ولا غافلٌ يستفيقُ

ولا ضالعٌ في السباقاتِ يحتجُّ

أو يستعيد

كأنّ الشراعَ رجيم

كأنّ اليراعَ عنين

كأنّي تجاوزتُ قدرَ الأماني:

رغبتُ،

تماهيتُ في الومضِ

ألقيتُ في النّبضِ

سنارةً لا تنام

ولا تتركُ الطعمَ

في غيِّهِ المستبيح

يضلّلُ نبضَ اليقين

كأنّي بلا أُضحيات

عبرتُ

كأنّ الزمانَ تشفّى

بنَسغي

وألقى إلى النّار

روحي

كأنّي أتوقُ إلى النّار

برداً سلاماً

كأني بلا تمتماتٍ

حصين

❑❑

العمى واليباب ..

❑ عبد المنعم حمندي*

غابةٌ تتشابكُ أشجارها بأفاعٍ بشرْ

كلُّ أحلامها السود في دمها تُحتَضرْ

والرياحُ تلفُّ الرياحَ

وهذا الهواءُ غبارٌ كثيفٌ

وإن الندى من حجرْ

ولولا سنابكُ خيل المطرْ

وهبوبُ العواصفِ في المُشتَجرْ

وخيطٌ من الفجر يدنو

وما في الزرعِ من مُدّكرْ

لأضحى اليبابُ جناناً

وسقرُ جهنّم مأوى..

وما من أثر

لرواءِ الوداد

ومجرى الغدير

ونبع الحنين

وحُلمٍ يطير بضوءِ القمرْ

***

أُسمّي الذي لا يُسمّى

وجُرحي الذي نزفه من أعالي الفرات المدمّى

انتظاراً يهدُّ الجبال

وصبراً تماهى

وهمّا

لأنَّ الرزايا نساءٌ من الجنِّ

ينقرن تلك الصنوج

وينشرن داليتين على صهوة الريح

سلمى وكلّ المسرّاتِ كلمَى

---

* شاعر من العراق.

فأيّ انشراح لتوق الرماح

وصدري بوسعِ السماوات مرمَى

أفتشُ عنها...

بلادي التي لا تراني

ومَنْ لا يراها..

يراني أعمى...

أصيحُ بلادي.

بلادي أضاعوها..

وأنيَّ أضعتُ بلادي،

بلاد المياه

وفيها عطشتُ

فكيفَ نكفكف دمع التراب

ونسقي الظما بالدماء..

وفي ليلِ كرخٍ ينامُ بصبُحِ الرصافةِ مَوْتُ؟

❑❑

الشعر ..

إكسير أنفاس الربيع ..

❑ علي بن عبد الحليم السالمي*

عنّ وجه الربيع غضّا نديّا
فالتقاه الزمان هشّ المحيّا

ردّد البلبل الصّدوح سلاما
كلّما فاح النفح منه نقيّا

تتهادى المياه من هضبات
شامخات إلي السهول هويّا

و ورود الرياض ماست دلالا
بعدما فوها عبّ كأسا رويّا

والثرى رقّت غدوة وتردّت
يمنيّا تختال فيه عشيّا

والهواء الطليق ضمّ رذاذا
ونثيرا من الزهور وريّا

عاد للدهر روحه طالما استن
شق منه روح الحياة ذكيّا

استعاد من حسنه ما اختبى عن
د الشتاء من حسنه سنويّا

سنويّا عود الأراك يخلّي
طائر السعد في الربيع لديّا

يترك الجدّ ظلّه فوق رأسي
و قطاف الآمال حلوا شهيّا

ينعش القلب نبضه ورؤاه
وتداوي الجروح هذي الحميّا

قد أفاق الهمود نفثة صبح
ثمل علّ قرقفا بابليّا

نمّ راحه عن رياح الخزامى
توضع الابتهاج نشرا وطيّا

---

* شاعر من الأهواز.

حبّذا وديان الهوى حيث تهمي ال غاديات إكسيرها الأبديّا

من عليها غطّى الحبيّ ذكاء فالرياحين طلّها ظلّ حيّا

فكّت الأصفاد من كلّ عان فغدا حرّا بالنعيم حريّا

ذعذعت شمل حزنه وأحلّت مرهف الحسّ في الحشا عذريّا

وانتشت أنفاس الطبيعة سكرا راح فيها يدبّ شيئا فشيّا

كلّ فنّ إذا أعيد مملّ والربيع ما عاد إلّا طريّا

أحكم الصنع في نسيج جديد طرّزته يد الإله حليّا

بسمة أمسى في ثغور الصبايا خامرت عين الصبّ لطفا وريّا

هو معنى قد انجلى في حنايا خافق صار ملؤه معنويّا

هو سرّ الرؤى وفسر مداها و الدنا كم رأت به حلما رضيا

نغمة رجّع النهار صداها ووعاها سمع الدجيّ نجيّا

و سكون كالزّغب تحت حمام أشبعتها في اللّيل دفأ ورعيا

أفتحلو الحياة دون هواه وهواه يوحي حنانا رويّا

في حفيفه همس خود تثنّت أو طنين ناي يدوي دويّا

وبمغداه دمع حبّ تهاوى و بمغناه رقّ حبّ هنيّا

أذعنت ألسن الفصول بتف ضيله طقسا وازدهاء ووشيّا

إنّه بذّها ببون بعيد مثلما فاقت الصّعيد الثريّا

يا لإبداع زيّن الكون رسما دونه يركن الجمال جثيّا

ليت عمر الزمان يبقى ربيعا مشرق الأفق عاطرا كوثريّا

كتبت في جمادى الثانى سنة 1435ق المصادف 2014م

❑❑

الشعر ..

أرض الشهادة ..

□ فراس حداد

أرض الشهادة لا فخر ولا ندم ... والمجد يعرف والأعراب والعجم

أرض تُطهِّرها أقدام نخبتها ... وتروي تربها من شلاّل مجدهم

دماء أبنائها شلاّل نعمتهم ... أكرم بنعمتهم بالجود تعتصم

دماء جندها تصلي أنف حاسدها ... تَبّاً لحاسدها إذ فاته الندم

شآم ما ذَلّكِ التاريخ مذ نشأت ... أرض الشآم وبات الذُّلُ عندهُمُ

فسيفك اليوم لا غشمد يواكبه ... ما مرَّ في الشام غِمد غيرُ غَمدِهِمُ

شهيد أرضك في ساحات معتصم ... ما احتاج أن يسأل التاريخ معتصم

سنابك الخيل تعلو فوق قامتهم ... حتى يموتوا بغيظ كان غيظهُمُ

مهد العروبة فخر زانه قِدم ... رايات ماضيك تسمو فوق كيدِهُمُ

ما ذلّكِ الدهر في يوم منيتش به ... إلا وكان لك التاريخ يبتسم

قد عاش مجدك في بُحبوحة سلفت ... وكان يطعم أمجاداً لمن قدموا

مازال مجدك طربوشاً لقامتهم ... إن فات قامتهم طربوشُك انصرموا

علا بكِ القوم في أيام حاجتهم ... فكنت عوناً لكل العرب إن ظُلموا

وكنــت ســاعدَهم في كــل معــترك وكنــت عونــاً رعــاه الــسيف والقلــم

ســيبقى مجــدك لا عيــبٌ يقاربــه فأنــت أم العــلا مــن خلفــه الهــرم

وأنــــت قــــاموسُ أمجــــاد لأمتنـــا قاموسُـــك اليــوم فيــه العــزُّ يلتــزم

لا عــاش مــن بعــدك التــاريخ مزدهــراً فأنــت قاموسُــنا مــا دامــت الأمــم

❑❑

قصائد ..

❑ يحيى محي الدين

تلك الهنيهة

رأيت

كما يذكر القلب

ورداً

بلون الغياب

على باب حزنك

منذ

دخلتِ بكمّ الندى

قبل عهد الثياب

ووجدك يبكي

رأيت

مذاهبه في الخطاب

وأذكر حين

رفعتِ عن الياسمين

بتلك الهنيهة

جور التراب

أعدتِ لحقل المعاصي

يمامي

وقد يمَّم الطير

نحو الثواب .

***

حنيـــن

لملمي نفساً من أجاص

ومن ياسمين

تركت لك القلب

وجداً

توارى كخمس سنين

تركت لغاتي

وقافيتي
وانشغال الفؤاد
ببعض الشؤون
أنا مفردات يديك
فلا تصمتي واكتبيني
إذا عبث الجاهلي
بأغنيتي
وامنحيني
ثغور الندى
كي أدسّ
رضاب اشتهائي
بُعيد الحنين
وأنحو لمجدك
أكتب تاريخ روحي
ومنعطفاً للجنون
وأهمس مثل ظلام
بمطلع ضوءٍ
وشتان ما بين
همس الرياح
وهمس الغصون

* * *

حبل الوداد

إذا انهمر الغيث
من سيلم
بسفح الذنوب
شهيق الهوى
المستطاب

إذا انقطع الحبل
حبل الوداد
بأي رحيق
أباهل
ورد الخطاب

إذا ما تركت ضلوعي
معلقة كالمسيح
ولا لغة
تعتني بدمي
من يهيل عليّ التراب

ومن سيعيد
لماضي الندى
لغة الأنبياء
ويشهد أن المدى

غافل
عن كلام الضباب

إذا اعتنق النبض
فكر الغمام
ولملم أطواره
من يغير
لون السحاب

ومن يا حبيبي
إذا مسني شغف
من يحاورني
بعد هذا المصاب

* * *

وجدٌ آخر

حين تصحو المراثي
بأحلامنا
سينام الحنين
على ضفة الورد
مثل شهيد قديمْ

- 2 -
إذا غيّر الصمت
قافية الروح
وانكفأ الاحتمال
وصار العدو
صديقا حميمْ

- 3 -
ترى
من يعيد الصباح
لمثواه
حين يقل

مديح الندى
في لغات النسيمْ

- 4 -
متى داهم العشق
غربتنا
واقترفنا النشيد
شربنا كؤوس
النديم
وما من نديمْ

* * *

مرايا

مرايا تناهت

كضوءٍ يسافر فيك

مرايا استعارت يديّ

ولون أصابعك

وهبنا الزجاج بريقاً

ونحن سبايا

***

حلم

أصير غناء

على ضفتين

أصير مدى من صليل

أسلّ سيوف الرؤى

واحتمالك

والمستحيل

وأبقى فضاء لحلم هزيل .

***

صلاة

وأنت نعاس

ينقط من قامتي

واشتهاء

تعالي وهزي سؤالي

سفرجل نهديك يحلو

بأرض احتمالي

كأني أصلي

كأنك

فاتحة في ابتهالي .

***

حياة

وفيما مضى

من وعيد

خلعت دمي

من جنازته

وارتديتك ورداً

لموت جديد .

***

❑❑

قطوف..

❑ أوس أحمد أسعد*

ـ 1 ـ

سأغلي لكَ الشّاي

"بالبطءِ الذي تحبّه"

وأضيفُ لها القرفةَ

ستهرعُ غيمةٌ

من الأُلفة الخافتة

إلى أغصانكَ

لتتدلّى أكثر

وتدوخَ

لا تتأخّرْ حبيبي

الشّاي على النّار

يغلي

ـ 2 ـ

ألأنّكَ الخائبُ الجميلُ

تستمطرُ الرّائحة؟!

ألأنّكَ لا تعترف؟!

ألأنّها ما لم تملكه؟!

ألأنّها ما لم تستطعْ

ملكْه ؟!

قلتُ :

لأنّها

الرّائحة

* شاعر من سورية.

ـ 3 ـ

لديّ الكثيرُ

من الحزن

والخبزِ والأصدقاء

كيْ أمارسَ

هذا الحبّ

لديّ الكثيرُ

من القصائد

والعشقِ

كيْ أرسمَ

آلهةً صغيرة

بأسئلةٍ غضّةٍ

وغيوب تليقُ

بخصرك

لديّ الكثيرُ

من العبث

لأقطفَ

تلك النّجوم

وأعلّقها قلادةً

على

جيدِكِ

ـ 4ـ

لا يمطرُ شكٌّ

إلّا في يقيني

لذا ترى أسئلتي

مبتلّة دوماً

وتفوح

ـ 5ـ

حين غزوتُ

كعبتَها

خذلني

حجلُها الأسود

ـ 6 ـ

أرتّبُ سريرَ المسافة

خلوةً

لزفافِ النّهر

هكذا

دون علم

أشكّلُ غابتكِ

ـ 7 ـ

الهاربةُ للتّو

من دفتر العائلة

إلى حضرةِ الياسمين

الهاربةُ للتّو

قشّرتْ فستقهَا

بأنامل فارهة

وعلى مقربةٍ

من كهولتنا

رمتْ القشور

ـ 8 ـ

وقت يشهق الحطبُ

وتستوي الجمراتُ

من فرطِ العشقِ

اعلمْ أنَّ

أنوثةً في البعيد

تحترقُ

بتلذّذٍ وبطءٍ

مخبّئة " كانونها "

عن أعينِ البردِ

ولهفة الحطّابين

لتدفئ

عيدانكَ المبتلّة

ـ 9 ـ

أكثيرٌ

أن تسهرَ

في ثياب النّهر

لترى

نهديّ السّروة

كيفَ يبزغان ؟!

ـ 10 ـ

حينَ

فكّتْ قميصها

فرّتْ

ثعالبُ الكلمات

ـ 11 ـ

لمْ تنتبهْ

لقدومِ الشّتاء

مع ذلك

شمّرتْ عن ضفّتيها

واستلقتْ

تلك السّاقية

ـ 12 ـ

ظلٌّ

على النّافذة

ظلٌّ

يطيلُ قامةَ الفجر

لا تجزعي

يا امرأة

إنّه الحبُّ

تائهاً

في ثيابِ

الأ رقْ

❑❑

القصـــة ..

القصة ..

صـــباح اليـــاسمين والغاردينيا ..

❑ د. هزوان الوز

اليوم عيد ميلادي ... هل تذكر؟

أم أنك مصادفة حدّدت موعدنا اليوم لننجز فيلمنا الوثائقي الجديد؟

لن نختلف على عنوان الفيلم ، المهم ألاّ تكون نسيت عيد ميلادي ، وألاّ يتكرر سيناريو العام الماضي... عندما تناولنا الغداء معاً ، وبدأت رسائل بعضهن تنهال على هاتفك المحمول...

لا أدري لماذا لا أستطيع أن أنفجر في وجهك غضباً وسخطاً ، فبعد كل ما حصل تقترب ببساطة لتلمسني .. لتقبلني .. كما لو أنني وقت مستقطعٌ بين الأشواط ...

لا أدري ما الذي يصيبني بالعجز هكذا ؟! ما هذا الذي يكبلني ويمنعني من أن أصرخ ملء فمي في وجهك وأنا انظر بعينيك بكل قوة وكره وتجهم .. لأقول لك كم أنا مستاءة ، كم أنا لستُ بخير ، كم أنا جاحدة بحق نفسي ، لا بل كم أنت مجحف بحقها وغير مبال.. كملك تخضع له العباد ...

هل تعتقد أنّي كنت أصدق كل ما تقوله ؟! لا ، لم أصدقه بل كنتُ أغمض عيني وأتمنى أن تكون صادقاً...

غير مرّة رغبت في أن أقول لك إني أحببتك بكل ما لدي ، رغم أنك أنت من اقتحم حياتي.

أحببتك بكل ما أستطيع وأكثر من أي أحد ، وأكثر من كل شي، وقدمت لك ما لم أقدمه لأحد ، بينما كنتَ أكثر من عذبني وأكثر من أبكاني وأكثر من آذى مشاعري، ولم يحترمها ولم يقدرها ، وأكثر من تفه كل شيء ... كما لو أني عدو لك ! كما لو أنك تريد أن ترى أقصى قدرة على التحمل لدي وأقصى انفجاراتي...

غالباً ما أتحدث إلى نفسي كالمجانين، و أتساءل : إلى متى؟ وإلى أين ؟ وأين هو مفترق الطرق ذاك؟

كيف لي أن أُبعدك عني ؟

كيف لي أن تبقى بعيداً ؟

وإن حدث ذلك، كيف لي أن أتنفسك و أحيا ؟؟؟

إن وجدت لك عذراً لكل شيء ، أهذا يكفيك مني؟

إن وجدت لك عذراً لتجاهل اشتياقي، أيشبع ذلك شغفك بتلك الفتاة التي تلمس الشمس كل يوم بك؟

إن وجدت لك عذراً كي لا أكون ... أفلا أكون؟ ستبكي ذاكرتك يوماً وهي تستذكر أنفاساً لم يألفها سوى قمر السماء.

***

باخضرار نقي ، وعلو يبلغ المتر والنصف ، وإلى جوار حائط قليل الارتفاع ، كانت تطل بشقاوة بأطراف أغصانها التي تمتلئ في مثل هذه الأيام بكثير من الأزرار، وبعض من الزهرات الناضجة ، وبعض آخر بدأ طريقه إلى اكتمال النضوج ...

تلك الأغصان الكثيرة كلها كانت ترتكز على جذع واحد ، لتشكل بأعلاها كرة من الخضرة الفريدة، المزينة بكثافة بمساحات بيضاء ناصعة ..تستظل بفيء شجيرة (حمبلاس) من جهة ، وفي سقف قرميدي صغير من جهة أخرى، إنها شجيرة الغاردينيا المتوضّعة في زاوية صغيرة من الجهة الغربية لمنزلنا ...

أول مرة لفتت فيها هذه الزهرة الخلابة انتباهي ، كانت منذ حوالي ست سنوات، كنت بدأت عملي في الهيئة العامة للإذاعة و التلفزيون بدمشق، وفي إحدى الصباحات الربيعية من نيسان ، وعلى غير عادتي كنت أنهيت استعدادي للسفر إلى دمشق في وقت أبكر من موعد وصول الباص، فقد كان ثابتاً عني أنني أتأخر دائماً، كانت أمي ترقب مرور الباص من بعيد على مفرق إحدى القرى المجاورة، ولآن إطلالة بيتنا مفتوحة ولا عائق أمامها ، لكون قريتنا تنتشر في منتصف أحد الجبال تقريباً ، كان من الممكن أن ترى أمي الباص بسهولة قبل وصوله ، لتبدأ عندما تراه بالطرق على نافذة غرفتي و هي تشير بيدها غاضبة من تأخري في كل مرة، من جهة لأنها دقيقة بمواعيدها كثيراً ، ومن جهة أخرى لأنها تحب دائماً أن أحتسي القهوة معها على شرفة بيتنا قبل أن أسافر ، لئلا أحزنها ، وغالباً ما كنت أشرب فنجان القهوة دفعة واحدة وأنا أقف على رأس الدرج وأهم بالنزول ، وكثيراً ما احترق لساني بها...

ذلك اليوم استيقظت أبكر من المعتاد ومن دون عناء في الخامسة صباحاً ، وكنت مستعدة هذه المرة لشرب القهوة على مهل وانتظار الباص مع أمي ...

أضحكتني يومها ، فعندما رأت الباص غادرالقرية المجاورة ، ومع أني كنت إلى جانبها ، إلا أنها توترت مثل كل مرة لتستعجلني ، يومها قلت لها " صحيح أنك مجنونة " ، فأنا و أمي كالأصدقاء ، وبناء على طلبها نزلت إلى الطريق العام المجاور لبيتنا ريثما يصل باصنا العزيز ،

ويبدو أنه هذه المرة احتاج وقتاً أطول ليصل ، ربما لأني أنتظره وجدت الوقت أطول، أو أنه توقف لعدد كبير من الركاب...

أثناء الانتظار ، وفي الساعة السادسة والنصف ، امتلأ صدري وبشكل مفاجئ بعبق غريب ، عبق ساحر ، فشعرت أني أتنفس الأوكسجين البارد الصرف فحسب، لدرجة أني وأنا أكتب هذه العبارات أستطيع أن أشعر مرة أخرى بانشراح و اتساع صدري، لحظتها تلفتّ بلهفة محاولة إيجاد ما قد يكون مبعث هذا النقاء والجمال والنشوة كلها معاً، كم كنت عمياء لفترة طويلة؟! كيف لم ألحظها من قبل ؟ فقد كانت خلفي وعلى سياج بيت جارنا شجيرتان متوسطتان من الغاردينيا ، اتسعت عيناي كما يُباغتُ طفل، وكأني ألتهم كل ما أرى ...

تباً ، لا أريد أن يصل الباص ، فلم تشبع عيناي منها بعد ، ولم يرتو فضولي أمام هذا الجمال والإعجاز...

ها هو السائق يطلق زغرودة طويلة من بوق باصه الرمادي ، كأنه يحتفل ، فهذه المرة لم أتأخر...

مع أني لا أحب قطف الأزهار ، و يزعجني انتزاعها من عروشها ، إلا أني يومها وبسرعة لص محترف فصلت غصنين صغيرين مترفين بالغاردينيا ، وصعدت، حتى نسيت أن ألوح بيدي إلى أمي التي كانت تتابع مراقبة الباص إلى أن يغيب عن نظرها، ولشدة ما كانت عليه تلك الزهرات من رقة ورقي وجمال أنيق ، كنت أحملها طوال الطريق بشكل عمودي مثير للضحك، ولاسيما عندما مشت على يدي حشرة صغيرة تسللت من بين وريقات إحدى الزهرات ، فأجفلت قليلاً وأبعدتها عن يدي كما لو أني سرقت مخبأها الصغير ..

تلك الزهرات كانت تبعث تفاؤلاً وأملاً وعبيراً لدى الركاب جميعاً، وبعد أن وضعتها في كأس ماء في غرفتي ظلّت تغدق عطرها عليّ بسخاء كبير ...

وغدوت منذ ذلك اليوم أناجي تلك الزهرة ، آنذاك لم يكن لدي حبيب ، كم تمنيت لو أن هناك من يشغل قلبي لأهديه مع كل خفقة حب زهرة غاردينيا تكلل اللقاء، وتعطيه من السحر ما يكفي، وتأخذنا إلى حكايا قديمة حدثت في زمن ساحر ولم تزل خالدة...

***

عندما يرسم الرسام لوحة على خلفية بيضاء ينظر بعد أن تجف الألوان إلى تأثير اللون في ذلك البياض، يرى وقْع ما أبدعت أصابعه في نفسه ، أما أنت يا سيد الألوان فترسم بألوان فريدة، وتترك تلك الخلفية البيضاء تعانق الألوان معها وحدها، غير مكترث بما أبدعته يداك في عالم اللون، وغير آبه بما أوحت ألوانك، وما كان تأثيرها في عيون بريئة لا تعشق سوى اللون الأزرق، ولم تر الألوان الفريدة إلا على يديك.

لا أحب تلك الدقائق المتعبة الخائفة ... الممزوجة بالحب والخوف والصدق والخيانة... ومزيج من الأحاسيس المبهمة ، هلا تفهمت نبرات صوت يخاف الغناء الذي يهواه ويعشقه؟...

خدعة الصداقة تلك المثيرة للشفقة رأيتُ فيها المنفذ الوحيد والحل الوسط، فهي ستكفل لي أن ألمس يدك خلسةً لأضمن بعض الشهقات، وأن أنظر في عينيك لأرى نفسي فيهما، وأن ألمس قلبك من بعيد ، وأشتم رائحة جسدك المحببة كرائحة طفل، أن أطمئن على أحوالك .. لأكون قريبة بطريقة ما ، وأعيش بسماع صوتك ...

لماذا لا تفهمني ؟ ولماذا لا تساعدني ؟! ألا تريد راحتي ؟

فأنا حقاً لا أريدك خارج حياتي، ولكن لا أستطيع أن نستمر كما نحن الآن، لم أكن ولن أكون لاعب احتياط أبداً ..

أتمنى أن أكون قربك دوماً، ولكن في هذه المرة على طريقتي ،أنا أحبك وأعرف مكانك عندي تماماً ، أما عن نفسي لديك فبتُّ لا أعرف شيئاً ..

سأكون في الجوار كعبق الياسمين ولكن كما قلت على طريقتي ، على طريقة الهدن العالمية ...

يا إلهي آلاف من الأفكار تجول و تنخر في كل زاوية من رأسي الصغير، تمنع الأوكسجين عن دماغي .

يجب أن أرتب أفكاري لننجز الفيلم ، قبل عامين قضينا أروع عيد ميلاد ، كانت السعادة تملأ قلبينا عندما حصد فيلمنا ((أجمل الأمهات)) جائزة أفضل فيلم وثائقي في مهرجان بيروت الدولي . عندما عرض بكى الحضور جميعاً وهم يصغون إلى أمهات الشهداء، ولكن هل تذكر كل هذا أم ؟ ...

***

عند عودتي إلى القدموس في نهاية الأسبوع ، جعلت الغاردينيا قضيتي وبات وجودها في البيت لازماً ، و لأنّ أمي تعنى بزراعة الأزهار والورود في محيط بيتنا ، طلبت منها أن تقوم بزراعة واحدة من أجلي ، وبدأت المحاولات ، وكان الفشل نصيب المحاولات كلها واحدة بعد الأخرى ، وعلى هذه الحال مضت ثلاث سنوات وأنا أنتظر يوماً أمتلك فيه شجيرة غاردينيا خاصة بي، وفي هذه السنوات الثلاث بقيتُ أسترق النظر إلى شجيرة جارنا، وفي كل سفرة أسرق ما لا بأس به من تلك الزهرة الحساسة المتطلبة، على أمل أن تتراجع عن رفضها وتمكث في حديقتنا...

مرت الأيام و أنا ما زلت سارقة صغيرة للغاردينيا ، حتى أتت أيام موحشة ، كادت تنسيني كل ما هو جميل ومحبب في حياتي ...

مرض أبي !!! نعم ، هو السرطان المتوحش ، وكان لا بد من إجراء عملية إسعافية للمعدة ، أجريت العملية ولم يتوقف انتشار الورم...

كيف لمرض أن يتجذّر هكذا ؟ ولزهرة ألا تنبت ...

وكعادة أهل القرى ، بدأ الناس بزيارة المريض، وكل واحد يحمل معه شيئاً ، ولم أكن أفهم تلك العادة جيداً وما زلت ، وبصرف النظر فلقد كانت في خضم تلك الفوضى والسواد مفتاح الحصول على الغاردينيا !!!

روعة ، إحدى زميلات والدي في العمل، تربطه بها صداقة قوية جداً، أتت لتزوره وتواسيه في مرضه ، أما هديتها فيا للعجب كانت شتلة غاردينيا صغيرة، ورغم صغرها كانت تبدو شقية، أحسست أني أستطيع أن أتجادل معها !!، ولا أعرف لماذا رغبت بذلك !

يومها قالت الخالة روعة لوالدي وهي تضحك " جئت لأزورك يا كسول ، ولكن الغاردينيا هي لأم سمير ، أنت ما دخلك " .

هذه المرة ومع همها الكبير لم تهتم أمي كثيراً ولم تنشغل باختيار مكان لزراعة هذه الزهرة الصعبة المنال ، اختارت زاوية صغيرة إلى جانب شجرة " الحمبلاس " وغرست فيها الشتلة بعدم اكتراث، وللصدق لم أتوقع أن تنمو رغم رغبتي الكبيرة بذلك...

مرّ أسبوعان ولم تمت الغرسة الصغيرة... ثلاثة أسابيع ... أربعة أسابيع ... نعم، نعم، لقد عانقت جذورها هذه المرة تربة حديقتنا ، يا للغرابة ! ، سبق أن أجريت بحثاً على الانترنت عن شروط زراعة الغاردينيا ، كانت أمي في كل مرة تختار مكاناً تتوافر فيه الشروط الاستثنائية من حرارة، ورطوبة ، وتربة وما إلى هنالك، ولم يفلح الأمر!

ما الجديد هذه المرة ؟!

لو أردت تفسير الأمر بشكل واقعي ، فلا بد أن الشروط هذه المرة اجتمعت مصادفة، أما التفسير الرومانسي فيقول: حتى النبات يحتاج إلى كثير من الحب لينمو ويقوى، لابد أن الحب الذي ربط بين والديّ أثار غريزة البقاء ، ونفخ الروح في جذور تلك الشتلة ..

العام الماضي كان العام الثاني من عمر شجيرتي الخاصة الجديدة ، كنت أنتظر كل ربيع أن تزهر، ولكنها مدللة جداً ولا تفيض بما لديها سريعاً، استغرق الأمر عامين لتظهر أخيراً في أعلاها ستة براعم تنطلق كالرماح إلى الحياة .

***

الساعة التاسعة و النصف ، دخلت مبنى الإذاعة والتلفزيون وكلي أمل أنك بانتظاري، وأعددت لي مفاجأة سارة في يوم عيد ميلادي. خاب ظني فأنت لم تصل بعد، نعم ... أعلم أن موعدنا في العاشرة ، كم تمنيت أن تصنع أي مفاجأة، ربما نسيتَ عيد ميلادي ، مثلما سبق أن نسيت ونسيت ...

دائماً تنسى صباحي ، ودائماً تهمل تفاصيلي ، أجد ألف عذر لهروبي من عينيك، ويزداد يقيني بأنك لن تحتضن أناي المتعبة بك يوماً ما ، ولن أكون سوى غيمة صيفية في حياتك تنثر على وجهك قليلاً من رذاذ الماء في صيفك الحار، لتنعشه قليلاً وترحل بعدها إلى أرضها لتبحث عن حقيقة

الوجود ، وتكتشف أنها كانت تحلق في سماء خيالية تستثير الإلهام وتتجب الأمل ولكن من دون أجنحة ، وستسقط يوماً ما لتتكسر أجنحة الأمل لديها وتصمت أبداً...

إن أبقيتُ على علاقتي بك سأعود إلى حال اختلال التوازن ، لأجن كلما انشغل خط هاتفك ، كلما أنهيتَ المكالمة لتكلم أخرى ، كلما اتصلتُ بك ولم تجب أو لم تحاول أن تعاود الاتصال ، وكثيراً من الأحيان تنسى أن تطمئن في حالات المرض أو السفر أو...، ولن أستوعب أو أعتاد تغير تصرفاتك اليومية معي ... كأن أصحو على صوتك كل يوم في السابعة صباحاً ، أحياناً كنت أرفض أن أنهض من السرير ولو تجاوزت الثامنة ولم تتصل ،كم كنت حمقاء!!!

يبدو أنك اعتدت نقص مناعتي لروحك، ولكن رغم حبي لا يلزمني نصف اهتمامك...

لا أستطيع العودة إلى الانشغال بمن أتى ومن ذهب وماذا حصل ؟ لن أستطيع تحمل أن تعطي الآخرين فرصة لإدخال هدف لدي ، و بأي ذنب وأنا لا أستحق ذلك وأنت الذي تسلل إلى عالمي، و كثيراً ما كنت أقول لنفسي لماذا أنا ؟!!، لست عاجزة عن الرد على الأهداف كلها وبشكل مضاعف .

لن أستطيع العودة إلى مجرد الشرود والهذيان، والى السوداوية و فقدان الشهية والوزن، وإلى ضعف التقدم والإنتاجية في حياتي الشخصية ، ولن أكون ثانية مصدر قلق أو حزن لأحد من أفراد عائلتي ولا سيما أمي .

و أرفض أن تكون الموضوع الوحيد الذي أفكر فيه على مدار الساعة، فحتى تفكيري التأملي والتجريدي تراجع جراء ذلك، لن أعود للاستنزاف...

يبدو أني كنت بدأت أفقد جزءاً كبيراً من ذاتي ، ولكن... لا لن يحصل هذا مجدداً ، فالحب بحسب قاموسي يكمل الآخر ولا ينتقص منه ...

***

عندما تفتحت تلك البراعم كان الأمر أشبه بفسحة نفسية في تلك الظروف الحالكة، دعتني إلى التفاؤل حينها ، أنا وأنت لم نكن قد التقينا بعد ، ولم تدخل بعد في تفاصيل حياتي لتصبح في النهاية أهم التفاصيل وأكثرها وضوحاً لدي.

في ذلك العام ، أزهرت شجيرتي وبشكل عجيب مرتين ! الأولى في نيسان والثانية في تشرين الأول ، وما أكثر المصادفات في قصتنا ، فهما شهرا ميلادنا...

في المرة الثانية كانت براعمها أكثر و نموها أعظم ، كما لو أنها تسابق في انتشارها انتشار السرطان في جسد أبي ، لتُعمل - على الأقل لدي- توازناً بين السواد والبياض، وبين الألم و الأمل...

مع إزهارها ثانية، كنتَ بدأت محاولات التسلل إلى قلبي ، وكنتُ في داخلي وفي عقلي أرفض مجرد التفكير بالموضوع ، وأرجو... لا بل صلَّيت أحياناً أن تكون تصرفاتك معي جزءاً من طبعك ،

ونوعاً من الود فحسب لصبية كنت تراها " مشرقة كالشمس وتشبه الذهب ، وتضع المستقبل نصب عينيها ، وتخطو نحوه بثقة ونهم "

في تلك الفترة، وفي صبيحة أحد الأيام جهزت نفسي للسفر إلى دمشق، وكنت أصاب بالأرق في كل ليلة سفر ، كان الابتعاد عن والديَّ صعباً ويحرق قلبي، وفي ليلة يوم الأحد كنت أتغازل مع زهرات الغاردينيا الجديدة ، وفي الوقت نفسه كان صدري يلتهب بموضوعنا ، صحيح أنك بدأت تعجبني ، وفي الأصل كنت أرى فيك رجلاً حقيقياً ذكياً و وسيماً، لكن كيف لي ألا أتورط معك؟

وحتى اليوم لا أدري لماذا قطفت يومها بعضاً من زهراتي الغالية لأصحبها معي إلى دمشق ، وأزين بجمالها و رائحتها طاولتك في غرفة المونتاج.

كانت زهرة الغاردينيا تشبه الأحداث التي تُطلق أعظم الثورات في العالم ، كانت الشعلة التي أوقدت نار علاقتنا ، وكم كان صعباً علي أن استوعب و أن أفسر بدئي لأول قصة حب في حياتي ، في الوقت الذي كان المرض يلتهم جسد أبي...

سألتني يومها مع قرصة خدٍ ناعمة عن اسم هذه الزهرة اللطيفة الحضور، أجبتكَ:الغاردينيا من عائلة الياسمين ، حساسة جداً ، وتحتاج إلى عناية خاصة.

وفي صباح اليوم التالي استيقظتُ في السادسة صباحاً و أنا أفكر بك لا إرادياً وعلى نحو مُلح ، كما لو أن هناك توارد خواطر بيننا ،فها هو هاتفي في تمام السادسة والنصف تصدر عنه نغمة الرسائل ، أذكر يومها أني خفت قليلاً وقلت في نفسي " خير إن شاء الله "، و إذ بعيني تقرأان أجمل ما قرأتا يوماً ...

" صباح بحر عينيك ، صباح قهوة شفتيك ، صباح عصفوريّ صدرك ، صباح غار جسدك ، صباح الياسمين والغاردينيا ... "

وبذا انطلقت رحلتي معك ، رحلة الحياة والموت ، الفرح و الألم ، الثقة والخيبة.......

***

حدثني كيف صار لعينيك بريق اللؤلؤ عندما رأيتني؟ وكيف كتب عليك أن تغتال أفقي ؟ ولماذا هذا الفيض كله بعواطف ليس غريباً عليها ارتشاف العسل من أعماق نساء كثيرات؟ أسئلة في صفحة بيضاء تسألك أن تريح علامات الاستفهام والتعجب التي تشتاق نقطتين منك ...

ما الحل يا الله؟

خطر ببالي مرة أن الحل يكمن في الموت !!

فقد أتخلص منك للأبد ، وبدأتُ - أنا فراشة الربيع مرفوعة الجبين كالشمس دائمة الابتسام والتفاؤل - أكره الوجود وأكره طلوع الفجر وبدء نهار مقزز جديد ... و كل شيء أحبه فقد جماله وزهوته، أحببت الموت حينذاك ... وأحببت قذائف الهاون !!!

لكن ما ذنب من حولي ومن يضعون آمالهم علي ، وينظرون إلي بوصفي مصدر بهجة لحياتهم ومبعثاً لإلهامهم ؟

لماذا سأخذل الجميع وأنت الوحيد الذي خذلني ؟

أكان الأمر يستحق تلك الفوضى كلها ؟!!

كان يجب أن تفكر أكثر وتمعن النظر في قرارك مئة مرة قبل أن تقدم على اجتياحي ثم بعثرتي...

ما زلت لا أفهم ، أعتقد أنك تهوى الاستفزاز ، لا أدري ما الذي يصلك منه ...

ستضحك إن قلت لك: إنني بدأت أحياناً أشك بأنك تجري بحثاً نفسياً عن مخرجات الاستفزاز، وليس أي استفزاز - استفزاز العاشقات والحالمات - ... وعلى سبيل الدعابة أيضاً سأقول لك: انتبه ... ليس كل مرة تسلم الجرة .

أذكر ذات مرّة استطعتُ الهروب بعيداً في طريق اللاعودة ، ولكن ما العذر أمام الآخرين؟ وما الحجة الواهية ؟

فكل من يعرفك جيداً وكل من ينظر إلى عيني عند ذكر اسمك سيدرك سريعاً كذبي، ويعرف سريَّ الصغير ، ودافعي للهرب مع أني لم أعتده في حياتي...

أعود إلى التشويش والضياع الذي يخصني ، فأنا لن أرتاح ، وأنت لن تتغير!! ما الحل ؟ مااااا... الحل ؟؟؟ ما بين الحب و الشك والخذلان والكره والخيبة والفراق ... ؟؟؟؟

أرأيت؟ يبدو أن صداقتنا ستكون المنفذ الحقيقي ... أرجوك كن صديقي .. صديقي فحسب، سأعتاد صداقتك ، سأغدو كطائر الفينيق يبسط أجنحة من نار ويحلق حراً ، عندها فقط سأبقى أنا التي عرفتها من دون فقدان أي ميزات أو صفات تخصني... أنا التي طلبت مني يوماً أن أبقى عليها...

***

كانت لحظة ! توقف عندها الزمن ، وتجمد المكان لبرهة ...

المصادفة أوقعت نظرتي عليها بشكلٍ مباشرٍ ، كما لو أني اخترقتها واخترقتني، وتلاشى كل شيء في المحيط ..

كعادتها هي بيضاءُ كالثلج ، شامخةُ ، رقيقةٌ ، وحيدةٌ مثلي ، راقية كنظراتي إليك ...

كانت هناك هادئة كالصمت تسبق موعدها ، أتراها أحسَّت بحاجتي وغربتي ، وأتت لتسرقني منك ، من حبك و ألمك ، من حسرتي ... ؟؟

نعم ، رغم أن وجودها هناك وحيدةً ، مبكرةً لم يلحظه أحد ، إلا أنه حدثٌ جللُ لي، كم أحبها ، كم تشبهني ، كم تذكرني بك .. وتجعل دمشق تعيش بداخلي...

هي شاهد سلامٍ على بداية شغفنا وحبنا ، على ولادة النور في أعيننا...

أكاد لا أصدق أني كدتُ في يومٍ من الأيام أحبكَ أكثر منها ، وأكاد لا أصدق أني خنتها ذات يومٍ وقطفت كثيرها لأجلك ، لأجل عينيك ، لأجل أن أراني فيهما ...

توحدت دمعتي آنذاك بقطرة الندى فوق إحدى وجناتها ، اهتزت قليلاً بلطفٍ كما لو أنها تلقي التحية وتكاد تنطق لتقول : صحيح ، أنا هنا لأجلك ...

في الوقت نفسه تزوبع في صدري حزن جديد آخر ...

كم كان محزناً مجيء الياسمين وأنت هناك ... هناك... ، أنت القريب البعيد ، تملأُ عيني وتعتصرُ خافقي ، ولا نثرثر عن ياسميننا .

خطر لي أنه لا بد من أن أقول لك :

بأن لك فضلاً وحيداً على الياسمين، فمنذ أن عرفتك لم يعد الياسمين ضعيفاً ، لم يعد عمره قصيراً ، وبات يُزهر العام كله، وفي كل يوم يمرُّ و أنا أحبك ، و أنت أمامي...

اخترق خلوتي معك و مع ياسمينتي صوتُ سيارة مسرعة عابرة أنذرني بتأخري عن عملي، استعدتُ توازن مشاعري ، نظرتُ إليها من جديد ، قبلتها بعيني ، وسرتُ بعيداً ، وهذه المرة لم أقطفها من أجلك .

وكم تمنيت أن أجدها في صباح اليوم التالي ، لكني كنت على يقين بأن أحد المحبين العابرين قد يرتكب إثمي ويقطفها لمن يُحب ، مدفوعاً بشغفه ولهفته ... ، في هذه الحال لم يكن لي سوى التمني أن يكون من يُنتزع من أجله ياسميني الصغير جديراً به، مُقدّراً تفضيل حبه على عشق الياسمين ...

ابتسمتُ ابتسامةً عريضةً ملؤها الأمل وبعينين مشرقتين مضيت ...

فلن يمنع قدوم الياسمين شيء ، سيُزهر دائماً في روحي وعلى أطراف شجيراته، وسيكون كعادته ذبيحةَ جنون الحب والمحبين وقربانَه..

لكنَّ نذوري للياسمين ستكون من الآن أن أبقى أعشقه ، وأعشقه أكثر من كل شيء، فأنا مقبلةٌ على زمن التعبُّد ، " زمن الياسمين " .

وستتناثران أبداً في ثنايا ذاكرتي ألماً ، فرحاً ، اشتياقاً ، وحسرة ...

***

الساعة العاشرة إلا ربع وعيناي تبحثان عنك و تترقبان لحظة دخولك القسم ، وآلاف الأناشيد و الأصوات في روحي تناديك..

أعرف أنك تسمع الصمت، وأعرف أنك رجل الياسمين، لكن لم أكن أعرف أنك تجيد انتزاع الروح من أعماق الروح، معذرة منك فأنا فتاة متعبة ، وأخاف الإبحار في السفن القديمة لأنها لن ترسو في ميناء صغير مثل مينائي التائه ، رفقاً بقلب أعياه اجترار الأمل.

أرجو أن تتفهم كل ما أشعر وأمر به ...

أنا الآن في فترة نقاهة منك ، ألملم شتاتي ، وقد نجحت في جمع معظمه ، لماذا تريد أن تعيدني إلى الوراء؟! هل تهوى الألم و العذاب؟ هل ينشيك عذابي وانكساري ؟

سامحني هذه المرة وساعدني، مد يديك هذه المرة لتعانقني ببراءة ... لا لننتشي ...

كما قلت لك من قبل... أرجوك كن صديقي ، لماذا لا تتفهم أن استمرارنا بالطريقة التي تريدها يتخطى استطاعتي، سأكون عندها في قمة الغباء ، وفي الحالات كلها ليس هناك أي احتمال مما سبق يليق بي ، وبما أحس ، وبمن أكون ... لا سيما أن ما أشعر به عندما أحبك جزءٌ من الصلاة...

قد يقبل غيري أن يكذب على نفسه، ويرغم ذاته على تصديق الكثير من الكذب والخدع والأوهام التي يختلقها بنفسه ليستمر في علاقة معينة أو مجال معين ،أو قد يكون بلغ من اليأس الحضيض.

أما أنا فلا لا أستطيع ، فعلتها لفترةٍ ودمرتُ بذلك كل شيء جميل بداخلي ، والآن صحوت .. صحوت بقسوة و إلى الأبد ...

لماذا لا تحاول تخيل صداقتنا ؟ صدقني أرغب بذلك أكثر مما تستطيع أن تتخيل أو تتصور ...

حاول ، ستجدها ممتعة جداً ، شغوفة جداً ، سنشكل ثنائياً متصادقاً استثنائياً ، سينتج الكثير الكثير ، سيغير نظرة العالم لعلاقة الأنثى والرجل ..

صدقني يا حبيبي واسمح لي للمرة الأخيرة أن أقولها لك " بحبك " إي إي بحبك ... ولذا يجب أن تنجح علاقتنا الجديدة ، لا أريد لصورتك المُطَّيبة في ذاكرتي وخيالي أن تخدش أو تتشوه أو تتغير ، بل أن تبقى مثل أيقونة ، و أنت تعلم أن لدي القدرة لأغيب و أهرب تاركة كل شيء ببساطة ، قد لا يعنيك هذا كثيراً ، ولكن يكفي أن تعلم أنه يعنيني على الأقل لأني حريصة على ما سيكون عليه نتاج ذكرياتي ومخزون صوري الذي سيرافقني مشوار حياتي كله...

***

وصلت إلى المكتب ، وأنا ألقي سلام الصباح على زملائي شعرت بأن الجميع ينظر في عيني بغرابة ، بعضهم تحمل نظراته الحسد ، وبعض آخر تحمل تساؤلات كثيرة، وبعض قليل فرحٌ لأنه لم يشاهدني منذ فترة بهذه الحيوية ، كنتُ أنضح بالأمل والحياة واللهفة ..

وكعادتي لي محطة صباحية مع فيروز و فنجان قهوتي، يومها كان صوت فيروز سحرياً أكثر وهي تغني " يسعد صباحك يا حلو ...."

أرجعتني كلمات الأغنية إلى يومٍ أسمعتك إياها على الهاتف كالمراهقين، في اليوم نفسه التقينا ، وكان على طاولتك بعض من الياسمين الذي كنتُ أجمعه لك يومياً ، صدقني احمرت وجنتاي، والتهمت النار وجهي وأنا أتذكر و أعيش ما حصل في تلك اللحظة ..

لقد اخترتَ ياسمينتين اثنتين ، وزرعتهما في صدري ، وأنت تراقب اتساع عيني دهشةً ، وفرحاً ، شغفاً و شوقاً ...

زرعتَ اثنتين ، فأورقتا آلافاً لا بل ملايين على كامل جسدي ، كنتُ يومها آلهة الياسمين .. و أنت كعادتك فارسٌ دمشقيٌ ، يكملني ...

لا زلت أرتجف ، ويستمر تداعي اللحظات إلى ذاكرتي كما لو أنها حاضرة بذاتها..

بحرٌ من الياسمين غطى جسدي يومها ، وأذكر جيداً تماوجك باحترافٍ مع بحري هذا ، ففي كل عناق وكل همسة أبحرنا آلاف الأميال ، ومع كل قبلة أنجبنا ياسميناً أكثر، وأنضجنا وريقاته أكثر و أكثر ، ومنذ ذلك الحين نثرثر أنا والياسمين عنك بصمت.........

أذكر يومها عدد قبلاتك... فقد فاقت عدد شامات جسدي ، جعلتني أحبها أكثر ، حدّ أني أسميت أحلاها وأكبرها على اسمك ، كانت تتربع على ساعدي الأيمن ، وكلما اشتقتك نظرتُ إليها ، لتزيدني لهباً واشتياقاً ....

وأجمل من هذا كله كان عندما وجدتُ بعضاً من شعيراتك عالقة على جسدي ، يومها : قبلتها .. طيبتها .. و أوقدتها بخوراً...

" ومشوار رافقتو أنا مشوار ..... " كانت كلمات الأغنية التالية لفيروز ، كما لو أنه يوم المسرات المتتالية !!! ، جنونٌ ما حل بي ، توجهت نحو غرفة المراسلين المناوبين التي غالبا ما تكون فارغة في مثل هذا الوقت، أغلقت الباب، لا أريد أي شيء يفسد اللحظة التي تضج بها ذاكرتي، تمددت على الأرض باسطة يدي كمن يستقبل الحبيب ، كما لو أني في أوسع حقول العالم ، ورغم اتساعه لم يكن يتسع لي ، ولفيض مشاعري و أفكاري وحناني ...

مرة واحدة هي التي شعرت فيها بمثل هذا الشعور، كانت يوم سافرنا في إحدى العطلات كلٌ في اتجاه ، أنا إلى بيروت ، أما أنت فإلى اللاذقية، ويبدو أنه كان يوم مسراتٍ أيضاً ، فحينها كان القدر صديقي وعاد ليجمعنا ،إذ شاء أن تمر بالقدموس....

توقف قلبي للحظات و أنا أقرأ ما أرسلته على هاتفي المحمول ، سأنعش ذاكرتك وأحاسيسي به :

" كان مروراً سريعا ومباغتا، ولكنه كان كافيا كي يسقط قلبي وأدخل في عبادك الصالحين وغير الصالحين، و كل الدلائل تشير إلى أن الآلهة مرت بالقدموس، وليس أمامي إلا التعبد صالحا كي أدخل جنتك، وإني بك لمن المؤمنين، سبحانك يا أروع المحبين، صدقت عيناك الرائعتان ... "

آآآآآه لو أستطيع وصف ما شعرت به ، وكيف اجتاحتني ملايين الأحاسيس ، شعرتُ أني أدور في فلكٍ من دون أن أستطيع التوقف...

أتصدق ؟ أذكر تلك اللحظات كأنها حلم من الجنة ، كيف تناولت هاتفي ؟ وكيف كتبتُ ما كتبت ؟ كلها لحظات ، حفظتُ في رأسي ما ردَّت به روحي يومها :

" في مجيئي إلى بيروت شعرت طوال الوقت بأن شيئاً ينقصني ، شيئاً يترك فجوة في صدري، أيقنت أن جزءاً مني بقي في دمشق ، أيقنت يا دمشق أني لن أستطيع أن أتنفس إلا هواكِ ، اشتقت إلى صباحك وقهوتك ، مسمعي يفتقد صوتك ، أفتقد صلاتك وصيامك وعناقك ، أيقنت أنكِ سلبتِ

القلب يا دمشق وغدا صرحاً خالداً فيك، هل عرفتَ من هي دمشق؟ بالأمس امتزجت دمشق بالقدموس ، واكتملت مراسم تنصيب الآلهة فيها..."

لحظتها ، اكتمل العالم ، وصدحت موسيقى أبواق النصر في كل مكان ، وتساقط الياسمين كهدايا سماوية على كل الوجود...

***

الساعة العاشرة وأنت لم تحضر ، بلغت لحظات الترقب و القلق لدي ذروتها ، حاولت إشغال تفكيري عنك بممارسة أي عمل ولكن من دون جدوى...

أكره أن أشبهك بالاحتلال ،إلا أن الحقيقة تقول: إنك تحتلني كلياً..

تحتلني كمدٍّ يطوف في الأراضي وليس له جذرٌ

تجتاحني كطوفانٍ بعد صلاة استسقاءٍ طويلة

كنسمة هواء ربيعية لا تقوم أمامها قائمة لقواي

تنتشر في شراييني وعروقي ... تتوغل في أنفاسي

تتحول إلى إدمانٍ ... تُكمِّل أجزائي

بعد ذلك كله لا تلمني إن وصفتك بالاحتلال

نعم ، أنت احتلالٌ فريد ، احتلال جديد

لأنك احتلال من دون مقاومة ...

هل جربت السير يوماً في شارعٍ مزدحم وأنت مغمض العينين ...

ذات يوم أغمضتهما ومشيت... مشيت بين الناس من دون أن أخاف الاصطدام بشيء... ورياح خفيفة عليلة تتغلغل تحت قميصي ، تعيد شعري إلى الوراء بعذوبة يديك عندما تفعلان ذلك ، مع أني لا أحب المطر إلا أنها المرة الأولى التي رغبت فيها أن تمطر... تمطر وبغزارة لأتعرى تدريجياً ، و أرقص بجنون وأنا أقاوم الهواء تحت المطر ...

أحببتك يومها ، أحببت الحياة و كل الناس... و كل ما حولي من أشخاص وموجودات و أشياء تطير، التهمتُ الدنيا بعيني، شعرت يومها أن بمقدوري أن أحلق ... أن ألمس السماء وأعانق الغيوم ... أن أعدّ قطرات المطر وما في الشجيرات من ياسمين ... قبلتها واحدة واحدة ...

عندما قلت لي أحبك ... تكلم الورد ، وأزهر اللوز، واتسع الكون ، وأصبح القمر أقرب ، وتبسم النسيم الذي يداعب شعري ، فصرت أحس به أكثر وأتلاشى رويداً رويداً لأحضن السماء ، وأكلم الله خاشعة لأقول له أحبه يا الله كثيراً فزده من وحيك، ولا تخذلني به ...



أترى ؟؟

رافقنا الياسمين طويلاً ، كان الصاحب الأمين ، والشاهد دائم الحضور ، حتى في أحلامي عنك كان حاضراً ، أحلامي الكثيرة التي امتلأت بك كخليط من الألوان، وتحدثت عنّا ، يحضرُ في ذاكرتي أميزها ، فقد كان حلماً بسيطاً ، كانت ذراعك تلفني بحنو وهدوء يشبه هدوء الصمت، وأقدامنا تسير وتكاد تتعانق على طرقات من الياسمين لا تنتهي ، تشبه إلى حد كبير حارات دمشق العتيقة، ورأسي متكئٌ باطمئنان الطفل وسكون الليل على كتفك الأيمن، وأمامنا حيّزٌ تتآكله أعيننا... كم تمنيت ألاّ أستيقظ...

ما أجمل ما حدث حينها ، خطوات قدميك المميزة تسرقني من انخطائي في الجميل ، نعم ، حان وقت العمل ، حان وقت العودة إلى الواقع ، وأنت تحتجب بين زهر اللوز المتشبّه بالياسمين ..

كنت أتمنى لو أستطيع هذا الموسم أن أقول للياسمين :

يا ياسمين خيّم بعبقك علينا ، أغدق بطهرك على نظراتنا ، أشبع هوانا، قدِّس مداعباتنا ، وطِر بنا بعيداً في فضاء كون لا يزول ، تكون أنت رداءنا ، ورحيق قبلاتنا غذائنا ، طِر بنا إلى عالمٍ غير مرئي ، لنحرس خفية حبَّ كل اثنين تشهدُ على عشقهما شهادة أبدية ....



الساعة العاشرة و الربع وأنت لم تحضر ... لم تنس عيد ميلادي فقط ، ربما نسيت حتى موعدنا ، نسيت حتى وجودي و الفيلم الذي سننجزه، أي منهن أنستك هذا اليوم؟!!! قلت لك ذات يوم منذ فترة قريبة ... ما حدث ليس المرة الأولى ولن يكون الأخيرة.

وكلما أتذكر ما حدث ، والمواقف القاسية التي وضعتني بها ، ومع عودة علاقتنا أزداد خوفاً منك ، أزداد خوفاً من ردة فعلي عند حدوث الخيبة القادمة ، صحيح أني متزنة في العادة أدرس وأراقب ردات فعلي قبل حدوثها ، ولكني هذه المرة لست واثقة ..، فنفسيتي باتت هشة.

أخشى حدوث أحد أمرين ، فإما أن أنهار وأفقد ذاتي للأبد ، وإما أن أثور أخيراً بطريقة لا تتوقعها ، ففيما مضى كانت قمة ثورتي أن نقطع علاقتنا ونحافظ على صداقتنا ، أما الآن فلا أستطيع توقع شكل ثورتي ، أشعر أنها ستكون كثورة بحر ضاق بما في جوفه من ماء متزايد ، فهاج ومدّه ليغرق الأراضي التي رفضته ... كثورة أرض شربت في باطنها مجبرة ماءً كثيراً حتى ضاقت به...

لطالما شعرت أنني فتاة قوية إلى حدٍ ما في الحياة ، تعرف ما تريد ، وتستطيع أن تحل ما يعترضها من مشاكل وصعوبات مهما كان نوعها . ودائماً أتخيل نفسي في الحياة كصبي صغير مشاغب ، يضع في عينيه حلمه فقط ويسعى وراءه ، وإن كبله أحد أو حاول منعه بدأ بالصراخ و المقاومة و الركل في كل الاتجاهات.

أما معك ، ومع حبي لك ، فللأسف أنا ضعيفة وخجولة ، أعيش معك اللحظة ، أما عن باقي العمر فلا أعرف...

صـمدت مـرات عـدة ، ولكـن قـوتي في عمقهـا لم تكـن كافيـة ، لـذا كنـت أطلـب إليـك مساعدتي لنبقى أصدقاء ، مساعدتي لأبقى على علاقتي مع جزئك الطيب الحنون، فأنت شخص كثير التضاد ، تجرح وتداوي ، تقمع وتمنح الحرية ، قاسٍ وحنون، حزين وفرح ، مهموم ومتفائل ...

ولأني أعرف في صميمي أنك لن تتغير ، وأني لن أتغير ، وأني لا استطيع إجبارك على أن تتغير ، قلت لنفسي : " المشكلة ليست فيكِ ، فأنت لن تستطيعي إجباره على شيء ، وهو لن يتراجع عن بقية علاقاته ، ولكنك تملكين التحكم بخياراتك ، ولكل خيار ألمه الخاص إلاّ أنه عليك أن تختاري الحل و القرار الأقل عذاباً ، حسناً، سأختنق بدونك ، وستبرحني ذكرياتك ، إلا أن صداقتي مع جزئك الظريف الطيب ستعيد توازني شيئاً فشيئاً".

كنت أتصور أحياناً - وقد أكون قد قسوت في تحليلي - أن هناك من خذلك في الحياة بقوة ، وقد تكون هي الحياة نفسها ، وأنت الآن وبعد تسلل السواد إلى بعضك تريد ردَّ الخذلان دفعة واحدة، وبدأت تسقطه على بعض علاقاتك ، لدرجة أنك صرت تهوى ردود الأفعال ، تهوى التنبؤ بها ، و الرهان عليها مع نفسك ، وعلي أن أعترف بذكائك لمجرد قدرتك المدهشة على أن تجعل من نفسك هدفاً ومصب تركيز لحوح في حياة كل فتاة تدخل حياتها ، لتجعلها شيئاً فشيئاً تهوى امتلاكك فحسب، لتتسف منطقها وتجعلها تكره الأخريات ، وبدل أن تعاديك وتخرجك من حياتها ، تتعلق أكثر وتقاتل من أجل التفرد فيك لتعود وتخذلها ...، من الجيد هنا أنه تبقى لدي بعض المنطق لأتجنب ضَمْرَ الحقد و الكره لأي واحدة أخرى ، لطالما قلت في نفسي قد تكون مثلي ، أحبتك فحسب ، وأيضاً سأتجنب أن أكرهك ، سأتجنب أن تنقل لي العدوى ...

صحيح أن بعض السواد تسلل إلى قلبك ، وذلك أمر وارد الحدوث مع صعاب الحياة وتجاربها القاسية ، إلا أنني أستطيع أن أرى فيك من الطيبة و الطفولة ما لا يستطيعه أحد آخر ، كم تمنيت في كثير من الأحيان لو أستطيع أن أصور خليط الانفعالات والعواطف ، ودفق الحنان و العذوبة و الفرح الذي تفيض به عيناك عندما تكلم طفلاً، أو عندما تساعد محتاجاً وتصنع خيراً ، أو في اللحظات التي تحبني فيها بحق...

أتصدق أني أشعر بحبك أكثر عندما نأخذ شكل الأصدقاء ؟! ، فهنا ابتسامتك أصدق، ونظراتك أصدق ، وكلماتك أصدق ، وحتى صوت ضحكتك أكثر صدقاً . عندما تكون صديقاً أستمتع بك أكثر ، يظهر جانبك اللذيذ ، جانبك الصافي الذي لم يتسلل إليه السواد ، في هذه الحال لا أعود أخشى شيئاً وهو ما أريد أن تكون علاقتي به، أما في حالة الحب فأنت غامض وغير متوقع ، كبحر جديد لا تعلم متى يفاجئك بشطٍ جميل بهي ، ومتى يُغرقك بطوفان بلا رحمة.

أتذكر مرات لم ترحمني بها ولم تشفق على روحي ، وعندما أتذكرها ! أشعر أني اختنقت بكرة من الألم ، ابتلعتها فاستقرت في حنجرتي لتخنق صوتي وتُصمت إحساسي ، وتُذبل قلبي وتقتل حيويتي إلى الأبد ...

***

الساعة العاشرة والنصف ... هاتفي يطلق رنينه معلناً وصول مكالمة منك .

تمتمت: أخيراً ... الحمد لله على السلامة.

سألت نفسي : هل أجيب ... أم أتجاهل الاتصال؟

ولم أنتظر ، فتحت الهاتف

- آلو ... آلو ...
- آلو .. حضرتك الآنسة يارا؟
- نعم ...نعم ، ومن حضرتك ؟!
- مرحبا أختي ... أنا أبو رياض صاحب محل ((غاردينيا روز)) لبيع الورود مقابل حديقة الجاحظ.
- هذا هاتف مازن !... أين مازن؟!
- صلي على النبي يا أختي ... حضر صاحب الهاتف إلى محلي منذ يومين، وأوصى على باقة غاردينيا وطوق ياسمين.
- أين مازن؟!!!
- لا أدري ماذا أقول لك يا آنسة ... ألم تسمعي الأخبار؟!
- أي أخبار ؟! أين مازن ؟!
- منذ نصف ساعة سقطت ثلاث قذائف هاون بالقرب من حديقة الجاحظ.
- قل لي ... مازن بخير ؟ ... مازن بخير ؟
- أخذ باقة الغاردينيا وطوق الياسمين، وبعد دقيقة من مغادرته المحل سقطت القذائف ، أصابته بعض شظاياها...
- أين مازن الآن ؟ ... هل هو بخير؟...
- أخذوا الجميع إلى مشفى المواساة ، أعتقد أنه هناك...
- طمئني ... ماذا أصابه ؟ هل شاهدته عندما أسعفوه؟...
- ادعي له ... ادعي الله لينجيه ، كان فاقد الوعي ،وعلى بعد أمتار عثرنا على هاتفه، وأزهار الغاردينيا وطوق الياسمين التي تناثرت بالقرب منه وقد اصطبغت بلون الدم الذي ينزف من خاصرته . والبطاقة الموضوعة ضمن الباقة ، والتي كتب فيها بخط يده :

((حبيبتي يارا ... أنت الاكسجين الذي أتنفسه ادخلي
إلى قلبي لتكمل حياتي دورتها الطبيعية كل عام و أنت
أيقونة الحياة

مازن))

- .....

- آلو ...آلو ... آنسة يارا ... أتسمعينني؟...

انطلقت خارج مبنى الإذاعة و التلفزيون ، آلاف الأفكار تتصارع في رأسي، ويجول في خاطري شتات صور تبعثرت في ذاكرتي ، كأني في بحر هائج تتلاطم بي الأمواج فلا أشعر بجسدي ، وكأني سفينة تكسرت أشرعتها...

سيارات الأجرة اختفت من ساحة الأمويين، ركضت في اتوستراد المزة ريثما أستطيع العثور على سيارة أجرة ، أحسست بحاجة إلى الله كثيراً في تلك اللحظات...

شوارع دمشق متعبة وحزينة وتائهة ، تبحث عن بعضها، تبحث عن خطوات أحبتها ، وتحاول تضميد إصابات جرحاها ، ودفن شهدائها ...

مازن أين أنت ؟ أين تنفس الماء فيك ؟ أين روحي التي تنفست فيك ؟ أعطني المزيد من روحك، فأنت من يمدني بالحياة، وأنت من ينسج روحي ، فقط دعني أتنفسك قليلاً ...

مازن... هل لعينيك أن تغفو بعيداً عن عبق وظلال الياسمين و الغاردينيا ؟! كيف للياسمين والغاردينيا أن يعيشا من دونك ؟! وأنت رائحة الفجر ... و قطرات الندى يغتسلان بها كل صباح ...

إذا كنت على قيد الحياة ... كلمني

وإن لم تكن – أيضاً – كلمني !

فأنت حبيبي ... أنت الحياة ...

مازززززن ... لا أريد من قلبك سوى الخفقان ...

❑❑

متاهـــة أمـــيرة الأخيرة ..

❑ فوزات رزق

ستقولون سلفاً إنها توليفة من تلك التي يبتدعها كتاب القصص والروايات.

ليس؛ بإمكانكم أن تقولوا ما تشاؤون. المهم في الأمر أن أميرة التي كنت قد حدثتكم عنها طويلاً قد ماتت. أجل! ماتت أميرة كما يموت الكثيرون من خلق الله. وقد تركت لي قبل موتها هذه الرسالة التي سأنقلها لحضراتكم كما هي تماماً، لن أزيد حرفاً واحداً، ولن أنقص حرفاً.

قالت أميرة:

وداعاً يا منصور! إني راحلة. لا تظن أنني أقدمت على ذلك مختارة، فالحياة جميلة على الرغم من كل شيء كما كنت تقول لي دائماً، لكن ما حدث كان فوق التصور، وفوق الاحتمال، أتدري؟! أنا نفسي ما كنت أصدق في لحظة من اللحظات أنني سأصل إلى هذه النتيجة البائسة والمفجعة. ستقول مجنونة... متسرعة... جبانة. قل ما تشاء؛ لو كنت مكاني لفعلت مثلما سأفعل. ولكن كيف ستكون مكاني؟!. هذا مستحيل، فأنت كاتب... روائي ما شاء الله، وأنا بالكاد أستطيع أن أقرأ بعض أعمالك.

أتذكر يوم بدأت معي؟ أنت كنت يومها طالباً في دار المعلمين، وأنا يا حسرة! مجرد بنت أخرجوها من المدرسة قبل أن تتقن فك الحرف. لماذا؟! كي تعتني بقطيع الأولاد بعد رحيل أمها. لا أريد أن أفتح جرح الماضي، فقط أريد أن أذكرك بفضلك علي.

حينما رأيتني منهمكة بغسل الثياب قلت لي:

ـ لماذا لا تتابعي دراستك يا أميرة؟

"أتابع دراستي؟! كيف؟! وهؤلاء من يغسل لهم؟ من يطبخ لهم؟ من يحمل همهم؟!."

لكنك ألححت، لا أدري لماذا، ماذا كنت تقصد؟ وحين خطر لي أنك... ضحكت. لم يبق أمامك إلا أميرة؟ والبنات حولك أكثر من الهم على القلب؛ متعلمات ومثقفات.

أنا شخصياً لم أصدق أنني بهذه السرعة استطعت أن أقطع مرحلة مهمة على يديك. هل كان ذلك بفضل ذكائي أم بفضل طريقتك في تعليمي؟! لا أدري. أنت من جانبك كنت تمتدح ذكائي. هل كان ذلك حقيقة أم بدافع التشجيع؟ أم بدافع آخر؟ لم أكن متيقنة من ذلك.

هكذا أخذت أنمو على يديك مثلما ينمو الحبق في الأحواض. ما كنت أطمع في أكثر من تلك الجرعات التي كنت أتناولها كل أسبوع، وأنا أعرف حدودي جيداً، لا أريد أكثر من أن أقرأ رواياتك، وأن أراك سعيداً ولك زوجة وأولاد. لا تظن أن قلبي كان خالياً، لقد كان ممتلئاً بك، يغني لك، يشتعل كلما رأيتك تقف أمامي بهندامك وأناقتك. ولكن أنت شيء، وأنا شيء آخر.

كنت قد انتهيت من قراءة آخر رواية من رواياتك حينما حدث ما حدث، وقد ظننت حينها أن ذلك من تأثير أحداث الرواية، كنت تتحدث فيها عن رجال أشداء طوال بطول العماليق، يقتحمون البيوت ليلاً، يفتشون عن أشياء غامضة، لا أحد يستطيع أن يسألهم، أو أن يقف في طريقهم، أو يغلق الباب في وجوههم، يدخلون لا سلام ولا كلام، يقلبون البيت عاليه أسفله، وعندما لا يجدون ما يبحثون عنه يخرجون مثلما دخلوا، وإذا سألهم أحد عم تبحثون، قذفه كبيرهم بظاهر يده، وإذا حاول الاعتراض تولاه الآخرون بأحذيتهم العريضة حتى يغدو الكثيف لديه كالزيت.

كنت في عز النوم حينما أيقظني شاب طويل طول الرمح، يرتدي بذلة مبرقعة جلد النمر، ويزين صدره بالنياشين، يطفح بالحيوية، كأن مئات النمال تتحرك تحت جلده. أمسكني من يدي وهزني:

ـ أميرة! يا أميرة! اصحي! اصحي

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، من؟! إنس أم جن؟! من أنت؟!

ـ تقولين من أنا يا أميرة؟! أنا الذي...

وصار يتحدث ويتحدث. تقول يا منصور إنه يعرفني من مئة سنة أو أكثر:

"سأنقذك من هذا الفقر، سأبني لك قصراً ولا قصور الملوك. سأجللك بالديباج والحرير، سأطعمك بصحاف وملاعق من ذهب، سا ... سا.

صدقني أنني لم أكن أحلم ليلتها إلا بك، كيف صدقته؟ غبية، ماذا أقول أكثر من ذلك. انتابني ما يشبه الذهول، وهو مسترسل في وعوده وعروضه السخية. لم أدر كيف سقط في فراشي وفعل ما فعل. نسيتك ولم أعد أذكرك، كأنك لم تكن يوماً ذلك الرجل الذي انتشلني من الظلام إلى نور الحقيقة. وحينما صحوت في الصباح الباكر وجدت فراشي بارداً.. بارداً كما الثلج، فاستغفرت الله العظيم من كل ذنب عظيم.

في الليلة التالية جاء، على الموعد نفسه، كأنه موعد عسكر، شاب طويل أطول من الأول، أنا لا أعرف بالرتب، لكن نجوماً ونسوراً وسيوفاً كانت تلمع على كتفيه أكثر بكثير مما رأيت على كتفي الأول. وكلاماً سال على لسانه كالشهد. ووجدتني أسأل:

- البارحة في الليل...

- لا تصدقيه، كذاب، يريد أن يقضي منك وطراً.

الحقيقة سحرني، لم أعرف كيف سأحتفي به، ووسط دهشتي اندس في فراشي، وفعل ما فعل، وحينما نهضت في الصباح وجدت فراشي أكثر برودة.

وتكرر الحلم - كل ليلة يأتون، بنياشينهم ونسورهم وسيوفهم التي على أكتافهم، يتحدثون ويبذلون، يالله ما أسخاهم! وأنا لا حيلة لي، كل ذنبي أنني جميلة على حد زعمهم.

ليس - انقطعت الأحلام فجأة، وكما يقولون: "راحت السكرة وجاءت الفكرة". بدأ يتحرك شيء ما في أحشائي، ثم أخذ بطني يكبر... يكبر. يا إلهي! أقسم لك لم أرتكب خطيئة في حياتي، معقول؟! أنت لن تصدقني، كما لن يصدقني أحد، ماذا ستفعل لو كنت مكاني. أكرر كيف ستكون مكاني وأنا أميرة؟! وليس لي من الإمارة إلا الاسم.

هل سترحم علي؟ أم تراك سترجمني على فعل لم أقترفه؟ تصرف كما يحلو لك.

أميرة

سخر مني حارس المقبرة حينما سألته عن قبرها:

- هل أنت مجنون؟! أميرة لم تمت.

أخرجت الرسالة، أريد أن أؤكد له موتها، فإذا الرسالة بيضاء... بيضاء كما الثلج

❑❑

القصة ..

رحلة يومية ..

□ د. علي عفيفي علي غازي*

انتبه (نجدي) من نومه على صوت اصطدام قطرات المياه المتساقطة من سقف الغرفة على قاع الإناء الذي وضعه ليتلقفها، والذي يعزف لحناً حزيناً منتظماً تك.. تك.. تك. وانقلب على جانبه الأيمن وهو يهمس لنفسه: لقد عادت الأمطار تهطل بغزارة مرة أخرى لدرجة أنها ملأت الشق الموجود في سقف الغرفة، وتسربت منه إلى القاع؛ فالأمطار غزيرة هذا العام بدرجة لم نعتدها من قبل، وازداد قلقه من أن تؤدي غزارة المطر إلى توسعة الشق الموجود، مما قد يتسبب في انهيار المنزل الذي لا يملك مأوىً له ولأولاده غيره؛ ليقيهم الليل البهيم؛ في الشتاء البارد، ولمجرد تصوره هذا انتابته رعشة في أطرافه وبدأت تتسرب رويداً رويداً إلى أوصاله، فسارع يشد غطاءه ويحكم سيطرته على جسده الذي ازدادت رعشته لتنتشر في جميع أجزاء جسده المسجى على الفراش؛ حتى أكملت أسنانه الأوركسترا السيمفونية باصطدامها ببعضها بعض محدثةً نغماً مساعداً لصوت المياه المجاور ليكملا معاً الحفل الساهر.

عاد الدفء ينتشر في أنامه؛ وسرى بين جوانبه الهدوء والاستقرار فذهب في غفوة انتبه منها على صوت زوجته (أحلام) توقظه من ثباته؛ فقد قاربت الساعة على الخامسة صباحاً، ولم يعد أمامه من الوقت الكثير فعليه أن يغتسل، ويصلي، ويتناول إفطاره، ثم يسير لمسافة كيلومترين على قدميه ليصل إلى محطة القطار، الذي يغادرها السادسة والنصف صباحاً متجهاً إلى الإسكندرية حيث محل عمله.

---

* صحفي وأكاديمي مصري.

أحكم (نجدي) معطفه، وبمجرد خروجه من باب المنزل لفحت وجهه موجة من البرد الشديد في تلك الساعة المبكرة التي غالباً ما تكون أكثر ساعات اليوم برودة، خاصة إذا هطلت الأمطار بغزارة، حيث ينتشر الصقيع في المناطق الريفية بين المزارع، وبعد معاناة شديدة ما بين الأوحال والمياه وصل إلى الطريق المزفت، ثم سار على جسر محصور ما بين نهر النيل، الذي تنتشر على جوانبه مصانع الطوب الطفلي، التي تنبعث من مداخنها أدخنة احتراق الطوب متثاقلة متباطئة متكاسلة ملتوية كالثعبان؛ وبين الترعة التي تنحدر مياهها مسرعة متسابقة تنبعث منها أبخرة كثيفة؛ تحت الأشجار التي تنفض من على أوراقها قطرات الجمان المتلألئ وهي فرحة مسرورة، وكأنها كانت في حاجة إلى تلك الليلة المطيرة ليعود إليها بريقها وخضرتها وابتسامتها.

على محطة القطار انضم إلى الركب المتنوع ما بين طلبة المدارس والجامعات، وموظفي الشركات والهيئات الحكومية، الذين اعتادوا السفر يومياً إلى عروس البحر الأبيض المتوسط؛ لم يوقفهم شيء يوماً ما عن تلك الرحلة، حتى ولو كان الجو بارداً ممطراً؛ فهم كآلة في مصنع تعمل يومياً دون أن تئن أو تطلب الراحة، كانوا بين الحين والآخر يفقدون أحدهم لينتقل إلى جوار ربه، ولكن ذلك لم يكن ليثنيهم عن الاستمرار في تلك الرحلة اليومية.

تأخر القطار على غير عادته اليوم مما كان يعنى تأخر الجميع عن مواعيد أعمالهم، وانتابت الجميع موجة من القلق فراحوا ينظرون في ساعاتهم، ثم ينفثون أدخنة سجائرهم التي يخالطها بخار الماء إلى الهواء البارد باحثة عن الدفء المفقود، وترددت أقاويل عن اصطدام القطار أو خروجه عن مساره ليتخلف اليوم عن ميعاده.

أنارت الابتسامة وجوه الجميع عندما شارف القطار من بعيد أتياً؛ وكأنهم بعد طول سير وعناء في صحراء جرداء؛ وجدوا فجأة بئراً من المياه فنزلوا ليشربوا جميعاً ويروون عطشهم فرحين مسرورين.

بعد لحظات كان الجميع يستقلون القطار بعد أن أحكموا الأبواب والشبابيك فانتشر الدفء في أرجائه وراحوا يطلقون النكات، والكلمات التافهة عديمة المعنى، ويضحكون لسبب أو لغير ليهونوا عن أنفسهم، فهم جميعاً سمتهم الضحك ثم الضحك.

وسط هذا الجو كان يجلس شخص واحد بجوار شباك القطار حزيناً صامتاً ينظر إلى الأشجار والمنازل التي تتسارع متسابقة إلى الخلف تتساقط من عليها قطرات الندى؛ لتحاول أن تنفض من عليها عبء ليلة ثقيلة طويلة؛ ولأشد ما يكون الليل طويلاً على المستيقظ الذي لم يسدل السهد جفنيه،

ويتأمل قرص الشمس الذهبي اللامع في رحلة الشروق إلى أمل جديد بعد طول يأس؛ ولكن وجدانه في منزله الذي أوشك على الانهيار ولا يملك المال لترميمه، فراتبه لا يفي بمتطلبات الحياة اليومية له ولأولاده الثلاثة الذين التحق أصغرهم هذا العام بالمرحلة الثانوية.

استبد الصراع الداخلي بنجدي ليستعيد وعيه على صوت زميله في العمل (محي)، فها هي محطة (سيدي جابر) وعليهم الاستعداد للنزول ليبدؤا يوماً جديداً من العمل الشاق كرحلة يومية في رحلتهم الكبرى "الحياة".

❑❑

القصة ..

لمن يطلق الرصاص ؟..

□ د. محمد أحمد معلا

اسمه عمر، اسم شاع لفترة في إسبانيا تيمناً بممثل بطل فيلم رواية الدكتور جيفاكو (عمر الشريف)، وكان من الطبيعي لرجل عربي متزوج بإسبانية أن يسمي ابنه عمر، لكن ذلك العربي لم يكن فيما يبدو جديراً بالأبوة، فقد ترك ولده الرضيع وانفصل عن زوجته بمجرد أن حصل بفضلها على الجنسية الإسبانية.

تربى عمر في مراحل طفولته الأولى في كنف والدته، ثم انتقل إلى بيت ذلك الرجل الذي تزوج أمه وأصبح مثل أب له وكان الرجل طيباً متفهماً وعطوفاً رعاه على الرغم من رقة حاله حتى أكمل تعليمه المتوسط وصار باستطاعته أن يعتمد على نفسه، فسعى له وساعده في نيل وظيفة في قسم التسويق لشركة خاصة لتصنيع الأجبان، لم يعرف عمر والده العربي إلا في صورة وحيدة احتفظت بها أمه على كره منها لغاية واحدة ومن باب الأمانة وهي تعريف ابنها بأصل أبيه، ولما صارت الصورة إلى عمر كان يخرجها بين الحين والآخر يتأملها لوقت قصير أو طويل ثم يعيدها إلى ألبومه. يبدو أن لقاءاته وحواراته الصامتة مع تلك الصورة ومنذ أن وقع بصره عليها كانت تفتقر إلى أدنى حد من ود، بل اتخذت منحى عدائياً محضاً أخذ يتعزز ويشتد، وأعظم ما كان يغيظه ويمقته من حاله هذا الشبه المدهش بينه وبين والده، وفي لحظة هياج عاطفي وقد تأججت نار نقمته على صاحب الصورة الذي هو قريب بقدر ما هو خائن ومستهتر ماجن، مزق الصورة بغضب وحقد ملتهب، ثم ألقى فتاتها باحتقار بالغ إلى القمامة، وهو يردد: وحش حقيقي، يقذف لقاحه في أنثى ثم يتركها لمصيرها كأي حيوان بري دون أن يحمل نفسه أدنى مسؤولية. كان طموح عمر أكبر بكثير من وظيفته التي رأى فيها وسيلة عيش لا أكثر، وصار مدمناً على قراءة الروايات كان يقرأ كثيراً ويحلم كثيراً، وكم حلم بلقاء والده وإنزال أشد الإهانة به دون أن يمكنه من معرفة من يكون؟ لكنه ما كان يعلم ولا

كان في الحقيقة يريد أن يعلم في أي أرض يعيش هذا الوحش الذي ينتمي إليه مرغماً بخارطة جينية حتمية كالقدر.

منذ أن اطلع عمر على حقيقة أصله صار يعيش مع دمل مقيم في أعماقه لا يفتأ ينغص عليه، وما كان من سبيل لإراحة نفسه إلا بتفجير ذاك الدمل بأحلام اليقظة تعويضاً عن لؤم وحرج الواقع، وما إن ينزح ذلك الدمل حتى يمتلئ صديداً مغماً من جديد، ربما كان تعس حاله سبباً في إدمانه على قراءة الروايات، حتى صار مسكوناً بحلم أن يكون كاتباً روائياً كبيراً، فنصف راتبه يذهب في شراء الروايات، واقتناء الأقلام الجيدة، والورق الأبيض المصقول خوفاً من تضييع لحظة إلهام مباغتة لا يحسن اقتناصها لنقص في أدوات الكتابة، لكن تلك اللحظة طال انتظارها ولم تصل، ورأى أن يستجديها، فكان يأخذ القلم ويضع الأوراق أمامه كناسك متعبد في وضعية مناجاة إلهية، كرر ذلك مرات لا تحصى، وفي أيام تتقارب أو تتباعد، وفي كل مرة كان هجومه يتحطم على صخرة من تهيب وفراغ مخيلة، ما إن يجلس للكتابة حتى يحس أن رأسه بات خاوياً، ليس من الأفكار فقط، بل من الكلمات أيضاً، فيعزف عن محاولته بغضب وقهر، ليعاودها في وقت لاحق لكن دون جدوى، وانتهى إلى نتيجة مفادها أن النقص ليس فيه، بل في هذا العالم الذي يفتقر لموضوعات جديدة جديرة بالكتابة، فقصص الحب المنشورة لا تحصى، وقد استهلكت في سموها أو انحدارها، كما أن لكل شخص في هذا العالم قصة حب شخصية يجدها أفضل قصة حب جرت على وجه الأرض مهما بلغت من تفاهة، والقصص الاجتماعية والثورة صارت لزمن غابر مضى مع تشي ـ غيفارا، كما أن أفلام الرعب سبقت الخيال وتركته وراءها، فما كان منه إلا أن عزف عن كل محاولة للكتابة.

جلس عمر في غرفة الانتظار متململاً يعبث بأصابعه لتقطيع الوقت، تذكر كيف اجتاحته من جديد تلك الرغبة في أن يكون روائياً عندما أخذ يرى صور القتل الوحشية المريعة على الشاشات في الصراع الدائر على الأرض السورية، فشبهها بالحرب الإسبانية من حيث مشاركة متطوعين من جنسيات متعددة فيها، عندئذ حلم أن يكتب رواية تشبه (لمن تقرع الأجراس) لكن نظراً لما حدث على الأرض السورية من وحشية لم تعرفها البشرية منذ فجر التاريخ، ونظراً لانتهاك كل القيم الفطرية للإنسان ومحقها، رأى أن يكون مضمون روايته وحشياً لا إنسانياً بعكس رواية همنغواي، عندئذ كتب على صفحة من الكرتون المقوى وبخط عريض جميل عنوان روايته (لمن يطلق الرصاص؟) ورسم تحت العنوان صورة بقلم رصاص تخيلها عن تمثال الرحمة الذي أقامه اليونان قبل عصور، ووضع الورقة جانباً في حرز أمين لئلا تمس، وكأنها الثابتة التي سيضاف إليها ورقات النص، وبعد تفكير طويل لم يجد أفضل من نفسه ومن أبيه ليكونا البطلين الخصمين العدوين اللدودين في مشروع روايته الدموية، عمر يعرف أباه، أما أبوه فيجهل أن عمر ابنه، وسواء أكان أبوه في الميدان صديقاً أو عدواً لا فرق يبقى الخصم الذي يستحق القتل، وعلى عمر أن يجرحه بليغاً ثم يتلذذ بالإجهاز عليه بيده، لكن لم يعرف عمر كيف يبدأ الرواية وكل ما استطاع كتابته هو

تسجيل أحداث سمعها ورآها على الشاشات، ولم تسعفه فطنته في ابتكار خيط يربط ما يدور في رأسه في عمل يشبه الأدب، وعندما سمع بجهاد النكاح تذكر ما قرأه يوماً عن الجنس المقدس في أعياد الخصب الوثنية والفن الأصيل فيها، وتشوق إلى أن يعرف مراسم طقوس هذا الجهاد، وفكر هذا موضوع يستحق الكتابة ويجتذب القراء ويحيي مراسم منسية تتكثف فيها الطقوس التلقائية للإنسان القديم، أين ستقام الطقوس يا ترى؟ في الهواء الطلق أم في بناء مغلق؟ لا شك سيكون جهاد النكاح على شكل مهرجان وفي أيام يحددها الفلكيون لكن بدل الألعاب النارية والقصف، سيكون هناك ترانيم وتوسلات دينية وجذبات غيبية لها القدرة على إحلال الروحي في الجسدي ليتركز بصيغة شهوة جنسية، نعم فكر متلذذاً كطفل: في المهرجان سأصيح: الله أكبر فوق رأس ذلك البغيض وأطلق عليه، ورأى أن لابد أن يعيش في قلب الحدث ليتفاعل ويتمكن من الكتابة. تذكر عمر وهو يعد أصابعه في غرفة الانتظار كيف قصد ذلك الرجل المسلم المعروف في كل المدينة والذي كان يثير سخرية من يسمع قصته، تزوج ذلك الرجل بامرأة إسبانية وسكن معها في بيتها، وبعد أعوام تزوج بامرأة من بلده وجاء بها ليسكنها مع زوجته الإسبانية في بيتها، وكان عجب الناس واحتقارهم وسخطهم ينصب على زوجته الإسبانية كيف لم تنفصل عنه بل قبلت أن تساكنه وفي بيتها مع الزوجة التي جاء بها، فكر يومها عمر، نعم هذا سوف يرشدني خطوة خطوة الطريقة التي أصل بها إلى سوريا وأمارس جهاد النكاح فهو بلا شك يعمل لحساب منظمة سرية وإلا من أين يعيش ولا عمل له وكل الناس تعرف أنه يسافر بكثرة بين إسبانيا وألمانيا؟

ذلك الرجل استقبله بحفاوة ذقنه المرسلة، وسر حين أعلمه عمر برغبته، وأبلغه أنه سيرسله إلى تركيا ومنها إلى إسبانيا على حساب تنظيمه، ودهش عمر للسهولة التي أنجز بها صاحب الذقن أوراق سفر عمر في الدوائر الحكومية الإسبانية، ففكر: يقولون إنهم ضد الإرهاب، وهاهم يقدمون له كل مساعدة ولا يرفضون له طلباً! وصارح عمر صاحب الذقن برغبته في اختبار جهاد النكاح، فلم يستنكر صاحب الذقن وقبل الأمر وكأنه شيء عادي جداً وزوده برسالة ليؤديها إلى أمير التنظيم الذي يلتحق به.

لا زال عمر يجلس وينتظر، دخل اثنان قبله، إنه لا يسمع ترنيمات تشبه الصلوات، أين تقام الشعائر يا ترى؟ ودخل عمر بعد أن خرج المقاتل الثاني، رجلان ملتحيان كانا يجلسان بإزاء بعضهما، وقفا، أخذ أحدهم يد عمر واحتفظ بها، بينما أخذ الآخر بالقراءة، يسأل ويشير إلى عمر أن يوافق برأسه، صفق القارئ كف عمر، وترك الآخر يد عمر وأشار إليه أن يدخل من باب جانبي قال القارئ عند الباب يشير إلى عمر أن يتلفظ: الله أكبر! فهم عمر ولفظها كما استطاع، فدفعاه داخل غرفة وأغلقا الباب خلفه، كانت الغرفة قليلة الإضاءة، سرعان ما تأقلمت حدقتاه مع الضوء، رأى امرأة على سرير ترتدي ثوباً أحمر كرزي شفاف، أفسحت له في السرير مبتسمة، ظل عمر واقفاً، رفعت ثوبها قليلاً وابتسمت من جديد تتصنع إغراء، انتباه عمر تقزز شديد يقارب الغثيان، لا لم يعرف جوعاً جنسياً في بلده، فكر: تباً وتعساً هذا هو الهراء بعينه، أهذا ما يسمونه جهاد

النكاح؟ عنوان دعائي كبير لجذب الشباب من كافة الأصقاع، لكن حين تصل تجد كم هذا وضيع ومبتذل، بائعات الهوى منتشرات في كل مكان ومن أقدم العصور هي الحرفة الأقدم في الكون، أي دعاية فاجرة، إن كان الفعل الجنسي الجسدي بذاته هو المقصود، لم لم تزودهم ألمانيا بالنساء الدمى المشتهرة بها كما تزودهم بالأسلحة، أما كان أنظف لجهادهم وأمتع؟ أدار ظهره وفتح الباب وقبل أن يخرج التفت ينظر تلك المرأة محدقاً وكأنه يقول: أما أنا فقد خدعت خدعة كبرى لا مثيل لها، كان بودي أن أرسى طقوساً وفناً لا بغاء، كما ترين لا أنا راغب ولا مضطر ولا مجبر، أما أنت أيتها التعسة أليس الأحرى بك أن تجاهدي جهاداً ينظفك من هذا البغاء المغلف باسم الجهاد، رمته بنظرة شريرة غاضبة وكأنها تقول: لا يعقل أن ترفضني وأنا باكورة ثمار الموسم، المشكلة عندك، اكتشفت نفسك، أنت رجل بلا كفاءة.

وخرج عمر منسحباً بين ضحكات الشيخ القارئ وصاحب اليد الممدودة، ساعتها فكر: ليس عندي بعد أي مسوغ للبقاء على أرض ليست بأرضي.

في اليوم التالي تحين عمر أول فرصة للهرب، ابتعد عن الجماعة، لكن عيوناً كانت ترصده، وعلى قامته الراكضة زفر رصاص كثير بغزارة مطر الشتاء، سقط صريعاً وهو يردد (لمن يطلق الرصاص؟).

❑❑

القصة ..

حديث الجهات في أنترادوس ..

❑ عدنان رمضان

مدينة مسورة بالأساطير والأحلام منذ الأزمنة البعيدة، صمدت وتحدت الأهوال والعواصف القادمة من بحر وبر بجهاتها الست التي اعتادت على مواجهة ظروف الحياة المتقلبة، فمن جهة الشمال تتهادى أحاديث الصباحات الشمالية لتملأ الأرجاء، ونجمة الصبح لم تأفل بعد، وهي تلوح بضوئها للعابرين وسمار الليالي والمسافرين ومغامري البحر وتائهي الصحراء. وككل الأحياء هي مدينة تعج بالحركة وتسعى إلى طريق هداها، الذي آمنت به المدن البعيدة التي تعاني من أوار الحرب، فأرسلت أبناءها إليها بعديدهم الكبير وأزيائهم المختلفة ومهنهم الكثيرة، ولهجاتهم المميزة، وبينهم غلبة للنساء والأولاد، وتعدد في المشارب، والأهواء، وعلى أرصفة كورنيشها الزاهي تندلق حكاياتهم عن أهوال صادفوها، ثم نسوا بعضاً منها، بعد أن تنعموا بمودة أهلها، واستمتعوا بمرأى البحر، وحكايات أهلها الذين اعتادوا على مساكنة الرياح القطبية، التي تخزهم بلطف، وتحرض فيهم متعة الاستكشاف لسحر المكان وفرادة الإنسان، الذي هو حفيد تجار الأرجوان. حتى عند السفر شمالاً تكون الرحلة باتجاه الأمان الممتد، حيث تجاور أوغاريت البحر ومن هناك تبعث بحروف أبجدية استأمنتها السماء بحبال بركة لا حد لها، ترافقها ديمات الخير، وتنثرها الرياح جذلى على امتداد المسافات، فيأتي الخير مدراراً دون حرمان، وتروح الأرصفة تستقبل بعدها الخير وغابات من سيقان بشر أبوا إلا أن يمارسوا هواية المشي على مد النظر، وعلى الشفاه صلوات دائمة لقدوم السلام الغائب والعزيز المنال، والذي استوطن مدارات خارج أرضنا، فتحاول الكنائس والجوامع أن تقبض عليه بالدعاء له للعودة ثانية، وتعويض أيام الجحيم التي استأثرت بطقس الحياة، قبل أن تصبح قدراً دائماً لا فكاك منه. إنها أنترادوس تطأطئ الهام للرياح العاتية، لكنها لا تركع، بل تنتفض من جديد عابرة لتخوم المستحيل.

ـ 2 ـ

ومن جهة الشرق تهب نسمات شرقية جافة غير معتادة، بلسعة باردة تمتطي صهوة الأجواء، فيهرع الناس الأجساد بثياب الشتاء، وتتلون الوجنات، بحمرة قانية، تحمل عبق الخلود من بالميرا ومن عمق الصحراء السورية الواسعة، لكنها لا تجد متسعاً للبقاء والركون الطويل ولا يبدو أن الصقيع سوف يصمد طويلاً في وجه الرياح الغربية العاتية المهاجرة شرقاً في رحلة تشابه رحلة الأضداد على امتداد دوران الفصول، حيث تقوم الرطوبة والملح مع الرياح الدافئة بمجزرة للبرد القادم بخطوات هوجاء لا تلبث أن تتعثر برؤوس الجبال والأشجار الواقفة على امتداد المسافات من عمق البوادي إلى الصخور البحرية الصامدة. إنها لعبة الانتظار ما بين فصل وفصل وما بين أرواد ومدن بعيدة إنها لعبة رمال الصحارى ورمال الشواطئ الباكية على ضياع القدس، وبقاء المخلص للفداء الأبدي، وإنقاذ الإنسان ابن الخطيئة.

ـ 3 ـ

إلى أن تزدحم جهة الجنوب ببهاء القداسة ما بين الجميع بجلال من الرهبة والخشوع، تفرض سلطانها مزهوة بقوة خفية ناعمة، تهبها مهابة تلك الجهة لانترادوس الجميلة، فتصبح قبلة لأهل الحواضر البعيدة يتوجهون إليها بالأجساد، بعد أن شغفت بقبلة أم القرى روحاً ونفوساً تصلي كل يوم، وتتشخص إليها العيون في الأوقات الخمسة أبد الدهر، طالبة مدداً إلهياً يتجلى صفاء وسكينة، عند العابرين على الكورنيش وجيران البحر وحتى سكان الضواحي والجبال، إنها مدينة لا ترتاح أبداً تغتسل بالبراءة ودم الشهداء المحمولين على نعوش حزينة على امتداد ثلاثين شهراً، ولا تتوانى عن معانقة أهل النية الحسنة من شتى الأشكال والألوان، غريب كيف كبرت المدينة وأصبحت كأنها في عام 2020، لا شك أنه النور النافث من صدور أهل المدينة مرحباً بالزوار والغرباء.

لقد اعتادت المدينة على زحمة صور شباب في عمر الورد، كانوا منذورين لقضية أخرى، راحوا وبقينا نحن الأحياء في صالون الانتظار للحياة المجللة بالأسرار، بسرعة تعلمت المدينة الصبر ولم ولن تصدق أن الأخوة يفعلون ما يفعلون، بلى إنها لغة الغرباء وأعداء الإنسان، الذين يغتالون الحب والحياة، إنها لغة إبليس التي لن تبقى طويلاً مهما على الثمن وتعددت المواكب، وطال الانتظار، فمنذ أيام عمريت كتب على أهل الشواطئ أن يصدوا الغزاة، ويدحروا الطغاة، ويعملوا على بعث مجد الإنسان لينزلق في الدخول في عصر الأنوار.

ـ 4 ـ

في جهة الغرب تندفع دفقات هواء المتوسط تنتقل همهمات لآلهة تستوطن الأفق المتمادي، وفي أرادوس تتعالى الأبخرة المقدسة من بيوت الصلوات التي تحضنها قلعتها الحصينة، كما تتصاعد من أسطح معابد أوغاريت وقرطاج حتى تصل إلى الأولمب تعلن رسم الكائنات وبقائها حية تحت الرعاية الحنونة، شرط تقديم قرابين الوفاء على امتداد المتوسط الواسع في العالم القديم، هذه البركات تشمل ضمن ما تشمل مدينة الشهداء أنترادوس قبل أن يعرفها التاريخ كمدينة للشهادة، منذ هاجر أهلها بحراً لغزو العالم حيث ابتلعت المحيطات كثيراً من المغامرين لاستكشاف العالم وتحدي الموج وعتوه، ليس من الغريب أن يترك الفينيق والإغريق شواهدهم وأوابدهم لتحكي قصة الانتماء للأرض ورغبة الخلود، فهذه البقعة المباركة خالدة عبر الزمن، وثمارها البحرية وثروات الباطن كفيلة بجعلها مطمع الغزاة على مر الأيام، إنها أرض مباركة تستحق عناء الاستكشاف ومخاطر المغامرات، لكن الآلهة التي تبدو غافية لا تقبل إلا بدحر الشر والنو والإعصار من أي مكان أتى، إنه البحر الذي ترحل إليه أنظار أهل الأخطار، إنه من آباء الحضارة المتنقلة من مكان إلى مكان، والسفن الشراعية والزوارق البدائية، التي كانت دوماً مثالاً لطلائع الكشوفات الغابرة، وتقريب المسافات حتى وصلت إلى العالم الجديد الذي وصل إليه كولومبس قبل غيره، حيث قام أجدادهم بإبادة شعب عريق، كرمى للثروة وغريزة الحياة، وهاهم أحفاد الأجداد برابرة العصر الحديث يجددون المجازر ويزرعون الحقد فلا قيم تربوا عليها وليس لهم سمات الشعوب العريقة وشمائل الإنسان المتحضر، كم تحزن أنترادوس على غرب يحمل النقيضين بين من غزا العالم بالقيم والأخلاق وبين تجار الحروب، إنها شهادة تأتي من أنترادوس القديمة، والمرفأ القديم، والطاحونة الذين يشهدون على سمو أحفادها وطهر سريرتهم، الذين جسدوها بقمة الفداء، لوطن عزيز. بلى إنها معجزة الحياة أن يصل إليها نسغ من الآباء لتولد أجيال، تبحث عن قيامة جديدة في جنة السماء، وأمداء الذاكرات والقلوب.

ـ 5 ـ

أما جهة السماء فتبارك دوماً أرضاً مطهرة تزدحم بأرواح نالها حسن الحظ لكينونيتها حياة ومماتاً وانبعاثاً من جديد، تماماً كما دورة الشمس والقمر، وتوالي الليل والنهار، وحتى النجوم بمجراتها لها دورات في عماق الكون، ولها أيضاً تواصل مع الأرواح، وتتحكم بإرادة علوية بالقدر والمصائر، الملائكة تكثر من التحليق في أجواء أنترادوس، تؤدي مهمة الترطيب، وتقديم العون وحراسة الأنفس التائقة للخلاص من كثافة الأجساد، والمستعدة دوماً للالتحاق بالمجهول الذي

ينحني له الجميع، ويخافه الكل، لذا ليس عبثاً أنه من المكان تنضح أعباق الكتب السماوية، التي جاءت بها الرسل وساهم بنشرها أولي الوزن من الأولياء الصالحين في شتى الأصقاع، إرواء لعطش مزمن متمكن. وعوناً لنفوس تسعى للهدوء الدنيوي قبل السكينة الأبدية، والتي يحركها ويثيرها قمر وشمس ومد وجزر، في رقصة عمر أبدية تعلن استمرار حياة الكائنات، وتشكل مزاجهم العجيب، سواء بالحسرة أو المسرة، أو بلغة العامة السعد والنحس.

وعلى الرغم من تعارك البشر وتناسلهم بكثرة لا يزال الصالحون يتوالدون، ويحدثون التوازن، ولا تزال شبكات الرحمة الإلهية تعم الجميع، ووصال المودة تشد أواصرهم أكثر عبر السنين، لا فرق بين مقيم وضيف، المهم أن يتنفس المرء هواءها المشبع ببخار البحر، والمنفى بفضل نباتات الجبل القريبة، وعلى الرغم من قرصة البرد في الشتاء وقيظ الصيف كان كثير من الأهالي والوافدين ينامون على الأرصفة، والأمكنة الجانبية للشوارع الصاخبة، إنها أنترادوس الآمنة التي لا تحقد على أحد، والتي تطلب الأمل والسلام، فالرحمة استوطنت المكان والإنسان.

ـ 6 ـ

وهل من مكان أجمل للإنسان فيها من جهة الأرض حيث الكنيسة لا تزال شاهداً على حكايات التاريخ المطمورة فيها وحولها، ومسحورة في آثارها، تشهد على كل المارين، وعلى الغزاة والعابثين، وعلى فرسان الهيكل، وعلى ماض تليد مليء بالمآسي والحوادث الخالدة بمسراتها وأحزانها، إنها أنفس عبرت وداست التراب وقبلته ودفنت فيه وتركت بصمتها للآتين في غد الأيام، هل جربت أن تشرب ماءها حتى تعود لأحضانها تارة أخرى، وحتى تغادرك أشواك الكره والخيانة، هل مشيت على أرضها وكرنيشها للتذكر حضن أمك ودفء عائلتك، وتتعلم كيف تقف للجمال احتراماً، وللمودة حباً، ولصور الشهداء إجلالاً.

من لم يصدق عليه أن يجلس عند الغروب ويشاهد صفاء البحر أولئك الذين يمرحون من وافدين وقاطنين، ليستمتع بمرأى النساء من شتى الانتماءات، والأطفال الذين يمتطون قطار الحب على الكورنيش، وأولئك الذين يسترخون بكسل يدخنون النارجيلة بعبث ومسرة، يعلنون حبهم للحياة. ولا تزال أنترادوس تفتح ذراعيها للقادمين، ولا تزال تقاسمهم لقمة العيش، وتدفع ثمن انتمائها للوطن والحق، وتبحث منذ ثلاثين شهراً معهم عن حلم مضى وسلام قضى، عسى أن يعودا تارة أخرى.

❑❑

القصة ..

20226..

❑ منور الشوا*

يصمت، بينما الضابط المسؤول في خفر السواحل، واسمه روبن، يسأله، جالساً خلف طاولته وحوله مجموعة تشاركه القهوة: ما اسمك؟ من أيّ الأمكنة أتيت؟ وكيف أتيت؟

لم يعد يجدي شيئاً توسّله المفردات عبر النافذة الكبيرة للمكتب الذي يقف فيه.. مشاعره المترامية، كما أناقته التي أصبحت الآن من الماضي، تكاد تجمد، فجليد اللحظة يتسلّل في جسده، حتى دموعه جمُدَت، فليس من الممكن، بعد الآن، ...

لم يكن صباح مدينتي ككلّ الصباحات، ولم يعد أبناء وطني اليوم يشربون القهوة، كعادتهم، في المقاهي الصباحية، أما المقهى المتنقل على دراجته، فلم يعد يعيش ضجيج العجلات التي تمر إلى يساره بمحركاتها الجافة.. هو يلعن، الآن، في صمته، صفير مدينتي هذا الصباح، حيث ما لم يعد مجهولاً يكتب سيرتها التي لم تُروَ بعد.. هناك طاوي المصير على أطرافها يرسم عقاب انحرافاتها ووقاحة شهوتها..

للجالس إلى يمين الطاولة، واسمه رود، يقول الضابط المسؤول: اكتب: الرقم عشرون ألفاً ومئتان وستة وعشرون. الصفة: لاجئ.

وعيه الباطن يحاول أن يترجم بلغته الجديدة ضجيج تلك الأرقام..

بلغة رمادية، وببرودة الجليد، يعود الضابط المسؤول بصوته العميق: عشرون ألفاً ومئتان وستة وعشرون.. هذا هو اسمك الآن.

---

* قاص من سورية.

تحوّم الذكريات مزدحمةً في رأسه، بينما يحاول أن يهادنها بالراهن المؤقت الآن، وقد دخل غيبوبته الأولى...

قديماً لوّحتني الشمس مرّتين ـ يهمس ـ قاومت تمرّدي مراتٍ كثيرة. لم أكن معنيّاً يوماً بأن أتمرّد. كنت، فحسب، أنتظر الصبح كغيري من ساكني مدينتي. أشرب قهوتي، وأستمع إلى فيروز، وأنظر الشمس تعانق نوافذ المدينة، بينما تتسلّل أحاديث مساءات الأمس المتعبة ذكرى ما زالت تراقص المخيّلة مع أصدقاءٍ أشعر اليوم بأنّي أُدين لُطفَهم.. فيما أتنقّل بين أصوات العصافير الساذجة، فأنتعش بسذاجتي تلك..

الضابط المسؤول من جديد لأحد الحراس، وبلغة ترتسم في وعيه حروفاً سوداء كما لو كان يقرؤها على صفحة بيضاء، فلا أبيض فيها إلا ما ينسجم مع لونه وأوروبيته:

عليك الآن أن ترحّل الأرقام من 20000 إلى 20225 إلى المبنى الذي يحمل الرقم تسعة عشر، ريثما يتم النظر في أمرهم.

لاجئ..؟ وترتسم الخيمة الآن قصراً أممياً.. بات لي قضيّة- وبتُّ تُرسَم لي نهاياتي.. ثمّة الآن من يمثّلني.. طالما انتظرت من يمثّلني.. لتهنأ الآن روح كارل ماركس، الذي صرخ مراراً: "لايستطيعون تمثيل أنفسهم.. يجب أن يُمثلوا".. فثمّة الآن من يمثّلني..

تقذفه من جديد موجة أخرى من بحر الذاكرة الراهنة..

لم يكن مساء مدينتي، اليوم، ككلّ المساءات..

في تلك المسافة من أوتستراد المزة إلى أوبرا دمشق، ترتّل الرعشة صلاةً في جسدي، فيما ترتّل الأرصفة وجدران الأبنية آخر نقاءاتها، آخر صرخات مجونها، آخر صلواتها.. ترتّل آخر كلّ شيء.. في تلك المسافة، ما زالت تتردّد، في ضحكاتي، صرخاتُ جدّي بمزاجِهِ الرحباني: "يا... لك شو اسمك.. يا...... زفت هتلي هالجريدة والغليون من.. من مطرح مَبتجيبُنْ كل يوم".. ما زال يقرأ الجريدة، ليس على طريقة نزار قباني؛ إنّما هو يريد أن يمارس طقساً يريد أن يثبت له، اليومَ، أنّ الكلمات ما زالت قادرة على أن ترسم باباً عبر جغرافيا الأسلاك الشائكة إلى قدسه التي استحمّ، تاجراً دمشقياً، في ماءِ أمسياتِها وصباحاتِها، معانقاً قهرَها، وباكياً عطرَها امرأةً عشقتها الثقافات الممرّغة بوحل الشروحات الدينية.. لست متمرّداً كجدي.. لا أريد أنْ أصرخ صراخه، فقد كانت

رحلةُ حجّهِ القسريّ الأخيرة قاسيةً من القدس، وهو الذي بعثر أيامه لوحةً ترسُمُ، جغرافياً، ألقَ حياته بين القدس ودمشق، ذاهباً بالحرير، قادماً بالزيت والزعتر النابلسي.. في تلك المسافة كنت أقرأ دمشق تعزف تشايسكوفسكي محاوراً عبد الوهاب.. في تلك المسافة تغيّر مساء مدينتي.

رقمُ اليومَ أنا..؟ على الأرجوحة كنت أشرب كأسك يا وطني، منتظراً ساعي البريد، ليأتيني برشفة كلماتٍ أسكر بها حباً، لا رصاصةً تسبي مفرداتي وفمي.. كنت دائماً أشعر بأني على وشك أن أحصل على تأشيرتي في رحلة حجٍّ إلى القدس على خطا جدي، لا على خطا شاتوبريان.. كنت، بسذاجتي المعتادة، أستمع إلى نزاريات عبد الحليم والصغيرة وقيصر.. ألملم ما تبقى من فرط هذياني الخمري على أطلال كلثوميّة برسم الرائع ناجي، أراقص الحزن حتى الثمالة بخيالات شرعيّة فلا يقتلني..

رقمُ أنا؟ وقد صلّيت وصمتُ لفلسطيني وجنوبي وجولاني.. مع الطلائع كنت أراقص فيروزي، ومع الشبيبة أصرخ: يا أمة اتحدي.. يا أمة اتحدي.. ياااااأمة............ استيقظي.. نومُكِ اليوم يقتلني. قلت لكِ طفلاً: أعيدي لي الوليد والرشيد.. ما كنت تصدّقين عشقي... اليوم أنا لا أصدقك.. أكفر بك.. رازيك وكِنْديك وفارابيك و..... ماعادوا لي وطناً، وخيالاً أراقِصهُ ما عادَ متنبّيك.. لعنتُ كؤوساً كنت أنادمُ النوّاس بها. قتلتُ ناقةَ طَرَفَة، وما عُدت معنيّاً بما "قالت لي السمراء".. اليومَ أنا أعيش، تماماً، كما لو كنت إحدى شخصيّات إدوارد لين في استشراقيّاته، أو جورج أورول، أنتظر تصنيفي تحت قصاصات لغوية: أصفر، أسمر، شرقي، خمول.... كما لو كنت علامة في انتظار من يجول في جغرافيّتي سيداً أبيض، ويمنحني رقماً في لا مكاني، أو اللا اسم في مكاني.

لم أكن يوماً رقماً.. تعلم ذلك أرصفة الليل، وكأسي، ودخاني، وحدائق جامعتي، والأولاد يعانقون الأرصفة، ويمسرحون العالم على خشباتهم، ويهدؤون حين تنطلق أغنيات الليل:

يامحلا الفسحة ياعيييني على راس البر

والقمر منوّر عيني عيني على مو على موج البحر

متعبةٌ أبجديّتكِ، ونومُكِ اليوم يقتلني...

للواقفين على باب الممرّ الخارجي المؤدي إلى الصالة الشاطئية، يصرخ الضابط المسؤول: التالي.

يقف أمامه. ينظر الموظف في وجهه المتعب، أيضاً، بإرهاقات العروبة:

كغيرك ـ لا شكّ ـ بلا اسم ولا مكان..

عشرون ألفاً ومئتان وسبعة وعشرون، هذا هو اسمك اليوم.

بغصّة صوت ترجّع صدى الذكرى الراهنة، يتمتم لآخَرِهِ:

صباح مدينتي لم يعد اليوم ككلّ الصباحات

مساء مدينتي لم يعد اليوم ككلّ المساءات

❑❑

القصة ..

عنـــدما يهطـــل المطر..

❑ يونس محمود يونس

لابد أنني كنت متجهماً وأنا أغادر منزلي، فالطقس في الخارج غائم مضطرب، والشخص الذي طلبني عبر الهاتف، مشتت في أكثر من أرض وسماء. لا يعرف أبداً كيف تشتت. ولا كيف يلملم شظاياه.

غير أنّ هذه الصفات المنفرة نوعاً ما لم تمنعني من اللحاق به إلى قمة الجبل، إنه الجبل الذي كان في ماضي الأزمان مقراً للغزاة الذين جاؤوا عبر البحر ثم أصبح بعد رحيلهم مقراً لخرائبهم. يقصده من يشاء للتنزه والاستمتاع برؤية الهضاب والوادي الممتد وصولاً إلى البحر، فلما رأيته واقفاً بمواجهة الأفق، مأخوذاً بسحر الغيوم المضطربة الهاربة، اعتقدت أنني أقابل شخصاً أسطورياً، لكنني ما أن بادرته التحية حتى تخليت عن هذا الخاطر نهائياً، كل هذا حدث خلال لحظات فقط، بعدها سمعت الشخص يقول بشيء من التودد.

ـ آه لو تعلم كم أنا ممتن لك، لقد لبيت دعوتي وهذا يكفيني.

فأجابته:

ـ هذا الأمر ليس مهماً على الإطلاق.

قال:

ـ أنت تقول ذلك، أما أنا فأقول إنك الوحيد الذي أستطيع التحدث إليه. في الماضي لم تكن الحياة كما هي الآن، عندما كنت طالباً في الجامعة، أقصد أننا كنا في تلك الأيام نتنشق النسائم القادمة إلينا من كل شواطئ العالم، فقد كان أستاذ التاريخ من أتباع المذهب المادي، وأستاذ الرياضيات من أتباع المذهب السلفي، حيث كان يعرّف القدرة بأنها شكل من أشكال قدرة الله. أما أستاذ اللغة فكان ينتقد القواعد والعلماء الذين وضعوها، وهكذا دواليك، كل أستاذ ينتمي إلى مذهب مختلف، وكنا نعيش في جو من الحيوية والتفاعل ربما هو الأغنى والأكثر ثراء في حياتي.

عندئذ أدركت أنّ هذا الشخص المشتت يريد أن يفجر في وجهي كل غبار السنين العجاف، حيث لم يعد يوجد غير الغبار الذي تشكل بعد جفاف الينابيع التي مازالت تتدفق في ذاكرته، ولأنني وجدت في ذاكرته ما يستفزني، قلت له معقباً:

ـ أعجبني حديثك عن النسائم القادمة إلينا من كل شواطئ العالم، ولكن هل فكرت بما قد يحدث لنا عندما تتحول هذه النسائم إلى عواصف.

فقال متسائلاً:

ـ وما الذي سيحدث؟

قلت:

ـ طالما أنك لا تعرف، وبدل التغني بأمجاد الماضي، أنصحك بتدريب نفسك على العواء كما تفعل الذئاب المقهورة، لأنّ الماضي كائن ميت، والميت ليس جميلاً أبداً.

فقال متسائلاً:

ـ وهل تشعر الذئاب بالقهر؟

قلت:

ـ ما أدراك، وهل تعرف لغتها؟ ربما هي لا تشعر بغير القهر.

فقال ووجهه يطفح بالأسى:

ـ لم تكن مجبراً على مثل هذا القول، ولكن اعلم يا صديقي أنني مستعد للقتال كي تقول رأيك بحرية كاملة.

قلت:

ـ قد تكون مستعداً للقتال، أنا أصدقك، لكنك لم تدرب نفسك على القتال، ولا أظن أنك فكرت بمدلولات هذه الكلمة خاصة وأنّ البعض قد يفهمها على نحو لا تقصده أنت.

في تلك الأثناء وقبل أن يتفوه الشخص بأي كلمة جديدة، هبت ريح بحرية رطبة، فتمايلت أشجار الجبل، وصفقت أوراقها مصدرة تلك القرقعة التي يستطيع الخيال وحده أن ينسجها عند سماع الحكايات بحيث أنّ المكان بدا غريباً وموحشاً بصورة مفاجئة، ولأننا كنا شبه معزولين على ذلك الجبل، أراد الشخص أنّ ينبهني إلى أمر يشغله، فقال مستدركاً:

ـ أظن أنّ المطر قادم، بل أكاد أجزم بذلك، ألا ترى تلك الغيمة الماطرة؟ إنها تقترب منا، وإذا لم نغادر حالاً فسوف نغرق.

قلت:

ـ إذن أنت تخاف حتى من البلل!

فأجابني بحدّة:

ـ طبعاً أخاف، أنا لست شاباً، لقد تبللت كثيراً في حياتي وأكثر مما تتصور، لقد تبللت إلى الحد الذي بت معه الآن أعجز عن تحمل وعكة بسيطة، ومن أجل ماذا سأتبلل؟ في الماضي كنت مجبراً، كنت أمشي تحت المطر أتخبط في العتمة والوحل ساعة كاملة كي أصل إلى مدرستي، فعلت ذلك عندما كنت طالباً من دون مظلة، وفعلته عندما أصبحت معلماً بوجود مظلة، هذا أنا على كل حال، وإذا لم تفهم ماذا يعني كل ذلك فأنت تحتقرني.

قال الشخص كلماته الأخيرة بانفعال وتوتر شديدين. ولم يكن ينقصه سوى أن يهوي على الأرض من شدة الخوف والذعر، حتى وجهه أخذ يطفح بهذه المعاني، وصوته بدا حاداً وقاطعاً، فلم أجد ما أقوله خاصة بعد أن شاهدت الشخص يسرع الخطى هرباً من الغيمة التي اعتقد أنها تسابقه.

ولأنني لم أستجب لحالة الرعب التي ألمت به، بدا غضبه حقيقياً، ثم ازداد وضعه سوءاً عندما شاهد الغيمة الماطرة تسبقه فعلاً، والأمطار التي سقطت منها كانت غزيرة ومهينة أيضاً، فتوقف وقال:

ـ ألم أقل لك إنّ هذه الغيمة الماطرة سوف تبللنا، لقد حذرتك، أنت مندهش!؟ أليس كذلك!؟ لا بأس، لكن تذكر أنني نبهتك، أنا أعرف الغيوم الماطرة، أعرفها جيداً.

واستمر المطر يتساقط والشخص يتبعثر شظايا وهاجة مثل قذائف بركان وسط غبار كثيف.

❑❑

حوار العدد ..

ـ مع الباحث الأستاذ عز الدين سطاس .... أجـــــراه: ســـــلام مــــراد

"الرمز ضرورة حياتية على الصعيدين الفردي والجماعي"
"والرمز نتاج ذاته وبيئته ويتألق بقدر ما يكون قوة جاذبة"

الأستاذ عز الدين سطاس
في حوار مع الموقف الأدبي

"الجولان مسقط رأسي ومصنع شخصيتي وهو جزء من وطننا الحبيب سورية"

❑ أجرى الحوار: سلام مراد*

الأستاذ عز الدين سطاس كاتب وباحث سوري عضو اتحاد الكتاب العرب ، جمعية البحوث والدراسات ، يكتب الشعر والقصة بالإضافة إلى البحث والدراسات ، نشأ في الجولان هذه البقعة الجميلة التي زُينت بجبل الشيخ (يا جبل الشيخ يا قطر الندي حبيبي بكير لعندك غدي.........) من أغنية لفيروز

اكتسب من أهله التضحية والتواضع وحب العمل، تجلس إليه فتستفيد من دراسته وخبرته وتجاربه وأبحاثه وهو الفخور بتراثه وأصالته وإنسانيته، لأن شخصيته تشكلت في خطين أساسيين هما التراث والمعاصرة تعلم في أسرته الحكمة واكتسب خيالاً أدبياً من خلال قصص الآباء والأجداد وحكاياتهم، ودرس العلم في المدارس فاكتسب مزيداً من الصبر والأناة في الكتابة والمتابعة والبحث الجاد .

لذلك عندما تجلس إليه تجد شخصاً عاركته الحياة فصنعت منه إنساناً هادئاً رزيناً حكيماً تنتظر منه الكلمات كأنها تتساقط كحبات المطر فتروي ظمأ كل عطشان ، يخاطب العقل والقلب فهو الباحث والدارس من خلال العقل وهو الشاعر والقاص من خلال القلب والعاطفة جلسنا معه وكان لنا الحوار الآتي:

---

*إعلامي من سورية.

س1 : سؤال البدايات؛ سؤال تقليدي، لكنه مهم، لأن البداية مهمة؛ متى كانت البداية؛ القراءات الأولى. الكتابات الأولى.

ج1: لاشك؛ ما ذهبت إليه حول أهمية البداية. لكن من يدري كيف ومتى تبدأ هذه البداية. فعلى سبيل المثال:

استدعاني عمي ذات مساء إلى مضافته فارتعبت كان قوي الحضور في المكان والزمان. جسداً وصوتاً وطبعاً كان مهيباً هرعت إليه حالاً. فإذا بضيف عزيز عليه عنده. أمرني من دون مقدمات أن ألقي قصيدة من قصائد المنهاج فما ترددت خوفاً من العاقبة لاحظت عليه أمارات الانشراح، فأحسست بالاطمئنان وراح يطلبني كلما جاءه ضيف فدفعني هذا إلى الاهتمام بالشعر حتى أرفع رأس عمي أولاً وحتى يرضى عني ثانياً فهل هذه بداية...؟! ربما، لقد شجعني من دون أن يدري على تذوق الشعر.

وزارنا ابن عم لي ذات أمسية كان يدللني، وكنت أرى فيه مثلاً أعلى. سألني عما أفعل. قلت له إنني أكتب وظيفة الحساب. أخذ مني الكتاب والدفتر والقلم، وحل التمارين طار عقلي من الفرح، وكيف لا واحتمال أن يخطئ محال. ذهبت إلى المدرسة سابقت الآخرين في حل التمارين على السبورة وأنا واثق كل الثقة من نفسي. فاجأني المعلم بالتوبيخ إلى درجة الصدمة كان الحل خاطئاً فهل ذهبت هذه الصدمة من دون أن تترك بصمات لها علاقة بموضوعنا...؟! لقد شكلت هذه الصدمة عندي صورة تتمثل في أنه ليس كل كبير في السن يعرف أكثر من الأصغر وعلمتني أن اعتمد على ذاتي بالمزيد من القراءة.

عموماً. يمكن أن أقول بأن قراءاتي الأولى بدأت في أواخر المرحلة الابتدائية من خلال مجلة الجندي، التي كان يزودني بها ابن عمي، كما ظهرت مظاهر الإبداع عندي في بدايات المرحلة الإعدادية في مادة التعبير، التي كانت تعرف آنذاك بالإنشاء.

س2: من الأشخاص الذين كانت لهم بصمة أو بصمات في قلبك وعقلك...؟!

ج2: أبي وأمي بتقديس العمل والتضحية والتواضع، والأستاذ عبد الله قبيسي بالغيرة على المصلحة العامة والتفاني في العمل والعصامية، والأستاذ عبد الرزاق الطرابيشي بالغيرة على النظام وتحمل المسؤولية. وآخرون لكل منهم بصمة ما.

س3: برأيك كيف تصنع الرموز...؟! وما أهميتها في حياتنا...؟!

ج3: الرمز ضرورة حياتية على الصعيدين الفردي والجماعي. فهو قدوة ذات رسالة تعبر عن القيم العليا، التي نسعى إلى تحقيقها، فالشهيد رمز البطولة والتضحية والأديب رمز الإبداع الفكري والعالم رمز الإبداع العلمي. والمصلح الاجتماعي رمز الغيرة على الصالح العام، وهكذا.

والرمز نتاج ذاته وبيئته. ويتألق بقدر ما يكون قوة جاذبة. ويبقى ما دام يمثل ثوابت وطنية، أو قومية، أو اجتماعية، أو إنسانية.

س4: أنت كاتب وباحث، وتحب التاريخ حباً جماً. ما الأحداث التاريخية المهمة التي أثرت في شخصيتك...؟!

ج4: إذا كان التاريخ مجرد سرد فأنا لا أحبه. أما إذا كان علماً له قوانين توضح أن ما كان نتيجة طبيعية للظروف والأوضاع التي سادت فأنا أعشقه لأنه يقول الحقيقة التي تحلو بأخذ العبر رغم مرارتها، أنا أرى في التاريخ من أنا، أرى به دربي.

أنا لاجئ أباً عن جد كما يقال فماذا تتوقع أن تكون شخصيتي...؟! لا، لا تذهب بعيداً. أنا لست حقوداً؛ لأنني أخذت العبرة، لأن التاريخ علمني أن الحقد لا يعيد حقي، علمني أن العواطف لا تصنع سيادة لا تبني حضارة.

س5: لك كتابات ودراسات عن الجولان مسقط رأسك ماذا تحب أن يعرف القارئ عن قريتك وعن الجولان....؟!

ج5: نعم. معظم كتاباتي ودراساتي ومحاضراتي حول الجولان ولأكثر من اعتبار ولا غرو في هذا فهو مسقط رأسي ومصنع شخصيتي وهو جزء من وطننا الحبيب سورية وهو كنز وطني وقومي كان مجهولاً إلى درجة أرعبتني فكتبت لأمسح الغبار عنه.

ولدت في القرية العدنانية، في الجزء المحتل من الجولان في موقع استوطن الإنسان فيه منذ القدم. وكانت واحدة من خمس بلدات في الجولان في العصر الروماني وعرفت باسم الصرمان وكتبت عنها كتاباً تحت عنوان واضح الدلالة وهو " العدنانية سيرة خالدة" وهو دراسة شاملة جغرافية وتاريخية وآثارية واجتماعية غنية بالتفاصيل فجاءت لوحة معبرة عن دقائقها كتبت عنها بدافع الوفاء لها. وتعريفاً بها ورداً على الادعاءات الاسرائيلية، التي تروج بأن الجولان كان قبل الاحتلال منطقة لا حياة فيها.

س6: من خلال عملك زادت معرفتك وقراءاتك عن الآخر؛ والآخر أحياناً هو الصديق، أو هو العدو. ماذا أضاف لك الآخر..؟!

ج6: عموماً بينك وبين الآخر علاقة ما، سواء كان صديقاً أم عدواً وبالتالي ثمة إضافة منه قد تكون سلبية أو إيجابية. إنني اعتقد أن معرفة الأخر ضرورة حياتية، ما دامت العلاقة قائمة بالضرورة إذ لا يمكن التعامل معه من دون هذه المعرفة، التي تحدد كيفية هذا التعامل نعم أضاف الأصدقاء الشيء الكثير من الأمور الإيجابية نتيجة خبراتهم المتنوعة وأضاف العدو أموراً أخرى، لعل أهمها هو أن القوة في العلم والعلمانية. لا في العواطف وأن المعلومة مهما كانت بسيطة أو صغيرة يمكن أن توظف في قضية كبيرة. إن أخذ العبر من أي علاقة سلبية مع الآخر إضافة لا تقدر بثمن.

س7: ما هي الرسالة أو المعنى والفكرة التي كنت تريد إيصالها من خلال كتابك الصادر عن اتحاد الكتاب العرب "أزهار الحرية"...؟!

ج7: بكل إيجاز " التعددية بكل أشكالها وأنواعها ظاهرة صحية، في إطار الوحدة الوطنية". لقد تابعت ظاهرة الاستشهاد التي بدأتها البطلة سناء محيدلي إبان الغزو الإسرائيلي للبنان وكانت ظاهرة لافتة للنظر وخاصة مشاركة العنصر النسائي فيها فوجدت أن هذه الظاهرة النضالية الرائعة بدوافعها وأهدافها وغايتها، ليست

محصورة بفئة ما فقد شارك فيها أبطال من أقطار عربية مختلفة ويتوزعون على الديانتين الإسلامية والمسيحية، وعلى مختلف القوى السياسية التقدمية فجاء الكتاب رسالة واضحة تؤكد بأن الانتماء والولاء للقضايا الوطنية مسألة فكرية أساساً.

س8: ما دور المثقف أو الباحث في مجتمعنا، وما وجوه التقصير؛ أين الكاتب والباحث في بلادنا. دوره ووظيفته...؟!

ج8: عموماً يقوم المثقف بمهمة تربوية وتوعوية وأعتقد أن المهمة الرئيسة للباحث تكمن في رؤية ما لايراه الآخرون وذلك من خلال البحث المتواصل عن الحقيقة حقيقة الشيء أو الحدث أو الظاهرة ومواجهتها بجرأة الحكيم الذي يتجرع السم من أجل الحقيقة ونلاحظ هنا ظاهرة غير طبيعية تتمثل في تعامي البعض عن الحقيقة وتعامل البعض معها بغير موضوعية وذلك لأكثر من اعتبار ذاتية وموضوعية إن أخطر ظاهرة أراها في هذا المجال هو: طغيان العاطفة على العقل ومحاولة إخضاع الحقيقة لما نريد وبعبارة أخرى تسييسها إن جاز لنا القول وبالتالي تبقى المشكلات قائمة وتتفاقم على طريق الانفجار بحكم قوانين التراكم ويؤسفني أن أشير هنا إلى إخفاقنا في مواجهة التحديات الكبيرة فعلى سبيل المثال: حصلنا على الاستقلال نتيجة لحمة وطنية رائعة وعجزنا عن تجذيرها رغم مضي نحو سبعة عقود من الحكم الوطني وعجزنا عن تصحيح الكثير من المفاهيم السلبية في التراث إذ ما زال "الكذب ملح الرجال" وما زالت مفاهيم الحق والمساواة والعدل مشوهة، من خلال التمسك بمقولة "انصر أخاك ظالما أو مظلوماً" لقد استبدلنا العصبية القبلية بالعصبية السياسية وكذلك بقي مفهوم الحرية مسألة سيادة شخصية، لا سيادة وطنية أو قومية أيضاً بقي مفهوم الدولة مفهوم مشاع. وكذلك لم نتمكن حتى الآن من تجسيد المفاهيم البناءة للوطن والوطنية والمواطنة.

نحن بحاجة ماسة إلى تحرير الإنسان وبنائه قبل كل شيء فالمجتمع مجموعة أفراد تتعايش ضمن حيز من الأرض (الوطن) على قاعدة المصالح المشتركة المادية منها والمعنوية (الروحية) على حد سواء ولا يمكن تحقيق هذه المهمة الصعبة من دون إستراتيجية تأخذ بعين الحسبان واقع الحال وتقوم على أسس علمية ومرحلية بحكم واقع معادلة الرغبة والقدرة وتسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي تجسد الغاية المنشودة في النهاية كتحصيل حاصل وتبدأ بالضرورة بخلق إنسان يثق بنفسه ويعتمد على ذاته، ويتحمل مسؤولية قراره، ويقدس الكرامة كرامة الفرد والجماعة فالإنسان المهزوز داخلياً عنصر سلبي في كل الأحوال والمجالات.

وباختصار شديد تكمن مشكلتنا في ظاهرتين، لابد من معالجتهما وهما:

1 ـ هامشية أثر الباحث الموضوعي في صناعة القرار ومتابعته.

2 ـ التقليل من أثر القدوة الحسنة في مسائل الانتماء والولاء والبناء. إن بضع مئات من

ذوي القدوة الحسنة أجدى في هذه المسائل من ملايين الفاسدين والمفسدين.

س9: اللغة، اللغة الأم لغة الدراسة؛ لغة العلم لك أبحاث كثيرة في نشوء وتطور اللغات، نريد منك أن توضح وتبين للقارئ ولو جزءاً يسيراً من أبحاثك ودراساتك...؟!

ج9: قرأت ذات يوم كتاباً حول فقه اللغة العربية فشدني وحظي باهتمامي ولا سيما الفصل المتعلق بنشأة اللغات والنظريات التي تناولتها فرحت أبحث عن كتب أخرى، لأستزيد وأكون صورة أشمل وأدق ودفعني ما وجدت في هذه الكتب إلى العودة إلى اللغة الشركسية لغة أجدادي واكتشفت أموراً في غاية الأهمية.

بدأت أبحث عن القاسم المشترك بين بعض اللغات على قاعدة العلاقات التاريخية بين أصحابها المعززة بالسند التاريخي واللغوي والحضاري فتوصلت إلى نتائج أولية يمكن إيجازها في أنه " لا توجد لغة نقية، ولا أمة نقية ولا حضارة نقية وأن نظريات نشأة اللغات، تتكامل مع بعضها إلى حد ما باستثناء نظرية التوقيف.

أعمل منذ أعوام على إعداد كتاب حول فقه اللغة الشركسية، وعلاقتها ببعض اللغات الأخرى، ولا سيما اللغة العربية وقطعت فيه أشواطاً بعيدة وألقيت محاضرات نشر بعضها حول المفردات العربية في اللغة الشركسية واسم المكان في هذه اللغة والدلالات التاريخية والدينية والحضارية فيها وقدمت بحثاً عن اللغة الشركسية واقعها وآفاقها إلى المؤتمر الأول لهذه اللغة، الذي انعقد في عمان منذ عدة سنوات.

س10: من خلال تجربتك وجولاتك الجغرافية والبحثية...؟! الشرق والغرب، أين يلتقيان؟ وأين يفترقان؟

ج10: سياسياً، يلتقيان عندما تتوازن معادلة الحقوق والواجبات ويفترقان عندما تصاب هذه المعادلة، بخلل لصالح أحد الطرفين فالالتقاء رهن مدى التزام الطرفين باستحقاقات مسألتي الحق والواجب وشعبياً لا توجد مشكلة تحول دون اللقاء، حتى لو اختلفت مفاهيم الحياة وأنماطها والعادات والتقاليد زرت العديد من البلدان ووجدت المشكلة حصراً في السياسة.

س11: سؤال الكتابة، المعنى والمبنى ودور الكتابة والكلمة، في التأثير والتأثر، وفي حياة الشعوب..؟!

ج11: الكتابة أسلوب ومضمون وتتكامل جمالياً وغاية، مع تضافر عدة عوامل تشكل في مجموعها قوة جاذبة، وهي:

ـ الأسلوب السهل والسلس المعزز بعبارات ذات وقع جمالي شكلاً ومضموناً

ـ الحبك المثير لانتباه القارئ.

ـ الإغناء بما أمكن من الشواهد المناسبة من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة إلى العبر والرموز التاريخية والأسطورية وقوانين الطبيعة.

ـ المضمون الذي يتناول قضايا تهم الإنسان.

ـ القدرة على الإقناع بصدقية الكاتب ومنطقيته في المعالجة والحل.

ـ إيصال الغاية بالإيحاء في الأدب والأسلوب

المباشر المعزز بالبلاغة في البحث وتزداد قدرة الموهبة على التعبير الأمثل بتوفر عوامل منها:

1 ـ المعرفة الجيدة بخصائص اللغة وطبيعتها فاللغة أساس الكتابة.

2 ـ الخيال الواسع في مجال الأدب

ـ المعرفة المتنوعة، الغزيرة نسبياً سواء عن طريق الكتب أم عن طريق التجربة الشخصية.

ـ الموضوعية في مجال البحث.

وحول أثر الكتابة أقول: الكلمة معرفة والمعرفة أمضى سلاح في مواجهة التحديات التي يواجهها الإنسان ومن هنا جاءت محاولات قمعها من قبل بعض الأنظمة منذ أن أخذت دورها في إضاءة الدروب المجهولة ونجد في التاريخ أوضح دليل على أهميتها ودورها في حياة الأفراد والشعوب لقد انفتحت آفاق التطور والإبداع أمام الإنسان، حين اخترع الكتابة وأخذ بها وهي بقدر ما تؤثر في الحياة تتأثر بها.

س12: لماذا أخفقنا في عصرنا الحالي و ْبج الآخرون على صعيد المجتمع والدولة والتطور...؟!

ج12: النجاح والإخفاق مسألة نسبية قابلة للتغيير وسأختصر الإجابة لأنها طويلة:

ـ استهترنا بالقيم العليا في حين قدسها الآخرون، ولاسيما قيم العمل واحترام الذات الذي لا يكتمل من دون احترام الآخرين.

ـ رأينا الحقيقة مرة فهربنا منها بينما آثروا مواجهتها إيماناً بأن مراراتها دواء.

ـ قدسنا " أنا القبيلة" وقدسوا " أنا الوطن".

ـ نظرنا إلى الماضي بقلوبنا، ونظروا إليه بعقولهم.

ـ فهمنا الحرية بأنها حق سيادة الفرد على الجماعة وفهموا بأنها حق سيادة الجميع.

ـ ضيقنا الخناق على السؤال خوفاً من الجواب في حين أطلقوا العنان له إيماناً بروعة الإجابة.

ـ رأوا في الآتي أحلى، فتسابقوا على الترحيب به ورأينا القادم أعظم فلجأنا إلى الظلام لعله يسترنا فأخفانا.

س13: تكتب الشعر والقصة بالإضافة إلى البحث والدراسة، عملك وحبك وشخصيتك كيف استطعت التوفيق في كتاباتك بين العاطفة والعقل...؟!

ج13: بدأت الكتابة بالشعر والقصة ومن ثم انشغلت بالبحث والدراسة بحكم عملي في مؤسسة بحثية لمدة طويلة استهواني البحث لأنه يكشف لك الحقائق ومؤشراتها فترى ما لا يُرى وأحببت الشعر والقصة لأنك تعبر من خلالهما عن مشاعرك، فتحس بالراحة فهل أجبت بهذا عن السؤال....؟!

الإنسان عاطفة وعقل بالضرورة وتملي الحكمة التوفيق بينهما من أجل تحقيق التوازن الداخلي الذي لا تكتمل السعادة من دونه إن لم نقل لا سعادة من دونه وقد نجحت إلى حد ما في التوفيق في كتاباتي بين العاطفة والعقل من خلال توظيف العلاقة التبادلية بينهما.

س14: رسالتك للقارئ والكاتب السوري والعربي..؟!

ج14: أقول للقارئ الكريم أن يقرأ من دون كلل أو ملل فالمطالعة حياة أخرى، ولاسيما حين نسعى إلى اكتشاف ما أخفاه الكاتب

لأي اعتبار كان. فما كل ما يعرف يقال مباشرة إن كل قصيدة أو قصة أو بحث تجربة مفيدة. ونصيحتي للزميل الكاتب: لا تهرول إلى الشهرة ستركع لها دع الشهرة تأتي إليك ستركع لك، والعبرة في النوع لا في الكم والجمال في تكامل لوحة المبنى والمعنى.

سيرة عز الدين سطاس

- مواليد قرية العدنانية / الصرمان/ السلمنية بالجولان عام 1943.
- إجازة في الجغرافية ـ جامعة دمشق.
- معلم ومدرس خلال المدة (1963- 1974)
- مدرس في الجزائر خلال المدة (1969-1973).
- ضابط خلال المدة (1974 ـ 2001) حيث أحيل على التقاعد برتبة عقيد.
- مدير مجلة الأرض للدراسات الفلسطينية بدمشق خلال المدة (1986 ـ 2005).
- رياضي قديم، حيث نال بطولة الجمهورية في رمي الرمح في صيف عام 1961، واحتفظ بها لسنوات عديدة، وكان عضواً في منتخبي القنيطرة لكرة القدم، ومدارس دمشق لكرة اليد.
- عضو اتحاد الكتاب العرب في سورية ـ جمعية البحوث.
- أمين سر فرع اتحاد الكتاب العرب بالقنيطرة ـ خلال المدة (2004- 2010) و (2014- .....).
- عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق.
- شغل عضوية الهيئات الآتية:

ـ هيئة باحثي مركز الشرق للدراسات بدمشق

ـ هيئة تحرير فصلية الجولان الثقافي.

ـ مجلس إدارة جريدة الجولان.

- رئيس هيئة تحرير مجلة آلبروز، خلال المدة نيسان (2006) ـ نيسان (2010).
- باحث في شؤون الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وقضية الشركس.
- يترجم عن اللغة الشركسية، ويهتم بهذه اللغة، وكذلك التراث الشركسي.
- يكتب القصة والخواطر الأدبية باللغتين العربية والشركسية.

صدر له:

1ـ الجولان ـ دراسة مختصرة.

2ـ شمال القفقاس، تنوع في إطار الوحدة ـ دراسة.

3ـ إسرائيل: سياسياً، اقتصادياً، اجتماعياً، بالاشتراك مع السيد زياد العواك ـ دراسة.

4 ـ عائشة ـ شارلوتا، مسرحية مترجمة عن اللغة الشركسية.

5 ـ من الأدب الشركسي، حكايات شركسية قديمة، ترجمة عن اللغة الشركسية.

6ـ الشركس حضارة ومأساة ـ دراسة وترجمة عن اللغة الشركسية.

7ـ العدنانية، سيرة خالدة ـ دراسة.

8ـ أزهار الحرية، مجموعة خواطر أدبية.

9ـ المسيح في الجولان، بالاشتراك مع السيد تيسير خلف ـ دراسة.

10ـ المرجع في الجولان، بالاشتراك مع مجموعة من الباحثين ـ دراسة.

- أعد خريطة للقسم الشمالي الغربي من القفقاس، أعاد فيها الأسماء الشركسية للعشرات من المعالم والمواقع الطبيعية والعمرانية، في هذه المنطقة.
- نشر العشرات من البحوث والدراسات والتقارير التحليلية، والأعمال الأدبية، في العديد من المجلات والصحف العربية منها:
- الحياة ـ الخليج ـ الأسبوع الأدبي ـ الآداب الأجنبية ـ الموقف الأدبي ـ الفكر السياسي ـ شؤون عربية ـ الأرض ـ الجولان الثقافي.
- محاضر في العديد من الندوات الفكرية، والسياسية داخل سورية وخارجها.
- أعد العديد من المواد لإذاعة دمشق، خاصة بالصراع العربي ـ الصهيوني، بث بعضها باللغتين الروسية والعبرية.
- شارك في ندوات تلفزيونية في التلفزيون العربي السوري، وفضائيات أخرى.

❑❑

قــراءات نقــدية ..

مؤثرات في إبداع ماركيز ..

❑ د. ماجدة حمود*

رحل ما ركيز عن عالمنا فافتقدنا الروائي والقصاص والصحافي وكاتب السيناريو السينمائي، غادر بلاده (كولومبيا) وعمل مراسلا صحفيا في باريس ومكسيكو وكاراكاس وبرشلونة، قبل أن يستقر لسنوات طويلة في المكسيك، ثم عمل مراسلا لوكالة الصحافة الكوبية "برنسا لاتينا" في نيويورك، نقلت قصص كثيرة من تأليفه إلى السينما، وكانت من أولاها "لا يوجد لصوص في القرية" من إخراج المكسيكي ألبيرتو إساك، وقد شارك غارسيا ماركيز نفسه في تمثيل هذا الفيلم إلى جانب خوان رولفو ولويس بونويل.

نال جائزة نوبل للآداب (1982)

من أبرز أعماله:

في الروايـــــة: "الأوراق المتــساقطة" (1955) "لـيس لـدى الكولونيـل مـن يكاتبـه" (1961) "سـاعة الـشؤم" (1962) "مئـة عـام مـن العزلـة" (1967) "خريف البطريرك" (1975) "قصة موت معلــن" (1981) "الحــب في زمـــن الكـــوليرا" (1985) "الجنرال في متاهته" (1989) "عن الحب وشياطين أخرى" (1994) "خبر اختطاف" "ذاكرة غانياتي الحزينات" (2004)

في القـــصة القـــصيرة: "مـأتم الأم الكـبيرة" (1962) "إيزابيل ترى هطول المطر في ماكوندو" (1967) "الحكايـة العجيبـة إرينـديرا الـساذجة وجـدتها القاسـية" (1972) "عينـا الكلـب الأزرق" (1972) "اثنتا عشرة قصة مهاجرة" (1992)

كتابات نثريـة متنوعـة: "قصة بحـار غريـق" (1970) "عنــدما كنــت ســعيدا وبــلا هويــة" (1973) "عــن رحلــة إلى البلــدان الاشــتراكية" (1978) "مغامرة ميغيـل ليتين الـسري في تـشيلي" (1986) "كيف تحكى حكاية" "بائعة الأحلام" "نـزوة القص المباركـة" (ثلاثة كتب صدرت عـن ورشـة غارسـيا مـاركيز لكتابـة الـسيناريو (1995)(1)

* باحثة أكاديمية من سورية.

لمحة عن حياة ماركيز:

يبدأ غابرييل غارسيا ماركيز مذكراته "عشت لأروي" بحدث ترك أثره على حياته الروحية، وهو طلب أمه أن يرافقها في رحلة لبيع (بيت جده) القديم الذي ولد فيه عام (1928) في قرية (آركاتاكا) الكولومبية، فكانت رحلة حنين إلى زمن الطفولة، حيث عاش في بيت الجدين بعيدا عن والديه ثمانية أعوام(2).

أنقذته تلك الرحلة، على حد قوله، من هاوية الفقر والفشل وسوء الطالع! فقد أيقظت ذكرياته ومشاعر تاهت منه في زحمة الحياة! مما حفّزه على إعادة النظر في كتاباته الإبداعية، ومقاومة إحساسه بالفشل!

مؤثرات أسهمت في تكوينه:

1ـ لقاء الغرائبية والواقعية في طفولته:

كان للحياة في ذلك البيت مع جديه أكبر الأثر في تكوين شخصيته وتأسيس ثقافته، فقد عايش بفضل النساء من الأقارب والخدم القصص الغرائبية والخرافية حتى بدت جزءا من واقعه اليومي! فبات يتحدث عنها بإيمان مطلق، بصفتها جزءا حيويا من تفاصيل الحياة! وهذا ما لاحظناه في الجزء الثاني من مذكراته حين تحدث عن (ريوهاتشا: مدينة الرمل والملح) "حيث ولد أسلافي منذ جدي الثالث، وحيث رأت جدتي عذراء المعجزات تطفئ الفرن بنفحة جليدية، حين أوشك خبزها أن يحترق..."(3)

وبذلك عاش حياة مترعة بأحاديث الخوارق، التي تجاوزت في بيئته حدود المحكي من القصص والأقوال إلى حدوث الأفعال المؤثرة في حياة، الفرد والمجتمع، وقد لمس بنفسه دور الخرافة في القضاء على الكوارث، فمثلا حين هاجمت أسراب الجراد، وكأنها "ريح أحجار..." ردد الناس في قريته: بأنه لم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بفنون الشعوذة.(4) كما تغلغلت الخرافة تفاصيل حياة أسرته، فأثرت عليها، واضطرتها لترك مسكنها الذي قتلت فيه امرأة، بسبب خوف أفراد العائلة من زياراتها الليلية للبيت! فأثرت مثل هذه التهيؤات والخرافات في تكوين وجدانه ومخيلته.

وهكذا فإن انتقاله للحياة مع والديه وأخوته (بعد سن الثامنة) لم يعفه من العيش في عالم غرائبي، فنضج وعيه في وسط حمى الإبداع، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة محتملة دائما، وهو يذكر مثالا على ذلك أنه كان يتحدث مع والده حول الصعوبة التي يعيشها كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما يفقدون القدرة على تذكر أي شيء، فتدخل أخوه (كوكي) ببساطة، ولم يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال: "يجب على الكاتب إذن أن يبدأ بكتابة مذكراته أولا وهو ما يزال يتذكر كل شيء."(5)

ولعل مما أغنى مخيلته أنه عرف في طفولته نمطين متناقضين للحياة (الوفرة والفقر) إذ اضطر والده إلى ترك أسرته بحثا عن لقمة العيش عدة مرات، جاءت الأسرة في إحداها لتعيش في بيت الجد، فكانت كلمة (الفقر) أكثر الكلمات ترددا فيه، حتى اضطر الجدان إلى إلغاء طقس الغداء للضيوف المجهولين، إذ كان أيام الوفرة يقدم على عدة دفعات كي يستوعب العدد الكبير من الضيوف.

2_شغف المعرفة والتنوع الثقافي:

حين رآه أحد أقاربه منكبا على القراءة بشغف في مكتبة جده، وهو مازال صغيرا، تنبأ قائلا: "هذا الطفل سيصير كاتبا" ومثل هذه النبوءة ستسهم في زيادة شغفه للمعرفة، وتدفعه إلى الاندفاع نحو تحقيق موهبته.

شاع صيته في المدرسة الداخلية (التي بقي فيها أربع سنوات) بصفته شاعرا، وقد كان أول ما نشره (في مجلة "الشبيبة" لسان حال تلاميذ المدارس) أهجيات نظمها في زملائه، نالت إعجاب أساتذته وأصدقائه، مما عزّز ثقته بنفسه.

كما أتاحت له هذه المدرسة الإبحار في المجتمع، الذي يسير بلا بوصلة عكس التيار، فأغنت عالمه ومعارفه، وقد استطاع أن يعايش فيها طلابا من أماكن شتى، فامتلك بفضل ذلك مفتاحا يفتح كل أبواب مهنته بصفته كاتبا.

بعد أن نال الثانوية سجل في كلية الحقوق في الجامعة مكرها، إرضاء لوالديه، حاول أن يقنعهما بعد أن اجتاز السنة الثانية بعدم رغبته في إتمام تعليمه، رغم أنهما عقدا عليه الآمال وأنفقا عليه الأموال التي يجمعانها بصعوبة، إذ كان الأب على استعداد ليغفر له أي شيء ماعدا عدم تعليق شهادة جامعية حرم منها! لكنه تجرأ وواجه أمه في العشرين من عمره قائلا: **"إن الشيء الوحيد الذي أريده في الحياة أن أكون كاتبا، وسوف أصير كذلك."**

بدأ علاقة وثيقة مع الكتاب منذ تفتح وعيه، فقد اطلع على الكتب التي تحويها مكتبة جده، وكان أول ما قرأ "ألف ليلة وليلة"، فوقع في أسر هذا العالم الغرائبي الذي هو استمرار لعالم يعايشه بشكل يومي في بيئة لا تفرق بين الوهم والحقيقة! وأكثر القصص التي أعجبته، قصة صياد يعد جارته أن يقدم لها أول سمكة يصطادها إذا قدمت له قطعة رصاص لشبكته، وحين تشق المرأة السمكة لتقليها تجد فيها ماسة بحجم حبة لوز، وقد أعجب بها مع أنها أقصر القصص وأبسطها، وستبقى هذه القصة تبدو له الأفضل طوال ما تبقى من حياته، على حد قوله!

وقد أمدته مكتبة المدرسة بالكتب، فقرأ "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونت كريستو" التي التهمها حرفا حرفا، متلهفا لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي، متلهفا في الوقت نفسه إلى عدم معرفة ذلك حتى لا أكسر السحر، لذلك يقول عنهما **"تعلمت منهما مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة ما لن أنساه أبدا، بأنه يجب أن نقرأ الكتب التي تجبرنا على أن نعيد قراءاتها."(6)**

أما دون كيخوته" فلم تعجبه في البداية، ربما لأنها كانت واجبا مدرسيا فرضت قراءته، لكنه فيما بعد استطاع أن يتذوقه.

لفت نظره كافكا في "المسخ" إذ لازمته لهفة لا تقاوم من أجل العيش في ذلك الفردوس الغريب، حتى إنه حاول أن يشبه موظفه المسكين الذي تحوّل إلى صرصار ضخم، وكذلك أعجب بفرجينيا وولف، بورخيس، همنغواي.

وقد توحّد (ماركيز) مع الروائيين الذين ينتمون إلى الجنوب الأمريكي (من أمثال فوكنر) بسبب ما تلمّسه لديهم من تشابهات متنوعة مع ثقافة الكاريبي، وقد ترك ذلك أكبر

الأثر في تكوينه بصفته كائنا بشريا وكاتبا.

ومما أثّر في تكوينه أيضا أنه انتقل للعيش في مدينة (بارانكيا) بعد أن اجتاز المرحلة الثانوية، مما أتاح له فرصة اللقاء بمجموعة من الصحفيين والأدباء والرسامين، ساعدته على التطور، وبثّت في نفسه الحماسة التي سوف تكفيه إلى الأبد، على حد قوله، وكان من بينهم (دون رامون) الذي قدّم له نصائح ثمينة في الإبداع الروائي، إذ بيّن له أن عليه أن يكون واعيا بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات ليست موجودة إلا لاستذكارها، وهكذا يتوجب عليه أن يخوض صراعا بين زمنين(7) زمن الحدث (الماضي) وزمن الشخصية (الحاضر).

3_الصحافة:

بدأ العمل في الصحافة منذ وقت مبكر، بعد أن حاز الشهادة الثانوية، ومع أنه بدأ حياته الأدبية بالقصة القصيرة، لكن الذي ساعده على البقاء حيا، على حد قوله، هو تلك المكافأة التي كانت تدفع له مقابل ملاحظاته الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"

وقد مارس جميع الأعمال الصحفية (كتابة زاوية يومية، افتتاحية، مقالة في الأدب أو النقد أو السينما، بالإضافة إلى كتابة التحقيق الصحفي في الحوادث وفي الرياضة والمغامرة والحرب...)

ويبدو أن التحقيق الصحفي (الريبورتاج) كان من أقرب الفنون الصحفية إلى نفسه، حتى إنه يراه والرواية ابنين للأم نفسها.

استطاع (ماركيز) أن يلفت الأنظار إلى موهبته الصحفية والأدبية حين كتب تحقيقا صحفيا عن ناجٍ وحيد من الغرق في سفينة حربية، دون أن يستخدم آلة تسجيل، فقد كانت كبيرة الحجم، كأنها آلة كاتبة، رغم أنه يقرّ بفائدة استخدامها في التذكر إلا أنه يؤكد ضرورة الاهتمام بملامح وجه من نقابله، إذ يمكن أن تعبر أكثر من الصوت، والعكس بالعكس أحيانا، لذلك كان يكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي، لكنه بفضل هذا الأسلوب لم يضيّع كلمة واحدة ولا أي نبرة من المحادثة، وبذلك استطاع أن يتعمق بصورة أفضل في كل خطوة يخطوها التحقيق الصحفي، وقد حوّل هذا التحقيق إلى رواية "قصة غريق" كما حوّل تحقيقا آخر في مقتل أحد جيرانه إلى رواية "حكاية موت معلن" نشرها بعد ثلاثين سنة من حدوثها، أجلّه بناء على رجاء أمه وتحوّل تحقيق ثالث إلى قصة "نبأ اختطاف"(8)

وقد ساعده التحقيق على رسم الشخصية الروائية، إذ تعلّم بفضله تأمل الإنسان وهو يتحدث، فيتتبع نبرة صوته وملامح وجهه، ويشحذ ذاكرته، كي تمده بتفاصيل دقيقة للإنسان في حركته وفي صوته وفي طريقة تفكيره.

إذاً بفضل الصحافة اقترب من الرواية، خاصة حين كان صديقه (ألفونسو) ينتقي القصص البوليسية أو يترجمها، ثم يخضعها (ماركيز) إلى عملية تبسيط شكلية، أفادته فيما بعد في كتابته الإبداعية، إذ تعلّم كيف يلخص تلك القصص لتتناسب مع المساحة المخصصة لها في الصحيفة، فتعلّم الاقتصاد ليس فقط بالكلمات، وإنما في حذف ما هو غير ضروري من الأحداث أيضا، كي تبقى القصة في جوهرها الخالص، دون الانتقاص من قدرتها على

الإقناع، مما يعني شطب كل ما هو فائض عن الحاجة في جنس أدبي جائر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع البناء، لهذا يصرح (ماركيز) بأن **"ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في تحرياتي الموارية لتعلّم تقنية حكاية قصة."(9)**

كذلك كانت زاويته الصحفية اليومية (الزرافة) تمرينا هاما على الكتابة، إذ فرضت عليه حرفية الكتابة اليومية، فبدأ معها تعلّم الكتابة من الصفر.

لعل أهم ما يميّز (ماركيز) هو ذلك الطموح الضاري والعنيد في أن يكون كاتبا مختلفا سواء أكتب في الصحافة أم في الأدب!

4_السينما:

شغف بالسينما منذ طفولته المبكرة بسبب جده الذي كان يصطحبه ، رغم اعتراض جدته، بشكل دائم إليها، وقد عزّز ملكة القص لديه طلب جده أن يقصّ على أقاربه في البيت أثناء الطعام قصة الفيلم، فيصحح نسيانه وأخطاءه، ويساعده على إعادة المقاطع الصعبة، مما ساعده على تفهم الفن الدرامي، وأغنى مخيلته، مما شجعه على رسم قصص مسلسلة قبل أن يتعلم الكتابة.

توثّقت عرى علاقته بهذا الفن بفضل صديقه (ألفارو) الذي قدّم له دورة تعليمية حين عاد من دراسته للسينما في الولايات المتحدة، وبيّن له أن اسم المخرج هو الأهم، بعد أن كانت السينما في نظره كتابة سيناريو وتحريك ممثلين، وبدأ يحلم وصديقه بصنع سينما في كولومبيا، وبتشجيع من أصدقائه مارس النقد السينمائي وكتب زاوية صحفية ثابتة فيه.

بالإضافة إلى ذلك قام باقتباس رواية وتحويلها إلى تمثيلية إذاعية، وقد كانت تجربة مفيدة بسبب عدم خبرته في شؤون الحوار، وهو برأيه مازال نقطة ضعفه، لهذا وجد في هذه التجربة فرصة مفيدة من أجل التعلّم أكثر مما هي في الكسب المادي.

وقد أضحت السينما تشكل جزءا هاما من تكوين (ماركيز) وجزءا من هاجسه الفني، فقد أسس فرق (ورش) عمل سينمائية، ومارس كتابة السيناريو والإخراج، ووجدناه ينتهي (1995) من إعداد صياغة جديدة لرائعة سوفوكليس "أوديب ملكا" للسينما، وقد ألّف بهذا الفن عدة كتب، صدر منها بالعربية ("كيف تحكى حكاية" "نزوة القص المباركة" "بائعة الأحلام")(10)

ولشدة إعجابه بهذا الفن نجده ينشئ معهدا للسينما في هافانا راصدا له مبلغ جائزة نوبل للآداب التي فاز بها (1985) وبات محاضرا فيه.

5_النقد وتطور الممارسة الإبداعية:

بذل (ماركيز) جهدا كبيرا في سبيل المعرفة، منذ وعى رغبته في الكتابة وتأكد من موهبته فيها، فبدأ يقرأ بطريقة حرفية نقدية، وحاول أن يتجاوز مرحلة القراءة للمتعة فقط! إذ اضطرم في داخله فضول لا يرتوي لاكتشاف كيف كُتبت أعمال الحكماء التي أسرته، لذلك نجده يقرؤها بصورة سوية، ثم بالمقلوب، وأخضعها لنوع من نزع الأحشاء الجراحي بغية التوغل في أشد أسرار بنائها خفية، على حد قوله، فقام بإعادة قراءة "يوليسيس" لجيمس جويس و"الصخب والعنف" لفوكنر مسلحا برؤية

نقدية، عندئذ تكشّف له الكثير مما بدا، في السابق، متحذلقا ومعلناً عن جمال وبساطة جارفتين، لذلك يعترف، في بداياته الإبداعية، بمحاولته تقليد فوكنر في روايته "بينما أرقد محتضرا" حيث تتوالى تأملات أسرة كاملة بمحتضرة، وفكر في جعل الحوار الداخلي (المونولوج) يشمل القرية كلها، مثل جوقة إغريقية تروي بطريقة فوكنر، لكنه لم يتجرأ على تكرار أسلوبه البسيط في الإشارة إلى أسماء الأبطال عند كل متكلم، مثل النصوص المسرحية، فقلّل عدد الشخصيات واقتصر على ثلاثة أصوات (الجد والأم والطفل) حتى يسهل تحديد هوية المتكلم تلقائيا عن طريق نبراتها ومصائرها المختلفة جدا، وقد كان لديه وعي نقدي جعله ينتبه إلى أنه يستمد شخصياته من سيرته الذاتية، فالجد لن يكون أعور مثل جده، وإنما أعرج، ستكون الأم ذاهلة مثل أمه، والطفل مرعوب ومتأمل مثلما كان في مثل سنه، ولم يكن ذلك لقية إبداعية بأي حال، وإنما مجرد وسيلة تقنية.

وقد لاحظنا تنويع معارفه، حتى حوّل مكتبته إلى أداة عمل غير متخصص، حيث يمكنه أن يجد فصلا لدوستويفسكي، وفي الوقت نفسه كتابا حول مصرع يوليوس قيصر، أو حول آلية مفحّم السيارة، أو مرجعا عن الاغتيالات المحكمة(11).

وقد استطاع أن يتأكد من أن موهبته الحقيقية تكمن في القص منذ اجتيازه المرحلة الثانوية، حتى إن أصدقاءه كانوا يستغربون انكبابه على كتابة القصص القصيرة في بلاد يعدّ الشعر فيها الفن الأكبر، وقدّم (ماركيز) في مذكراته دليلا على أن لديه وعيا بميوله القصصية، إذ إنه لم يحتفظ بالأشعار التي كتبها في المعهد، مع أنها نشرت دون توقيع أو بأسماء مستعارة.

ورغم أنه كتب الرواية في الثالثة والعشرين من عمره إلا أنه لم يقبض مكافأة حقوق المؤلف التي تتيح له العيش من قصصه ورواياته إلا بعد أن تجاوز الأربعين، وبعد أن نشر أربعة كتب بعوائد زهيدة، وقبل ذلك كانت حياته مضطربة على الدوام، حتى إنه شبهها بشبكة معقدة من المصايد والذرائع والأوهام، حاولت تحويله إلى أي شيء آخر سوى أن يكون كاتبا! لكنّ عناده وصبره ساعداه على التخلص من عقبات كثيرة عرقلت مسيرته الإبداعية!

صحيح أنه كان لديه اقتناع بسوء طالعه الذي لا خلاص منه، وخاصة مع النساء والنقود، لكن ذلك لم يكن يهمه، فقد كان يؤمن في مجال موهبته أنه لا يحتاج إلى حسن طالع كي يكتب بصورة جيدة!(12) بل إلى ثقافة ومران وعدم يأس.

ومما صقل موهبته أنه كان في مدينة (بارانكيا) محاطا بأصدقاء مثقفين (صحفيين، شعراء، رسامين، نقاد) يخلصون له النصيحة والنقد، حتى إنه يستخدم لقب "المعلم" حين يتحدث عن أحدهم، وقد وجدناه في مذكراته يعترف بفضلهم عليه حتى اليوم **"كيف يمكن لحياتي أن تكون من دون قلم المعلم ثابالا."** كانوا لا يجاملونه، وقد نقل لنا مشهدا أطلع فيه صديقه الناقد (خيرمان بارغاس) على مقال كتبه متسرعا في زاويته اليومية (الزرافة) وكان أفراد الجماعة مع ماركيز "ينتظرون حكمه

بنوع من الرعب التوقيري...فمزّق الناقد المقالة نتفا صغيرة، دون أن ينظر إليه، ودون أن ينطق بكلمة واحدة ونثرها في قمامة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنفضة، لم يقل أحد شيئا، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجرِ التعليق على الحادث في أي وقت آخر، ولكن (ماركيز) يصرّح بأن "**الدرس الذي تعلّمته مازال ينفعني حتى الآن، كلما داهمني بسبب الكسل أو التسرع إغواء كتابة فقرة متسرعة لكي أخرج من مأزق.**"(13)

وبعد أن نشر قصة في كبرى الصحف سمع رأيا لصديقه الناقد (أوليسيس) سيلازمه مدى حياته "**هذه القصة صارت من الماضي، المهم الآن هو القصة القادمة.**" وقد اعترف (ماركيز) أنه لم يسمع أذكى من نصيحته تلك، كما علّمه أنه لابد من وضع تصور للقصة، وبعد ذلك يأتي الأسلوب، كما بيّن له بأنه بحاجة إلى قراءة معمّقة وشاملة للكتاب الإغريق.

رغم أن روايته الأولى "عاصفة الأوراق" قد رُفضت، لكنه لم ييأس بل وجدناه يعيد النظر فيها، فيعكف على تصحيحها من جديد استنادا إلى النتائج النقدية التي توصل إليها بعد استشارة أصدقائه، فتأمل ثانية بنية الرواية، وألغى مقطعا مطوّلا عن البطلة التي تتأمل ممرا من أزهار البيجونيا تحت وابل مطر يستمر ثلاثة أيام، وحذف حوارا غير ضروري للجد مع الكولونيل (أوريليانو بويندبا) وحوالي ثلاثين صفحة تشوّش شكلا ومضمونا البناء الموحد للرواية، وبعد عشرين سنة حين كان يظن أنه نسيها ساعدته أجزاء من تلك المقاطع في تدعيم حالات الحنين في رواية "مئة عام من العزلة"

نستطيع هنا أن نلاحظ بأن ماركيز لم ينشر روايته المبدعة "مئة عام من العزلة" إلا بعد أن عانى هموم الكتابة مدة عشرين سنة، مما صقل موهبته، فازدادت خبرته الأدبية والنقدية!

وقد كان لتشجيع أصدقائه من المثقفين دور في تعزيز ثقته بنفسه، صحيح أن روايته الأولى رُفضت إلا أنه وجد عزاءه في كتاب الرفض الذي أثنى على موهبته "**لابد من الاعتراف للمؤلف بمواهبه الاستثنائية كراصد وشاعر**"

علّمته صداقة النقاد والمثقفين، كما علّمه الفشل، المراجعة الدقيقة لما يكتب، حتى إنه بات يرى أن قيمة أي عمل أدبي تقاس بعدد مسوداته، أي بمدى التنقيحات التي أجراها المبدع! وبمدى نضج الرؤية النقدية التي يمتلكها! لهذا كان يلازمه إحساس بالخوف كلما أنجز كتابا، إذ يؤرقه أن يكون عاجزا عن كتابة آخر أفضل منه، فالاستمرار في الكتابة لا يعني شيئا حين لا يشكل تطورا في مسيرة المبدع الفنية.

وعلى نقيض ما يرى بعض الكتاب في مقص الرقيب، فقد شكل لدى ماركيز "**تحديا خلّاقا**" فالتحايل عليه يدفع المبدع إلى الابتكار، وقد وصفه لنا في مذكراته وصفا مدهشا، إذ كان يعيش باحتراس أكثر من الكتّاب، بسبب هوسه في الملاحقة، فالاقتباسات من كبار المؤلفين تبدو له مكايد مريبة، وهي كذلك بالفعل، في أحيان كثيرة، لقد كان يرى أشباحا، فهو كويتب تافه يفترض معاني متخيلة."(14)

6_ ممارسة النقد الذاتي لدى ماركيز:

لاشك أن التصويبات الكثيرة التي يجريها (ماركيز) على إبداعه تعدّ نوعا من النقد الذاتي

الذي يمارسه الكاتب نتيجة وعي نقدي يمتلكه بفضل الثقافة والخبرة في مجال الإبداع.

وقد عرف عن (ماركيز) تميّزه بالقراءة الواعية للأعمال الأدبية التي أثارت إعجابه، ومثل هذه القراءة زوّدته بخبرة نقدية، وأسهمت في تطوّر وعيه النقدي، فمثلا إثر انبهاره في بداية حياته بـ"ألف ليلة وليلة" كان يظن أن العجائب التي ترويها شهرزاد تحدث فعلا في الحياة اليومية في عصرها، ولم تعد تحدث في عصره بسبب عدم تصديق الأجيال التالية وجبنها الواقعي، لهذا يقول: كان يبدو لي من المستحيل للسبب نفسه أن يصدق أحد في عصرنا أنه يمكن الطيران فوق المدن والجبال على متن بساط، أو يعاقب عبد بالعيش مئتي سنة في قارورة **"اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادرا على جعل قرائه يصدقون ذلك."**

إذاً أدرك منذ وقت مبكر أن اللعبة الفنية هي الأساس في تصديق المتلقي للعالم الغرائبي أو عدم تصديقه، وبذلك تعلّم من "ألف ليلة" أهمية تلك اللعبة الفنية.

كما زوّدته القراءة الواعية بفهم عميق لأسباب تفوّق تلك الأعمال، مما جعله يمتلك رؤية ناقدة تقارن بين أعماله وأعمال الآخرين، فقد لاحظ أنه عندما كتب روايته الأولى اهتم بالتقنية أكثر من الموضوع، وبعد سنة من العمل مستمتعا اكتشف أن ما كتبه هو متاهة دائرية بلا مدخل ولا مخرج ، وبفضل امتلاكه رؤية نقدية نافذة، تؤسسها ثقافة واعية استطاع أن يحدد سبب فشلها بنفسه، إذ كان متأثرا بتيار تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية، الذي قدّم نماذج تجديد في بداياته، لكنه تحوّل إلى التحجر في موضوعات وطنية كبرى، التي حاول هذا التيار أن يشقّ مخرج طوارئ عبرها، ففشل إذ تحولت بدورها إلى مستحاثات، وأدرك أن ما ينقصه هو التحقق من المعلومات وإحكام الأسلوب، لهذا أدرك أن العمل لا يتنفس ، وأنه متورط في العمل بالظلمات، وأن الكتاب يغرق دون أن يكتشف الشقوق فيه، وقد وصل إلى قناعة إلى أنه وصل في الكتابة مرحلة لا تفيده مساعدة أحد، لأن الخلل لم يكن في النص وإنما في أعماقه، لهذا لا يمكن لأحد سواه أن يمتلك عيونا ترى ذلك الخلل وقلبا يعانيه!

وقد كانت للتجارب الروحية التي عاشها (رحلته مع أمه إلى بيت طفولته القديم) أكبر الأثر في إيقاظ ذكرياته وحنينه، مما اضطره أن يعيد النظر في الكتاب الذي بين يديه، إذ رآه مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية، وقد تفتت المشروع إلى شظايا بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف له في تلك الرحلة.(15)

وبناء على ممارسته النقد الذاتي استطاع أن يلاحظ حدوث تطور لديه في مجال القصة القصيرة، إذ تخفف من البلاغة الابتدائية التي تبدت في أعماله الأولى، لكنه لم يستطع الخروج من المستنقع بشكل كامل!

بفضل ذائقته النقدية استطاع أن يستغني عن رواية كتبها (بعنوان "البيت") إذ بدت له بعد أن عمل فيها ستة أشهر أنها **مهزلة غير موفقة!!** وقد أعاد كتابتها من جديد بعد فترة، فغيّر عنوانها وتجاوز نقاط الضعف التي وجدها فيها.

وبسبب إدمانه عادة مواصلة التصحيح حتى الموت، على حد قوله، فقد أصدر الطبعة الأولى من روايته "عاصفة الأوراق" بعد سنين من كتابتها، دون أي تغيير معمق باستثناء بعض الحذف والترقيع!

إن هذه العادة في التنقيح لن نجدها إلا لدى كاتب يحس بمسؤولية الكلمة التي يوجهها إلى المتلقي، ولدى كاتب يسعى إلى تنمية ذائقته النقدية، وهي دليل على فهمه العميق للجنس الأدبي الذي يكتب فيه (الرواية)

وقد لمسنا لديه رؤية ثاقبة لدقائق العمل الأدبي، فهو بنظره **أداة للإيحاء تماما كالموسيقى، ولذلك فإن أي خطأ في الإيقاع من الممكن أن يضيّع سحر التأثير، لهذا السبب يوليه من الاهتمام ما يجعله لا يجرؤ على تسليم عمل إلى المطبعة قبل أن يقرأه بصوت مرتفع ليكون واثقا من انسيابته.(16)**

بحث (ماركيز) عن الأصالة، ولاحظ أن المطالبة بالهوية ليست أمرا سهلا، بل هي قاسية ودموية، وقد أكد "أن تفسيرنا لواقعنا عبر معايير أجنبية لا يؤدي إلا إلى مزيد من الجهل بنا، وإلى مزيد من نقصان الحرية، وإلى مزيد من العزلة..."(17)

وبذلك تعني الأصالة خصوصية تبتعد بنا عن تقليد الغرب، وفي رأيه كانت خطوط التقارب بين أمريكا اللاتينية والغرب تأكيدا للعزلة الثقافية، التي يحاول أديب أمريكا اللاتينية تجاوزها عن طريق الإبداع، ليستطيع تجاوز العنف اللامحدود والظلم المسكوت عنه بسبب جشع الغربي للثروات الطبيعة التي تزخر بها هذه البلاد، إذ عمل على الاستيلاء عليها بكافة الوسائل، مما أدى إلى ميتات يومية عصية على الإحصاء، تعرض لها شعبه، وقد أسهم هذا البؤس في تعزيز مصدر الإبداع النهم المليء بالأسى والجمال.

بمثل هذا الوعي الفكري والجمالي استطاع (ماركيز) تطوير رؤيته الإبداعية في مجال الإبداع الروائي، فقدّم المدهش والجميل والممتع معاً.

الحواشي:

1. مجموعة من القاصين المتحدثين بالإسبانية "القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين" ترجمة صالح علماني، مراجعة د. محمد حسن موسى، سلسلة إبداعات عالمية ع(349) تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت أغسطس، 2004 ، ص227
2. غابرييل غارسيا ماركيز "عشت لأروي" ترجمة صالح علماني، ج1، دار البلد، دمشق، ط1، 2003، ص10
3. غابرييل غارسيا ماركيز "عشت لأروي" ترجمة صالح علماني، ج2، دار البلد، دمشق، ط1، 2003، ص211
4. المصدر السابق، ص201، بتصرف
5. المصدر السابق نفسه، ص205
6. "عشت لأروي" ج1، ص180
7. "عشت لأروي" ج1، ص152

8. من أجل تفاصيل أكثر يمكن مراجعة كتاب ماركيز "غريق في أرض صلبة" ترجمة مها عبد الرؤوف دار ميريت، القاهرة، ط1، 2002،ص40- 42

9. "عشت لأروي" ج2، ص161

10. نشرت في وزارة الثقافة السورية بترجمة صالح علماني.

11. "عشت لأروي" ج2، ص159، بتصرف

12. المصدر السابق، ص156، بتصرف

13. المصدر السابق نفسه، 151

14. نفسه، ص104

15. نفسه، ص156، بتصرف

16. "ماركيز" غريق على أرض صلبة" ص138

17. كلمة غابرييل غارسيا ماركيز في حفل تسليمه جائزة نوبل 82، مجلة أفكار (الأردنية" ع (109) ك2، 1993، ص161

❑❑

قراءات نقدية ..

اللغة العربية وتحديات العصر
لدى الدكتور محمود أحمد السيد

❑ عبد الكريم إبراهيم قميرة

"اللغة العربية وتحديات العصر" ـ عنوان كتاب للدكتور محمود السيد، وكتبه الكثيرة: دراسات تربوية، وفي قضايا الطفولة، وفي الأداء اللغوي، ثم في طرائق تدريس اللغة العربية. بالإضافة إلى الكتاب المذكور عنوانه في رأس هذه الصفحة.. وهي كلها تناقش موضوعات تتعلق باللغة العربية ونشأتها ومصاعب تدريسها والتحديات التي تتعرض لها.. وقد أمضيت عاماً تقريباً في دراستها والتعمق في محتوياتها، والتمعن بالمهارة التي يتمتع بها المؤلف الدكتور السيد وبمتانة أسلوبه في الكتابة وأناقته وسهولته لدرجة يفهمه كل قارئ بدءاً بالأديب المتنطع وانتهاءً بالقارئ المتدرج.

وسنمشي بهدوء وتؤدة في رحاب الكتاب الكبير " في طرائق تدريس اللغة العربية " البالغ ثمانمائة صفحة تقريباً باعتباره يتضمن معظم الموضوعات المدروسة في الكتب الأربعة الأخرى مع التطرق إلى بعض الأفكار في هذه الكتب وسنرى كم أجهد المؤلف الدكتور السيد فيها نفسه في الحديث الأنيق والكتابة المنهجية الواضحة البعيدة عن كل لبس أو غموض في قضايا اللغة العربية وسماتها والتحديات التي تعترضها.

وكما نقرأ منذ بداية هذا الكتاب الغني الثر فإن كل أمة في الوجود تعنى بلغتها القومية وتهتم بنشرها.. لذا يجب الاهتمام باللغة العربية الفصحى فهي جامعة شملنا – نحن العرب – وموحدة كلمتنا وحافظة تراثنا ولغة قرآننا، وهي في الوقت ذاته عنوان لشخصيتنا العربية ورمز لكياننا القومي.

هذا الهم الكبير يقوم به بهمة ونشاط مدرس اللغة العربية الذي يجب أن يكون ملماً بأسرار هذه اللغة ومدركاً لسماتها وخصائصها، وهو القدوة أمام الأهالي والمثال أمام الطلاب سواء في المدارس والمعاهد والجامعات أم في المجتمع بين الناس.

ولذا فإن طريقة التدريس تكتسب أهمية كبرى في تشويق الطلاب وجذبهم نحو المادة لقبولها وهضمها واستيعابها واستخدامها بشكل صحيح بعيد عن الخطأ في اتباع الأساليب والطرائق.

ولذا لكي ينجح مدرس اللغة العربية لا بد من أن يكون متمكناً من مادته أولاً ومحضّراً لها وواثقاً من نفسه في إمكانه بنجاح مهمته الرائعة والمقدسة..

وسنترافق بصبر ورغبة واهتمام مع المؤلف في قراءة ما سطرت أنامله إذ يبدأ في الفصل الأول بوضع تعريف لكلمة " اللغة " فهي وفق ما جاء في قاموس لسان العرب " أصوات يعبر كل قوم بها عن أغراضهم "

هذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم وإنما وردت كلمة " لسان " وقد وردت فيه لفظة " اللغو " في غير معنى اللغة، فاللغو هو ما لا يعتد به من الكلام وتعني أيضاً كما في القاموس صوت نباح الكلاب.

ثمة من يرى أن لفظة " **لغة** " مأخوذة من كلمة " لوغوس " اليونانية ومعناها " كلمة ".. وقد جاء في الأنسيكلوبيديا الفرنسية أن اللغة كلام وهو علامات مركبة تولد في الشعور إحساسات متباينة عن بعضها مستثارة مباشرة، أو يخمن بعضها عن طريق الارتباط.

وقد جاء في دائرتي المعارف البريطانية والعلوم الاجتماعية أن للغة الأصوات أفضلية عند الأمم على بقية صور الاتصال الأخرى في الكتابة والإيماءات وغيرها، وهذه الصور تتمم لغة الكلام من غير أن تعوض عنها كلية.. هذه النتيجة تنقضها الحجج العلمية والأدلة الكافية..

وقد عرّف ميللر(Miller) اللغة بأنها استعمال لرموز صوتية مقطعية يعبر بها عن الفكر.. وعلى هذا النحو عرفها جون كارول (JohnCarrol) قائلاً: " إنها ذلك النظام المتشكل من الأصوات اللفظية الاتفاقية وتتابعات هذه الأصوات بين الناس يمكنها أن تصف الأشياء والأحداث والعمليات في البيئة الإنسانية ".

أما هيرلوك(Hurlock) فقد رأى أن اللغة تشمل صور التعبير قاطبة بأصوات مقطعية وهذا شكل من أشكال اللغة.

ونتابع مع المؤلف الدكتور السيد فنرى أن ستالين في كتابه " الماركسية وعلم اللغة " يقول بأن اللغة الصوتية كانت على الدوام لغة المجتمع البشري وهي الوحيدة القادرة أن تكون وسيلة مقبولة للتواصل بين الناس، أما الإشارات فهي وسيلة رديفة ذات إمكانات يتوكأ عليها الإنسان لإيراد معاني كلامه..

وفي ضوء التعريفات السابقة نقول إن مفهوم اللغة مفهوم شامل يتضمن اللغة المنطوقة والمكتوبة والإشارات الإيماءات والتعبيرات الوجهية المصاحبة لسلوك الكلام.

ويتابع المؤلف ويقول إن الإنسان تعلم الكلام قبل الكتابة، والطفل يتكلم قبل أن يكتب.. واللغة المكتوبة هي اللغة المنطوقة المدونة وهذا مصطلح متعارف عليه، واللغة الصوتية هي وسيلة الاتصال الأكثر ملاءمة والأكثر شيوعاً.. واللغة وفق تشارلز هوكت (CharlesHocket) تجعل البشر قادرين على تملك موهبة الخلق والابتكار.

ونتساءل مع المؤلف السيد ما هو أصل اللغة ؟ فنرى وفق رأي العلماء أن هناك ثلاثة

اتجاهات في الجواب على ذلك السؤال : توقيفي، ومواضعة اصطلاحية، وموافقة بين الاتجاهين.

الاتجاه الأول وهو التوقيفي وقد ورد لدى أفلاطون وهرقليط في اليونان أن اللغة وحي من السماء.. وقد جاء في إنجيل يوحنا في مقدمته " في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله (1- 2- 3). وفي العصر الوسيط كان الغرب يرى أن ما ورد في إنجيل يوحنا هو منتهى الكمال.. وقد جاء فيه أيضاً "وقال الرب الإله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده.. فاصنع له عوناً بإزائه.. وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها.. فكل ما سماه آدم من نفس حية فهو اسمه، فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء ".

وفي التراث العربي الإسلامي يستشهدون بالآية الكريمة " **علم آدم الأسماء كلها** " (البقرة /31).. والأسماء المقصودة هي اللغة كلها : أسماؤها، أفعالها، وحروفها، وفق رأي أحمد بن فارس الذي يرى أن الله وقف آدم على ما شاء أن يعلمه إياه ما احتاج إلى علمه في زمانه ثم علم بعد آدم من العرب الأنبياء عليهم السلام نبياً نبياً حتى سيدنا محمد عليه السلام فأتاه الله ما لم يؤته أحد قبله.

وفي العصر الحديث يذهب الفيلسوف دي بونالد أن الإنسان لكي يخلف الله يجب أن يكون لديه فكرة واضحة عن الكلام وهذا مستحيل بالنسبة للإنسان، لذلك وجب أن تكون اللغة هبة من الله.

واتجاه المواضعة والاصطلاح يرى أنها من صنع الإنسان.. وهذه الكلمة من صنع أرسطو تلميذ أفلاطون والاصطلاح يدل على تواطؤ..

وقد قسم أرسطو الألفاظ إلى أسماء وأفعال وحروف وذكر التذكير والتأنيث والأسماء البسيطة والمركبة.. وقد أكد ديموقريط ذلك فقال إن الأسماء تعطى من لدن الإنسان لا من قوة إلهية.

وينحو هذا النحو في تراثنا العربي ابن مسكوية ويرى أن الحاجة للتواصل هي التي دعت الإنسان إلى ابتكار الكلام وأنواعه.. وكذلك ابن جني في كتابه " الخصائص " فإنه يرى أن اللغة مواضعة واصطلاح تعارف عليها القوم وليست وحياً.

وفي العصر الحديث يقول الفيلسوف الانكليزي لوك (Lock): إن الإنسان هو الذي أقام العلاقات بين الكلمات والأفكار عندما حاكى الطبيعة والحيوان.. وهذا تأكيد لكلام ابن جني الذي كان يرى أن اللغات إنما هي الأصوات المسموعة كدوي الريح وهزيم الرعد وخرير الماء وصهيل الفرس.. ويعقب على ذلك فيقول: وهذا عندي وجه صالح ومذهب مقبول.

وقد أيّد هذا المذهب من المعاصرين آدم سميث، ثم عند العرب مصطفى صادق الرافعي في كتابه "تاريخ العرب ".

ثم نصل إلى الاتجاه الثالث الذي يوفق بين التوقيفية والمواضعة، وقد بدأ هذا الاتجاه أفلاطون وغيره من المفكرين اليونان.. وهذا المذهب يرى أن الأسماء والأفعال لا بد لها من

واضع حكيم.. وترك للإنسان التفصيل والتحديد في الكلمات والمعاني..

وفي العصر الوسيط يرى القديس غريغوريوس أن الله وضع الملكات في الإنسان وترك له القدرة على التصرف بالكلمات ومعانيها ومدلولاتها، ووضع في الإنسان ملكة الخلق ثم تركه يخلق كما يريد.

من هذه المذاهب نستنتج أن اللغة نشأت متدرجة من إيماءات وإشارات إلى إيماءات صوتية ثم محاكاة للطبيعة والحيوان، وهذا ما رآه اللغوي الايطالي فيكو (Vico) ثم نشأت أدوات التعجب والضمائر والأسماء ثم الأفعال أخيراً.

ونتوقف مع المؤلف الدكتور السيد أمام عنوان هام هو " وظائف اللغة " فنقرأ :

إن اللغة لها وظائف محددة.. إنها وسيلة الفرد في التعبير عن مشاعره وعواطفه وأفكاره ويتصل بوساطتها بالناس وبها يقضي حاجاته فتسهل عمليات التفاعل الاجتماعي.. وهي مستودع تراث الأمة وهو التراث الحضاري فيبقى حتى آخر الزمن.

وقد أظهر المؤلف الدكتور السيد أن هناك علاقة بين اللغة والفكر، ويذكر أن جون كارول يرى أن اللغة هي أحد أساليب الفكر الأساسية، ويرى الدكتور طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة " أننا نفكر باللغة وأننا لا نفهم أنفسنا إلا بالفكر.. ويقول مفكر آخر إن الله أعطى الإنسان اللغة ليخفي أفكاره.

ويرى لوك أن الفكر ينشأ أولاً ثم تأتي اللغة لتجسده، ويرى كوندياك أن عملية التفكير مستحيلة من غير اللغة ورموزها، ويرى أن لا معرفة من غير تحليل، ولا تحليل من غير رموز أي من غير ألفاظ.

والرمز يستدعي تداعي الخواطر في الدماغ ومعنى الرمز يكمن في العقل ذاته.

ويتحدث المؤلف الدكتور السيد عن علاقة الفكر باللغة عند فيجوتسكي وسميرتتسكي العالمين اللغويين الروسيين، ثم لدى علماء آخرين من النرويج وأمريكا وكلهم اتفقوا أن الكلام المركزي يتناقص مع التقدم في السن.

وينقل أن علماء اللغة يرون أن اللغة وظيفة اتصال للفرد والمجتمع ولدى الرياضيين ثمة علم اللغة الرياضي.. ولذا فإن اللغة محور للدراسات الإنسانية ونتساءل مع المؤلف ما هو الاتصال ؟

يرى العالم تشارلز رايت أن الاتصال عملية نقل المعنى بين الأفراد وهو نوع من السلوك يحتاج إلى أداة ووسيلة، فالأداة هي اللغة وهي الوسيلة التي تربط الأفراد بعضهم إلى بعض، ومن مجتمع بشري إلى آخر.

وكان أرسطو قد كتب في عملية التواصل وأشار إلى ثلاثة عناصر وهي : المتحدث المتميز بفن الإلقاء والإقناع، والحديث، والمستقبل المتلقي، وهذه العناصر برأيه ضرورية لعملية التواصل.

وبتعبير أوضح ثمة المتكلم أو الكاتب، ثم المعاني أو الأفكار، ثم الرموز حاملة المعاني.

ولما كانت اللغة وسيلة المرء لنقل ثقافاته وتنمية خبراته، والخبرة هي ثمرة التفاعل بين الفرد والبيئة، توقفت هذه التنمية على جودة الوسائل وهي الكلمة المطبوعة ثم الكلمة المسموعة ككلام المذياع المنافس للكلمة

المطبوعة ثم السينما وهي وسيلة هامة مؤدية لتنمية الخبرات بالإضافة إلى المسرحيات مع تغيير وتنوع المشاهد المتعددة تبعاً للأحداث المختلفة.

ولذلك نعود فنقول إن اللغة ظاهرة اجتماعية تتم بها عملية التفاعل الاجتماعية بين أعضاء المجتمع فتتوحد الكلمة وتنصهر المشاعر في بوتقة التعاطف والمشاركة الوجدانية، ويرى العالم الفرنسي (مايّيه) أن اللغة حدث اجتماعي ولها وجود مستقل عن وجود الأشخاص الناطقين بها، وبها يتميز الحدث الاجتماعي كما يرى دوركهايم.. وكذلك يقول ستالين في كتابه حول الماركسية في علم اللغة.. فاللغة لديه تبقى ببقاء المجتمع وتزول بزواله وهي مستودع التراث الحضاري..

ونصل مع المؤلف الدكتور السيد إلى عنوان "علوم اللسان وتعليم اللغة " ويستعرض فيه الدراسات اللغوية عبر التاريخ وطرائق تدريس اللغة واللسان.

ويذكر المؤلف أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة لغة بل وردت كلمة " لسان " في آيات متعددة من سوره.. قال الله تعالى مخاطباً نبيه العظيم محمداً عليه السلام : " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين" (مريم/7)، " وبلسان عربي مبين " (الشعراء/5).

ويرى اللسانيون أن في اللغة ظواهر ثلاث : فردية تمثل الكلام، ونوعية تمثل نظام الكلام، وعامة تجمع الكليات.. ودراسة هذه الظواهر دراسة علمية تمت خلال مراحل سميت علم اللسانيات..

وينقلنا المؤلف السيد إلى الشعوب المتعددة عبر التاريخ، ويبدأ بأجدادنا سكان الساحل السوري "الفينيقيين" فهم الذين اخترعوا الأبجدية واخترعوا الكتابة، وقاموا بثورة جذرية على الخط المسماري لما فيه من عيوب فتجنبوها، واخترعوا رموزاً أو حروفاً وجعلوا لكل حرف صوتي صورة واحدة بسيطة.

وينتقل إلى الهنود ولغتهم.. وقد درسها العلماء والنحاة فوجدوا فيها الصوتيات، وقد علق أحد علماء اللغة الانكليز فقال : لولا النحاة والصوتيون الهنود لصعب علينا أن نتصور مدرستنا الصوتية، ووجدوا تشابهاً بين السنسكريتية الهندية واللغات الأوروبية.. فالنحو الهندي هو الذي علم الأوروبيين كيف يحللون أبنية كلامهم.

ويتوقف المؤلف قليلاً عند اليونان القدامى فيجد أنهم استعاروا من الفينيقيين كتابتهم الهجائية، وأخذوا أكثر العلامات الدالة على المصوتات من الكتابة الفينيقية وكيفوها بما يلائم لغتهم..

وتوصلوا إلى أن الصامت لا يمكن النطق به مع مصوت، وأعطوا المجموعة المكونة من صامت ومصوت اسماً خاصاً.. وقالوا إن المصوت يمكن أن ينطق به وحده فيكون بمنزلة مقطع واحد..

وقد عمد النحويون اليونان إلى تحليل مستويات لغتهم، وفرقوا بين مراتب الأصوات والحروف، وقسموا الحروف الجوامد إلى شبه مصوتة وغير مصوتة.. ويعدد الدكتور السيد أسماء بعض النحويين اليونان.

ويصل بنا المؤلف السيد إلى أجدادنا العرب الذين – حسب رأيه – قاموا بجهود جبارة في ميدان الدراسات اللغوية، ووجد أن هذه الدراسات تتصف بالروح العلمية والفكر

الموضوعي كما عند أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد.. وسيبويه وأبي نصر الفارابي.......... الخ

وقد وضع أبو الأسود مقاييس نحوية حفاظاً على القرآن العربي واللسان العربي، فقد استقرى الظاهرة اللسانية العربية من القرآن الكريم ثم من كلام العرب وأشعارهم بغية استنباط قوانين اللغة العربية واخترع نظام من الرموز الخطية لضبط نص القرآن وتصحيح قراءته.

وفي كتاب لسيبويه نجد دراسة حول صفات الحروف وكيفية حدوثها، فأشار إلى مخارج الأصوات من أقصى الحلق ووسط الحلق والأضراس العليا حتى الثنايا واللهاة وأقصى الحنك ووسط الحنك وفوق الثنايا وأطراف الثنايا والشفاه، وأطلق على الحروف الخاصة بكل مخرج مصطلحات مثل حلقي، لهوي، نطعي، شفوي.. ثم حدد صفات الحروف فهي مفخمة أو مهجورة أو مهموسة أو من الغنة أو مكررة.

وإذا كان اللسانيون يرون أن اللسان هو أداة تبليغ وتواصل فإن الجاحظ أشار إلى أن الخطاب اللغوي هو عبارة عن عملية تواصل يستوجب قيامها ثلاثة أركان : المتكلم، السامع، الكلام.. ويرى أن الذي يربط بين أركان التواصل إنما هي الوظائف وهي عنده ثلاث :

1- الوظيفة الإفهامية(البيان والتبيين) وهي الأصل.
2- الوظيفة الخطابية.
3- الوظيفة الشعرية.

والوظيفة الإفهامية توضح مكانة المتكلم في نظرية الجاحظ لأنه مبدع القول ومنجزه في الوقت نفسه.

والجاحظ يعتبر من أوائل من باشروا " علم اللغة المقارن " فها هو يقول : " ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها نحو استعمال الروم للسين.. واستعمال الجرامقة للعين "، وقال الأصمعي : " ليس للروم حرف صاد ولا للفرس حرف تاء ولا للسريان حرف ذال ".

ويرى الجاحظ أن أي لغة في مجاورتها والتقائها لغة أخرى، لابد أن يحصل من هذا الالتقاء شيء قد يحمل الضيم على كليهما، وفطن الجاحظ أكثر من غيره إلى مشكلة اللحن ووضعها في مكانها التاريخي، وتناول مصطلحات كثيرة إبان تاريخها وتطورها.

ويجد المتتبع لأدب الجاحظ طائفة من المصطلحات اللغوية منها ما جاء في علوم اللسان على سبيل المثال: الفأفأة، والتأتأة، والحصر والعي واللجلجة، والعقدة واللكنة والنحنحة......الخ

كما أن ابن جني خصص للصوتيات كتاباً أسماه " سر صناعة الإعراب "، فحدد مخارج الوحدات الصوتية وفرق بين المادة الصوتية ووظيفة الصوت وكيفية النطق لكل حرف على انفراد خلافاً لسيبويه الذي لم يحدد الحرف.

وقارن ابن جني بين جهاز النطق والناي والعود، فهو يرى أن لعلم الأصوات علاقة بالموسيقى..

ويتابع المؤلف الدكتور السيد فيقول إن الألفاظ الدالة على لسان كل أمة ضربان : مفردة ومركبة، فالمفردة كالبياض والسواد والإنسان والحيوان، والمركبة كقولنا : الإنسان حيوان، وعمر أبيض.

والمفردة منها ما هو ألقاب أعيان مثل : زيد، عمرو، ومنها ما يدل على أجناس الأشياء وأنواعها مثل: الإنسان، الفرس، الحيوان، البياض، السواد... والمفردة الدالة على الأجناس والأنواع ومنها أسماء ومنها كلمات، ومنها أدوات.

ويلحق الأسماء والكلمات التأنيث والتوحيد والتثنية والجمع، ويلحق الكلمة خاصة الأزمان وهي الماضي والحاضر والمستقبل.

واللسان ينقسم عند كل أمة إلى عدة أجزاء..

ويصل المؤلف السيد إلى الحديث عن الفارابي وشمولية النظرة لديه فهو أكثر إحاطة بعلم اللسان من النحويين وهذه الاهتمامات الشاملة لم تفارقه، وعندما يخصص الفارابي ذلك يذكر بوضوح فيقول: " ههنا أحوال تخص لساناً دون لسان مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، وأن هذه وغيرها يخصان العرب فقط".

أما العلامة ابن خلدون فيرى أركان اللسان العربي أربعة وهي : اللغة، والنحو، والبيان، والأدب، ويرى أن النحو هو الأهم فبه تتبين أصول المقاصد بالدلالة على الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة.. ويرى أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة هي فعل لساني ولا بد من أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهذا في كلام كل أمة حسب اصطلاحاتها.

ولما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب استنبطت القوانين لحفظها، واستمر الفساد بمخالطة العجم فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه.. ولذا فقد شمرّ عن سواعدهم كثير من أئمة اللسان وأولهم الخليل بن أحمد الفراهيدي فألف كتاب (العين) وحصر فيه مركبات حروف المعجم بالترتيب المتعارف، واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة، وجعل حروف العلة في الآخر وهي الحروف الهوائية، وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصر منها فلذلك سمي كتابه بـ (العين).

وذكر ابن خلدون كتاب الزمخشري في المجاز وهو كل ما تجوزت به العرب من المدلولات، وذكر أيضاً كتاب فقه اللغة للثعالبي والألفاظ لابن السكيت.

وينقل المؤلف السيد أن ابن خلدون يعتبر علم البيان بعد علم اللغة العربية وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد به الدلالة عليه من المعاني.

ويجمع المؤرخون على تأكيد مزية أساسية للمباحث العربية اللغوية فيجعلها في منزلة أرقى من الدراسات الغربية.. لأن للعرب فضلاً في ابتكار مناهج وأساليب خاصة تتمثل في أعمال الخليل وسيبويه وغيرهما من النحويين وعلماء الأصوات العرب، وهذا ما جعل بعضهم يعد هؤلاء رواداً للعلوم الإنسانية لأنهم شافهوا فصحاء العرب وأخذوا اللغة منهم بطرائق علمية وفسروا الكثير من ظواهرها الصوتية والبنيوية وغير ذلك وفق رأي وتأكيد المؤلف الدكتور السيد.

وينهمك الدكتور السيد في تعداد علماء اللغة في أوروبا في العصر الوسيط، فيذكر عدة

أسماء مثل سميث وشيك حاولوا إصلاح الإملاء الانكليزي إصلاحاً صوتياً..

وكذلك ذكر كاتينوس الذي عالج في كتاب له بنية اللغات وبعض التراكيب اللغوية في السريانية والآشورية والتلمودية والحبشية والعربية..

ثم جاء دوهاميل وهو أول أمين عام دائم للمجمع العلمي الفرنسي.. وقد قام بإجراء تشريح الجهاز الصوتي، وخلال وصفه للحروف الصوتية لم يهمل ما يطرأ على نطقها من تحولات حسب البلدان.

وظهر في إيطاليا العالم اللغوي فيكو (Vico) الذي اشتهر بنظريته التي تقول أن اللغات في تطورها مرت بثلاثة أدوار : 1- اللغة المقدسة 2- لغة الأبطال 3- لغة الجماهير.. وقد استفاض فيكو في الكلام عن نشأة أقسام الكلام في تقليد الإنسان لأصوات الطبيعة في نشوء الأسماء والأفعال.

ونصل مع المؤلف الدكتور السيد إلى اللغوي السويسري دي سوسّور الذي رأى أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع للتطور والتغير المستمرين إلا أنه يجب البحث في تراكيبها وأصواتها، بالإضافة إلى معرفة أصولها ومراحل تطورها خلال زمن محدد، وهذه الدراسة تنفذ إلى أعماق ذهن المتكلم.

وقد فرّق دي سوسّور بين اللغة كظاهرة ذهنية متكاملة وكأداة يستعملها الانسان في مجرى حياته اليومية.. ويرى دي سوسّور أن اللسان ليس مجموعة من المفردات لكنه نظام يشمل الرموز والنماذج، والرمز هو الصورة الذهنية المركبة من شقين يمثل أحدهما المدلول على الشيء الخارجي الموجود، وثانيهما يمثل الدال أي اللفظ، أما النموذج فهو الطريقة التي ترتب بها الأصوات لإنتاج صيغة معينة مثل صيغة الماضي في العربية أو اسم الفاعل..

والنظام مجموعة من الوحدات الصوتية وغير الصوتية تقوم بينها علاقات، والعلاقات بينها تكون متعاصرة في زمان واحد والمتعاقبة الواحدة بعد الأخرى.

ثم نتوقف مع المؤلف السيد أمام العنوان التالي : في النصف الأول من القرن الحالي في أمريكا، فيقول بأن علم اللغة نشط بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد أنشئ أول جمعية أمريكية لعلم اللغة عام 1924.. وبرز (بواس) الذي درس اللغات الهندية الأمريكية ولغة الأسكيمو، فوجد أن هذه الأخيرة لا تفرق بين صيغة الماضي وصيغة الحاضر.. ثم جاء " إدوار سابير " الذي يعتبر أول من وضع الأسس الأنتربولوجية لدراسة اللغة وخرج بالنتائج التالية :

1- إن لغة أي شعب من الشعوب هي المنظم لتجربة هذا الشعب.
2- إن اللغة تعكس الإطار الواقعي الذي يحيط بالناس.
3- إنها نظام رمزي خلاق، وهي وسيلة لحل مشكلات الاتصال والتفكير.

ثم ظهر العالم اللغوي تشومسكي الذي يعتبر رائداً في الدراسات اللغوية المعاصرة.. وفي كتابه " التراكيب النحوية " نجد أبرز المفاهيم التي دعا إليها هذا اللغوي :

أ- يعتبر اللغة بمنزلة القلب من جسم الانسان.

ب- تبنّى تشكومسكي تقسيم دي سوسّور للغة إلى لغة وكلام.

ويقول بأن الأداء اللغوي هو ممارسة للغة واستعمالها في الحياة اليومية، والدراسة اللغوية هي معرفة المقدرة اللغوية خلال الأداء اللغوي..

ج- ويرى تشومسكي أن القواعد اللغوية هي لتنظيم بين المبنى العميق والمبنى الخارجي.. فلكل بنية لغوية مبنيان : تحتي وخارجي فوقي يتم التوصل إليه عن طريق شرح الدرس للطلاب..

وبعد أن أطلعنا المؤلف على بعض المفاهيم التي ظهرت في ميدان الدراسات اللغوية، انتقل بنا إلى عنوان جديد هو تعليم اللغة الذي يتم على الشكل التالي :

1- **اللسان أداة تبليغ..** إن اللغة المنطوقة هي الأصل، ولذا لا بد من العناية بها فالطفل يفهم ويتحدث قبل أن يتعلم الكتابة، ولذلك يجب على مدرسي اللغة العربية أن يتعرفوا على مستويات المتعلمين ليقدموا لهم المستويات اللغوية الملائمة.

لا بد من معرفة أن لغتنا تتضمن خمسة وعشرين صامتاً وثلاثة مصوتات طويلة هي الألف والواو والياء يقابلها ثلاثة مصوتات قصيرة هي الفتحة والضمة والكسرة.. ولذا يجب على مدرسي اللغة العربية أن يعنوا بدراسة مخرج كل صوت وما يعتريه من تبديل حين يتصل بالحروف الأخرى، ولا بد من الانتباه إلى بعض القوانين الصوتية وهذا بعضها :

أ- لا تبدأ العربية بساكن، ولا تقف عند متحرك.

ب- كراهة النطق بصامت ضعيف كالواو.

ج- كراهة الوقوف على ساكنين.

2- **اللسان ظاهرة اجتماعية..** كما أن أنظمة اللسان تواضعية اصطلاحية بين أفراد المجتمع.

3- يجب أن نعرف اختيار ماذا نعلّم من اللغة في كل مرحلة.

وبعد هذه الشروح اللغوية ينتقل بنا المؤلف إلى فصل عنوانه : " النمو اللغوي " فيشرح لنا أن اللغة اكتساب، وأن الطفل البشري إذا أبعد عن المجتمع لا يكتسب اللغة إلا بصعوبة.

ونتوقف مع المؤلف الدكتور السيد أمام عنوان متعدد الأطراف وهو " اللغة العربية، سماتها، دورها القومي، تطورها، أهداف تدريسها ".

ويحدثنا المؤلف أن هناك ثلاثة أنواع من اللغات حسب تقسيم العلامة اللغوي " شليجل " وفق تطورها وارتقائها :

1- **اللغة الفاصلة** : وهي التي لا يتغير فيها أصل الكلمة في التركيب، بمعنى أنها غير قابلة للتصريف لا عن طريق البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل مثل اللغة الصينية.

2- **اللغة المتصرفة** : لا يتغير فيها أصل الكلمة بتغيير حركته ويختلف المعنى مع هذه التغييرات، ولغتنا العربية مثلُ على هذا النوع.

3- **اللغة اللاصقة** : لا يتغير فيه الأصل لكن يمكن أن نلصق به في أوله أو آخره حروفاً بغية إيجاد معانٍ جديدة تسمى سابقة أو لاحقة.. على غرار اللغة الفرنسية والإنكليزية والتركية واليابانية.

ومن الناحية التنظيمية فإن عناصر الجملة يتصل بعضها ببعضه الآخر عن طريق أدوات ربط مستقلة مثل الواو وإلى وغيرهما.. وكل لغة تشتمل هذه الأنماط الثلاثة كلها.

وثمة تقسيم آخر قام به ماكس موللر أساسه توافر القرابة اللغوية بين مجموعة من اللغات وهي :

أ- الهندو أوروبية المشتملة على اللغات الآرية المتمثلة في الهندية القديمة المعروفة بالسنسكريتية، واللغة الفارسية القديمة والهندية الحديثة والفارسية الحديثة والكردية والأفغانية، والأرمنية والإغريقية واللاتينية والجرمانية وما تفرع عنها من اللغات الأوروبية الحديثة.

ب- السامية الحامية وتشتمل على اللغة العربية والعبرانية والسريانية والحبشية والكلدانية.. أما اللغات السامية المتعددة فمنها الآشورية والبابلية والفينيقية والحميرية والنبطية، والمصرية القديمة والبربرية والكلاشية (نسبة إلى كوش أحد أولاد حام) وهي التي يتكلمها بعض سكان الحبشة والصومال.

ت- الطورانية المغولية والمجرية والتركية وعدّوا منها الصينية واليابانية.

ويمكن القول أن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية وكلها من أرومة واحدة تعددت وتنوعت بسبب تأثير البيئة وتراخي الزمن والاختلاط، وقد وجد المستشرقون علاقات تشابه بينها في الضمائر وأسماء الإشارة والاسم الموصول والأعداد....... الخ

ويؤمن بعض اللغويين أن اللغة العربية نشأت في شرق الجزيرة العربية، وفريق آخر يعتقد أن أصل العربية لهجة قريش لأن القرآن نزل بها وتكلم بها النبي محمد عليه السلام وهو من قريش.

والمتفق عليه أن لغات العرب القديمة كانت متباينة وترجع إلى أصلين :

أ- لغة الجنوب وهي لغة القحطانيين وغيرهم من سبئيين وحميريين.

ب- لغة الشمال وهي لغة العدنانيين.

وبين اللغتين بون بعيد في الاشتقاق والتصريف لدرجة أن أبا عمرو بن العلاء قال : " ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم لغتنا ".

وتحدثنا كتب التاريخ عن امتزاج القحطانيين بالعدنانيين مدة طويلة حتى القرن السادس الميلادي.. وقد علا نجم العدنانيين فسادت لغتهم.

وفي كتاب " الخصائص " لابن جني وكتاب " المزهر في علوم اللغة وأنواعها " لعبد الرحمن السيوطي، نجد وصفاً للخلافات بين اللهجات العربية من حيث الكشكشة والعنعنة والعجعجة والطمطانية والاستنطاء والفخفخة..

فالكشكشة هي إبدال الحاء بحرف الشين، والعجعجة إبدال الياء بحرف الجيم، والاستنطاء في لغة هذيل والأزد وقيس ويقصد به جعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء كأنطى في أعطى قرئ إنا أنطيناك الكوثر..

وكانت لغة قريش أوسع اللغات انتشاراً في الجزيرة العربية، فكلامها سهل واضح، وقد قال الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " : سألوا من أفصح الناس.. قالوا : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة بكر، ليس لهم عجعجة قضاعة وهم : قريش.

وكان للعامل الديني بالإضافة إلى العامل التجاري أثر كبير في انتشار لغة واحدة مشتركة بين القبائل، فمجيء هذه القبائل مع الوفود إلى مكة في مواسم الحج واتصالهم ببعضهم اتصالاً روحياً قد هيأ نواة أمة مشتركة تقرّب بين القبائل وتؤلف بين قلوبهم.

وكذلك الأسواق الأدبية المقامة في مكة، والأهم من ذلك هو نزول القرآن الكريم بلغة قريش ثم انتشار الإسلام بلغته العربية البليغة.. وكان القرآن – كما يؤكد المؤلف السيد – سياجاً للغتنا العربية العرباء فقد حفظها من الضياع إبان المحن وزحف المغول وسيطرة الأتراك الطوارنيين المتحالفين مع اليهود التلموديين.

ويقول جول فيرن القاص الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر أن اللغة العربية هي لغة المستقبل، وباءت كل محاولات الأتراك العثمانيين بالفشل خلال حكمهم البغيض مدة أربعمائة عام ونيف في محاربة اللغة العربية وإحلال لغتهم الطورانية، لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره فبقيت العربية منتصرة متفوقة.

وإذا ما تحدثنا عن سمات اللغة العربية كما ينقلها الباحث الدكتور السيد، نجد أنها تتصف بحروفها وبمفرداتها وفي إعرابها وفي دقة تعبيرها وفي إيجازها.. مما جعل المؤرخ أرنست رينان المتعصب ضد العرب والعروبة والإسلام أن يقف مدهوشاً ويقول: " إن هذه اللغة اكتملت في الصحراء وسط أمة من البدو الرحل.. وقد فاقت اللغات الأخرى بكثرة مفرداتها وبقيت حافظة لكيانها وتطورها وكمالها.

ويذكر الباحث المؤلف السيد عدة أسماء لعلماء من مختلف الشعوب يعترفون بتفوق اللغة العربية وكمالها..

ومن مزايا هذه اللغة المتفوقة أن هناك علاقة بين الحرف والمعنى الذي يشير إليه.. كما أن هناك تلازماً بين الألفاظ المتقاربة المعنى.

وتمتاز لغتنا العربية بغنى مفرداتها حتى قال أحد الفقهاء: " كلام العرب لا يحيط به إلا نبي"، وقد أحصى الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه (العين) الآنف الذكر فوجد الثنائي سبع مائة وست خمسين، والثلاثي تسعة آلاف وستمائة وخمسون، والرباعي أربعمائة ألف وتسعون ألفاً وأربعمائة، والخماسي أحد عشر ألفاً وسبع مائة وثلاثة وتسعون ألفاً وستمائة.

وبسبب اتساع عدد القبائل العربية اتسع الترادف أي ثمة عدة ألفاظ للمعنى الواحد.. وقد فاقت العربية كل اللغات في هذا التنوع.. إننا نجد /21/ اسماً للنور و/52/ اسماً للظلام و/9/ أسماء للشمس و /50/ للسحاب و/64/ للمطر و/88/ للبئر و/170/ للماء و/100/ للخمر و/350/ للأسد و/100/ للحية و/250/ للناقة..

ونجد أن بعض هذه الترادفات صفة للمسمى وليس اسمه الحقيقي وبعض الأسماء آتية من شعوب أخرى.. فاسم الأسد " عنبسة " مستمد من لغة أخرى غير العربية وهي الحبشية.. وأحصى السيوطي في كتابه (المزهر) /80/ اسماً للعسل.

ومن سمات اللغة العربية أن ثمة منطقية في قوالبها، بمعنى أن هناك نمطاً معيناً من الأوزان يشتمل على معنى خاص به، مثلاً إذا ذكرنا الألفاظ التالية: كاتب – عالم – نائم.. فإن هذه

الألفاظ تدل على الفاعلية.. وإذا ذكرنا : مقتول – معلوم – مجهول – مشروب – مأكول.. فهي تدل على معنى المفعولية.. وكلمات سفاح – علام – عزام.. فهي تدل على صيغ المبالغة.

وبعض الأفعال العربية لا يأتي منها اسم الفاعل مثل فرح وحزن ومرض وسعد.. فهذه وأمثالها التي لا يشتق منها اسم فاعل تسد مسدّه الصفة المشبهة لأنها أفعال لا إرادية.. وبعض الأفعال التي تتعرض للإنسان أو تدخل إلى نفسه بغير إرادته وهو ليس فاعلاً لها.

وقد عزا الأستاذ زكي الأرسوزي خلود اللغة العربية إلى صدق البيان في هذه اللغة وثبات العلاقة بين الصوت والمعنى.

ومن سمات العربية أيضاً الدقة في التعبير.. ويورد المؤلف الدكتور السيد أن ابن فارس وشيخه أبا علي الفارسي قد أنكرا الترادف.. فقد كانا يريان أن لكل كلمة معنى يختلف عن الكلمة المترادفة الأخرى، بينما يقر ابن خالويه بظاهرة الترادف.. وقد ورد أنه اجتمع في مجلس سيف الدولة فريق من علماء اللغة، فقال ابن خالويه : أنا أحفظ للسيف خمسين اسماً.. فتبسم أبو علي الفارسي وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف، فقال ابن خالويه : أين المهند والصارم والحسام.. فقال الفارسي : هذه كلها صفات له...

وفي الواقع أن كل كلمة من المترادفات تعني حالة معينة وتصور حالة خاصة، فإذا قلنا (رمق، لحظ، نظر، لمح، رنا، حدّق)... كل هذه الكلمات تشترك جميعاً في التعبير عن معنى النظر والرؤية ولكن لكل واحدة معنى دقيق..

فكلمة رمق تدل على النظر بمجامع العين، ولحظ تدل على النظر من جانب الأذن، ورنا تفيد إدامة النظر في سكون.. وحدّق جمع عينيه لشدة النظر.

وكذلك - كما يذكر المؤلف السيد – ثمة مراتب للحزن فهناك الكمد والكرب والأسى والوجوم والكآبة والغم والترح والحسرة والهم والشجن.. وكذلك في السرور والجزل والابتهاج والاستبشار والارتياح والفرح والمرح والغبطة والطرب.. هذه المترادفات تدل على معنى واحد لكنها عند الضرورة كل كلمة لها معنى خاص.

ويتابع المؤلف الدكتور السيد فيقول إن من سمات العربية أيضاً الإيجاز، ففي شعر القدماء نرى الأسلوب الجزل ذا الرونق والطلاوة ووضوح القصد ليس فيه زوائد ولا فضول كأنما رسم له رسماً.

وينقل أن الجاحظ قد أشار إلى سمات العربية فقال : " إن أسلوب العربية يلّذ الآذان حين تستمع إليه والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغي إليه.. وهو أسلوب رائع يجمع بين الجزالة والرصانة تارة، ويجمع بين الرقة والعذوبة تارة أخرى.. ولذلك انتشرت العربية بين الشعوب التي دخلت الإسلام وهجرت لغتها الأم وتعلمت اللغة العربية وأتقنها أبناؤها.

ومما يزيد العربية جمالاً ورونقاً كما ينقل المؤلف السيد الإعراب أي الإبانة والإيضاح، وله أهمية كبرى في فهم المعنى.. ويرى ابن قتيبة أن الإعراب جعله الله وشياً لكلام اللغة العربية وحلية لنظامها، فيجعل القارئ يفرق بين الفاعل والمفعول ويزيل الغموض.

ويقف بنا المؤلف الباحث الدكتور السيد أمام عنوان الدور القومي للعربية فيذكر أن للغتنا العربية دوراً هاماً في بناء الأمم.. فهي الرابطة التي تصهر أبناءها كلهم في بوتقة المحبة واللقاء، وهي مستودع تراث الأمة وجسرها للعبور من الماضي إل الحاضر، ثم من الحاضر إلى المستقبل تنقل تراث الآباء والأجداد إلى الأبناء، وفي ضوء ذلك يعتبر فيخته الألماني أن اللغة والأمة أمران متلازمان ومتعادلان، كما أن هردر الألماني أيضاً قد أشار إلى أن اللغة القومية هي بمنزلة الوعاء الذي يتشكل التراث به ويحفظ فيه فقال : " إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر التقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وكذلك فإن قلب الشعب ينبض في لغته وروحه تكمن في لغة آبائه وأجداده".

وعندما قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر أدركت أهمية اللغة القومية الفصيحة في بناء الأمة، ولذلك قدم الراهب غريغوار إلى مجلس الثورة تقريراً عن حالة اللغة الفرنسية، واقترح فيه محاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين المواطنين..

وكذلك كان أول قرار اتخذه لينين بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917، كان يقضي بضرورة إتقان أي مسؤول مع بقية أفراد الشعب اللغة القومية الروسية.

وتتحدث كتب التاريخ أن المستعمرات الألمانية في شمالي أمريكا اتخذت اللغة الإنكليزية لغة قومية لها، فغضب بسمارك لأنها كانت تابعة لألمانيا فتركت لغتها الأم كي تتحدث اللغة الإنكليزية مما يجعلها تترك ولاءها لألمانيا، فاللغة جامعة لمتكلميها.

ومن هنا ندرك لماذا اتخذ المستعمرون عدة أساليب لمحاربة اللغة العربية والقضاء على الفصحى بمحاولة إشاعة اللهجات العامية، فاللغة العربية الفصيحة هي الرباط القوي الذي يوحد بين أبناء العرب.

وكذلك الاستعمار التركي البغيض في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حارب اللغة العربية لينشر اللغة التركية ويشجع القومية الطورانية، كما أن بعض المتفرنجين نادى بضرورة استعمال الحرف اللاتيني لكتابة الجمل العربية..

لكن أحد المستشرقين الإنكليز وهو إدوارد نيلسون روس حذّر العرب في جميع أقطارهم من استعمال اللاتينية لأن حروف اللغة العربية هي حروف لغة القرآن وقال : " إذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن وهدّمتم صرح وحدة العرب والإسلام ".

وكتب المستشرق الإيطالي جويري للمفكر سلامة موسى : " رأيي أن اللغة العربية آية للتعبير عن الأفكار وأنا لا أرغب في أن ينسى الكتّاب الحاليون العلاقة بالماضي لأن في الماضي العربي مجداً كبيراً وهذه اللغة أدت دوراً كبيراً في التاريخ العربي في أدواره المتعددة ".

ولذلك فقد وجه المؤلف الدكتور محمود السيد في كتابه هذا نصيحة لأبناء الأمة العربية ولمدرسي مادة اللغة العربية أن يغرسوا الإيمان بأصالة هذه اللغة وأن يعملوا على الاعتزاز بها في سلوكهم، وأن يكونوا قدوة أمام الغرباء

والأجانب في الحفاظ عليها لأنها رمز لكياننا القومي وعنوان لشخصيتنا العربية.

وبغية الحفاظ على سلامة اللغة العربية لا بدّ من السعي لتطويرها باعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية شبيهة بالكائن الحي، ولذا فهي خاضعة لقانون التطور والنمو والارتقاء.

وقد أشار أحد علماء البيولوجيا إلى أن اللغة تتغير كما في الأنواع الطبيعية، والتغير لا يتم بطريقة عشوائية بل بشكل منتظم، فإذا تقبّل المجتمع هذا التغير ينتشر في أماكن اللغة ويثبت في كيانها..ولذلك نجد ألفاظاً وحروفاً وكلمات بطل استعمالها ودخلت كلمات جديدة.

وأثبتت التجارب أن العربية لغة مرنة مطواعة، فقد دخلتها كلمات جديدة بسبب دخول الأفكار الفلسفية والعلمية اليونانية والبيزنطية خاصة في ما يتعلق بالطب والعلوم والرياضيات.

ولاشك أن للعوامل السياسية و الاقتصادية دوراً كبيراً مشجعاً في انتشار اللغة العربية.. وفي العصر الوسيط جمدت الثقافة العربية وتوقف تطوير اللغة وكلماتها، لكن القرآن الكريم هو الذي حافظ على سلامة تركيب هذه اللغة المقدسة.

كما أن بعض الغلاة المتعصبين لأصالة اللغة العربية يحتجون على دخول كلمات أجنبية في العصر الحالي وعلى اصطناع مصادر جديدة، لكن لا مسوِّغ لهذا الاحتجاج لأن اللغة العربية تبادلت التأثر باللغات الأخرى والتأثير فيها خلال مسيرتها انطلاقاً من العصر الجاهلي وانتهاءً بأيامنا هذه وتأثرها باللغات الأوروبية وتأثيرها فيها.

ويلعب التعريب المعاصر دوراً كبيراً في إدخال مصطلحات وألفاظ أعجمية، ويجدر بنا القول بأن ما دخل على لغتنا من كلمات الأقوام الأخرى كان قليلاً جداً بينما كان تأثير لغتنا في الأقوام الأخرى أوسع وأشد أثراً.

لقد تأثرت اللغة العربية ببعض اللغات السامية في الجاهلية ثم بالفارسية والهندية واليونانية والبربرية والسريانية والتركية وباللغات الأوروبية الحديثة خاصة الفرنسية والإنكليزية منذ بداية القرن العشرين.

ويذكر لنا المؤلف الدكتور السيد أن أسماء الشهور المستعملة في بلاد الشام والعراق هي من اللغة الآرامية، وكلمتا الحج والكاهن من العبرانية، والمشكاة والحواري من الحبشية، وكلمات الفردوس والفسطاط والقانون والطاقة والترياق والبقدونس والإقليم هي ألفاظ يونانية.. لكن الأديب المصري الكبير عباس محمود العقاد يرى أن كلمة قانون أصلها عربي وهي تصغير لكلمة القناة.. وبذلك رجعت إلينا هذه الكلمة بعد أن استعملت لدى الأجانب في صيغة التصغير.

وينقل لنا الدكتور السيد في كتابه عن السيوطي في كتابه " المزهر " بعض الألفاظ الفارسية التي دخلت إلى العربية وهي : الكوز، الجرة، الإبريق، الطشت، الطبق، القصعة، الديباج، الياقوت، البلور، الكعك، الفلفل، النرجس، الياسمين، السوسن، المسك، العنبر، الكافور، الجوز، اللوز....... الخ

وكـذلك تـأثرت اللغـة العربيـة بأسـاليب التبجيل الفارسية بكلمتي : الحضرة والجناب، وبألفاظ ونعوت للخلفاء والوزراء والكتّاب والقواد مثل ركن الدولة والمنصور والسفاح، بالإضافة إلى الإسهاب في الرسائل وتأدية المعنى الواحد بألفاظ متعددة وجمل مترادفة ولنا بشعر ابن الرومي خير مثال.

وبعض الكلمات في لغتنا تركية مثل (بلش) العامية المستعملة كفعل فهي مأخوذة من الأصل التركي (باشلامق).. وفي مصر ما تزال هناك كلمات تركية تستعمل حتى يومنا هذا مثل : لوكاندة بمعنى فندق، والأجزاخانة بمعنى صيدلية، وتمرجي بمعنى ممرض، وسفرجي بمعنى طباخ.. بالإضافة إلى تأثر العربية خلال فترة الاحتلال الفرنسي والإنكليزي والإسباني والتركي، ولكن هذا التأثر بقي منحصراً في اللهجات العامية أما العربية الفصحى فقد بقيت شامخة مستقلة، فإذا أدخلت إليها بعض الكلمات الأجنبية فإنها تمتصها وتتمثلها فتصبح عربية وتنفض عنها أي أثر غريب.. وهنا تكمن قوة الشخصية العربية ولغتها.

وبقي أثر العربية واضحاً في اللغة التركية حتى بعد أن قرر أتاتورك وأمثاله من الطورانيين الكتابة بالأحرف اللاتينية بدلاً من الأحرف العربية، فإن أكثر من نصف اللغة التركية وكلماتها مشتق من أصول عربية.

وكذلك في إيران وبعض مناطق الهند وباكستان وأفغانستان ما تزال الحروف العربية الهجائية مستعملة في الكتابة بالإضافة إلى الصلاة فهي دائماً بالعربية، ولا يقرأ القرآن إلا بالعربية.

ويتابع المؤلف السيد فيقول إن كان بعض الكلمات الأجنبية المعاصرة مثل بورجوازية وديماغوجية وديموقراطية مستعملة، فقد اتخذت قالباً عربياً يتكيف العربي به مثل Platon تصبح أفلاطون لأن العربي لا يبدأ كلامه بحرف صامت كما ذكرنا سابقاً.

ومما يميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات هو غزارة الاشتقاق والتصريف وهذا مشترك مع اللغة الفرنسية بعض الشيء، ولذلك نجد أحياناً كلمات مثل : اللاأخلاقية واللامسئولية والرأسمالية والسيارة والطيارة وملبنة ومزبدة.. قد أصبحت عربية فصحى، ويتابع المؤلف فيقول : لا يمكن الوقوف في وجه اللغة العربية والحيلولة دون تطورها، لأن اللغة أقوى من أي سدود تقف في طريقها.

ونتابع أقوال المؤلف ونقول معه إن من يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها في خزائن حديدية يؤدي بها إلى الذبول.. فالمحافظة الصحيحة على الكائنات الحية تكون بتطويرها وجعلها مطابقة متوائمة للبيئة.

ويذكر لنا المؤلف السيد أن الدولة العربية السورية – حرصاً منها على تطوير اللغة – كانت بين فترة وأخرى تطور المناهج التربوية في تعليم اللغة العربية.. وقد حدث هذا التطور ابتداءً من عام 1920 إثر تحررنا من المستنقع التركي العثماني ثم عام 1938، ثم عام 1947 ثم عام 1952، ثم خلال فترة الوحدة السورية المصرية عام 1958 ثم في المنهج الموحد عام 1960 ثم عام 1967.

وكان تطور اللغة العربية في سوريا أكثر من كل الأقطار الأخرى لأن الشخصية السورية

المستقلة الفريدة المتوارثة منذ سرجون الأكادي من حوالي خمسة آلاف سنة تقريباً، وبعد حمورابي القائد المشرع الفاتح العظيم تبقى سيدة متفوقة، وتسعى دائماً للتميز والبروز وإلى إيصال أفضل المعلومات للتلاميذ في كل المناهج والمراحل.

ويطالب المؤلف الدكتور السيد مدرسي اللغة العربية أن يتمثلوا هذه الأهداف وصياغتها صياغة سلوكية جيدة يساعد على تقويم العملية التربوية بسهولة ليصار إلى تحقيق ما رسم لها من غايات، وهذا يؤدي بدوره إلى تمتين جذور اللغة العربية بمهارة متفوقة، وتصبح هذه المهارة عادة سارية في المحادثة الفصيحة البعيدة عن الزلل، وفي الكتابات الرائعة البليغة المتوازية مع التطور الجديد تلبية للحاجات الإنسانية عند العرب وفي سورية خاصة، وينقل المؤلف لنا كلام الأديب الشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيغو : " بأن كل طفل نعلمه جيداً هو رجل نربحه ".

ويشرح المؤلف الدكتور محمود السيد طرائق تدريس مادة اللغة العربية للمدرسين ويرشدهم إلى أفضل طرائق تعليم الإنشاء والقواعد لكل الصفوف الابتدائية والإعدادية والثانوية، لكنه يلح على قيمة تدريس مادة القراءة.. فهي بنظره الخطوة الواثقة الأولى لتدريس ودراسة اللغة.. فهي الوسيلة لمواكبة روح العصر، وعندما سئل فولتير عمن سيقود الجنس البشري أجاب " الذين يعرفون القراءة والكتابة ".

وينقل المؤلف لنا أن الرئيس الأمريكي الثالث توماس جيفرسون قال :" إن من يقرأون هم الأحرار فقط، لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهي من ألد أعداء الحرية "، وكذلك الفيلسوف الإنكليزي فرنسيس بيكون أشار إلى دور القراءة فقال : " إن القراءة تصنع الإنسان الكامل "، ويقول ماكولي : " أفضل أن أكون ساكناً في كوخ وحولي الكتب الكثيرة على أن أكون ملكاً لا يميل إلى المطالعة ".

ويرى أديسون المخترع الأمريكي العالمي المشهور " إن المطالعة للعقل كالرياضة للجسم "، وينقل المؤلف السيد عن المفكر كونراد قوله : " من دون جميع الأشياء الجامدة، ومن دون سائر المبتكرات تبقى الكتب أقرب شيء لنا لأنها تتضمن أفكارنا ومطامحنا وتصوراتنا وإخلاصنا للحقيقة ".

ويرى ترولون " أن عادة المطالعة هي المتعة الوحيدة التي لا زيف فيها، وأنها متعة تدوم عندما يتلاشى جميع المتع الأخرى ".

وكانت فاتحة الرسالة المحمدية الآية القرآنية التالية عندما خاطب الله نبيه قائلاً : " اقرأ باسم ربك الذي خلق " وكررها عدة مرات، لأن القراءة هي سبيل الإنسان لفهم الكون والحياة والنفس.. والقراءة المطلوبة هي القراءة الواعية المتفحصة الناقدة التي تنفذ إلى ما وراء الظواهر وتكشف عن العلاقات بينها وصولاً إلى السيطرة عليها كما يقول المؤلف الدكتور محمود السيد.

وعندما نجحت روسيا السوفياتية في إطلاق القمر الصناعي عام 1957 تساءلت الأوساط التربوية الأمريكية عن سبب نجاح الروس وتفوقهم عليهم وعلى العالم الأوروبي المثقف المتطور، فكان الجواب بعد الدراسة والتمحيص

أن السبب يعود إلى إخفاق المدرسة الأمريكية في تعليم الناشئة القراءة الجيدة، ورفع أحد المسئولين التربويين شعاراً هو " حق كل طفل ن يكون قارئاً جيداً في السبعينيات ".

وينقل لنا التراث العربي قول الشاعر الضخم المتنبي :

أعز مكان في الدنى سرج سابحٍ
وخير جليس في الأنام كتابُ

وينقل لنا التاريخ الأكاديمي أنه قد كتب على باب أول مكتبة مصرية في عهد الفراعنة " هنا غذاء النفوس وطب العقول ".

ويستفيض المؤلف الدكتور السيد في شرح قواعد قراءة اللغة العربية، فبالإضافة إلى أن الإنسان يتعلم العلوم كلها بالقراءة فهي تساعد الفرد على التقدم في التحصيل الدراسي.. وقد أشار الأديب المصري عباس محمود العقاد إلى هذه الناحية فقال : " لست أهوى قراءة الكتب لأكتب، وإنما أهواها لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا وحياة واحدة لا تكفيني.. فالقراءة هي التي تعطيني أكثر من حياة في مدى عمر الإنسان لأنها تزيد في الحياة عمقاً وفي الفكر امتداداً ".

ويذكر المؤلف وظائف القراءة، فلها وظيفة نفسية ثم وظيفة اجتماعية.. ثم يعدد أنواع القراءة من حيث الأداء جهرية وصامتة.. ثم يشرح مفصلاً أهداف تدريس القراءة في الابتدائي ثم في الثانوي، ثم يتحدث بتفصيل عن أطوار النمو لدى الطفل في تعلم القراءة ولدى الصغار ولدى الفتية ثم لدى الشباب، ثم تعرض المؤلف الدكتور في كتابه في " في الأداء اللغوي " إلى ظاهرة العولمة وهيمنة الأقوياء على الضعفاء، وقد شرحها المؤلف بشكل جيد فالعولمة هي تمدد الدول الكبرى برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية وسيطرتها اقتصادياً ومالياً على الدول الصغرى الضعيفة، خاصة دول العالم العربي في الخليج العربي خاصة، ومحاولة السيطرة على الدولة السورية بكل ما أوتيت هذه الدول الكبيرة من قوة وإنجازات علمية محاولةً أيضاً فرض اللغة الإنكليزية على لغتنا العربية العرباء.. والمؤلف السيد يقول بأن العولمة لها جانب مضيء يتمثل في انفتاح المجتمعات على بعضها وفي التبادل الثقافي والمعرفي لدرجة أن العالم تحول إلى قرية كونية كبيرة.. لكن الجانب المظلم فيها أن الدول العظمى تسعى كي تهيمن اقتصادياً وفكرياً وثقافياً وتسعى لإضعاف لغتنا القومية كي تقوض أركان حضارتنا الذاتية المتوارثة منذ خمسة آلاف عام أي منذ حضارة حمورابي صاحب أكبر تشريع قانوني في العالم، بالإضافة إلى حضارة القرآن العطرة المتصفة بحب الإنسان لأخيه الإنسان، وبالتشريع السماوي الذي أتى به صاحب الرسالة الإسلامية محمد عليه السلام.. لكن اللغة العربية صمدت لمحاولات العولمة كي تستبدلها بأخرى، فالعرب في سوريا خاصة استفادوا من العولمة إذ استعملوا جميع التقنيات السلكية واللاسلكية والكمبيوتر ومشتقاته ورافقوا التطور العلمي، لكن بقوا متحصنين بالقرآن الكريم كتاب الله الذي لا يتناقض مع أي تقدم فكري وتقني وعصري، لكنه يحتفظ للعرب بشخصيتهم المستقلة في لغتهم التي أنزلتها السماء في آيات قرآنية يحفظها الله.. وقد علّمنا أبناءنا اللغات الأجنبية للضرورات العلمية وللترجمة ونقل المعلومات الوافدة بلغتنا العربية النضرة دائماً.

ولذلك فإن مدارسنا تعلّم في مناهجها اللغات الأجنبية الفرنسية والإنكليزية مع جميع تقنيات التعليم من أشرطة وأسطوانات تضع التلاميذ في الجو الأجنبي العام.. لكنها تحافظ على الأخلاق العربية الإسلامية..

كنت أود الاستفاضة في هذا البحث لكن ضيق المجال لا يسمح بذلك، والدكتور السيد أشبع هذه الناحية "العولمة" درساً وتمحيصاً مع تأثيرها على التربية، وذكر كيف نتجنب أخطارها ونستفيد من صفاتها الحسنة.

ولا يمكن في هذه الدراسة الموجزة أن نتحدث عن جميع موضوعات كتب الدكتور السيد المذكورة في صفحات هذه الدراسة، فنحن نطلع ونعدد مزايا هذه الكتب التي تفوق فيها الدكتور محمود السيد بأسلوبه العربي الجزل، فهو أستاذ كبير في التعليم وأستاذ ضخم في الكتابة والتأليف ويملك من الكفاءات الشيء الكثير، فاستفادت الدولة السورية منه وكلفته مرتين بالوزارة مرة للتربية ومرة للثقافة.. وفي المرتين أجاد وتفوق في عمله.

وكذلك لا عجب إن اختارته الدولة وعينته مسؤولاً عن تمتين اللغة العربية، أي عن شخصية العرب وكرامتهم..

أتمنى أن أكون قد ذكرت بعض محاسن مؤلفاته التي مررنا على ذكرها..

أرجو له التوفيق وطول العمر والتفوق الدائم.

❑❑

قراءات نقدية ..

عُذْراً سورية..

للكاتب غسان كامل ونوس

❑ نبيل فوزات نوفل



كتاب جديد للأديب الكاتب غسان كامل ونوس صادر عن دار شرق وغرب للترجمة والطباعة والنشر والتوزيع، ودار الفرقد للطباعة والنشر بدمشق عام 2013م. يقع الكتاب في 272 صفحة من القطع المتوسط . يتحدث فيه عن الحرب العدوانية على سورية، ومحاولات تغييب صوت الحق وصورة الواقع، من خلال عدة قوى دولية وإقليمية وفي مقدمها جامعة الدول العربية، والمؤسسات الدولية، التي تهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الغربية الاستعمارية، وتشويه حقيقة الدورالسوري، وتجاهل الاصلاحات التي قامت بها القيادة في سورية، حيث قامت الجامعة بتجميد عضوية سورية في الجامعة، وسحب معظم السفراء العرب منها، وكذلك فعل معظم الأوربيين. كاشفاً عن أهداف الحرب العدوانية القذرة على سورية من خلال استقراء الأحداث العالمية، فيؤكد أن هناك مخططاً إمبريالياً صهيونياً يهدف أصحابه إلى تفكيك الاتحادات والكتل الكبيرة في العالم عامة،

وفي وطننا العربي خاصة، وتهشيم من يسعى إلى أن يكون له رأي حر، وقامة مشرعة، ورأس مرفوع . وقد اعترفت دوائر ومؤسسات عالمية ودول باعتماد ميزانيات ضخمة من أجل هذا الفعل الخبيث، ونشهد في هذه الأيام الكثير من مشاهده، في ما يجري في سورية، ولتحقيق أهدافهم يعملون على ضرب الرموز والقادة التاريخيين، ومطاردة الرؤساء الرافضين للخنوع

واصطيادهم، وإهانتهم بالقتل، أو المحاكمة، وتفتيت وتجزئة الدول خدمة لنهج الهيمنة والسيطرة ،وضرب مقومات الصمود والكفاية والتنمية للدول، و تدمير القيم الحضارية للشعوب وخاصة في وطننا العربي، التي انكشفت من خلال تدمير المتاحف والتماثيل والمكتبات وقتل العلماء العرب والكفاءات في كل مكان اندلع فيه ما يسمى الربيع العربي، إنها الحرب الصهيونية التي جرت بأموال العرب ودمائهم .

ويؤكد الكاتب ونوس على حقيقة أن وراء ما يجري في سورية اليوم جهات خارجية، يقوم البعض بالارتماء في أحضان تلك الدول المعادية دون النظر إلى الخراب الذي يلحق بالوطن. ويرى في هذا العمل عمالة وخيانة، وخروجاً سافراً الوطنية والإنسانية .

ويرى الكاتب ونوس أن القوى الاستعمارية حين تعجز عن لي الذراع، وكسر العظم، يحركون الكائنات الشيطانية والأصوات الناشزة، بأفكار مسمومة، ومشاعر حاقدة، ، مزينة بكلام حق يراد به باطل، ويبين الكاتب الأدوات التي استند إليها العدوان الاستعماري الجديد على سورية، وأهم الأساليب المتبعة، والمدبرة بخبرة، وشمولية، وحنكة، ودهاء، وخبث، وتقنية، ودعم، وتمويل خدمة للكيان العنصري الصهيوني وأهمها: استخدام الدين، وفعاليته، وحساسيته لإثارة المشاعر، وتسخير الإعلام الموجه، والمركز المصنع من قبل القوى الإمبريالية والصهيونية، والدعاية المكثفة لمفاقمة الأوضاع، واستخدام بعض المثقفين والمفكرين في الدعاية المضادة، واستغلال انتقادهم لمظاهر غير مقبولة في البلد كالفساد، والمطالبة بالحريات، واستخدام الدول المجاورة ومصالحها، وخصائص علاقاتها التاريخية مع الدول المستهدفة، والتخفي خلف حقوق الإنسان، واستغلال التنوع الديني والعرقي في أسوأ صورة بما يكفل استمرار الهشاشة والتصدعات التي يصعب ترميمها، و تقديم الدعم المالي السخي من قبل دويلات الخليج العربي للمجوعات المخربة التكفيرية، وضعاف النفوس والمرتزقة، وهم كائنات جاهلة، وغافلة، مسدودة الآفاق، ومصمتة المسام، واستخدام الهيئات الدولية للضغط ومبررات التدخل، والقوى الانتهازية والحربائيين، وخاصة ممن كانوا في المقدمة و سدة المسؤولية، وكانت أصواتهم تعلو تمجيداً، وممن كانوا في الركب الهازج، يسابقون الولائم صاروا يسيرون في الجنازات على أمل الجنازة الكبرى! ويزدري المؤلف هؤلاء بقوله: إن من يستطيع، أن يتلون بسرعة لا لون له، ولن يرى في اللوحة الناصعة بعد حين، ومن لديه قابلية التفكك والانحلال لا هيئة له، ولا قامة في كل حين، ويؤكد أن هؤلاء افتقدوا أبسط قواعد المنطق والعقل والوطنية والأخلاق والإنسانية .

ويكشف الكاتب، مظاهر الخلل في مجتمعنا، قبل العدوان وخلاله، والتي بات تقصي أسبابها ومعالجتها واجب وطني وأخلاقي، والتي ساهمت في الإساءة للوطن وأبنائه وفي مقدمها:

- قصور في الرؤية لطبيعة الحرب العدوانية، حيث التصرف لم يكن في البداية على قدر المسؤولية، وبالرغم ما يحدث في المنطقة منذ بداية عام 2011، فقد بدا كما لو أن في الأمر مفاجأة لم يستعد لها بشكل مناسب، مما أوقع الأخطاء المؤثرة في الحركة والمرونة والتفاعل وردود الأفعال، فقد كان من الممكن تفادي الكثير مما حصل.

- عدم وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، وهذا ليس أقل خطراً من ذاك الذي يقطع الطريق، ومن يمارس العصابات المسلحة .

- وجود البيئة الجاهلة الظلامية التي تحضن الكائنات في العتمة، وتشوش الضوء، وتعيق الانفتاح على الجهات، وتنمي الأفكار والرؤى القاصرة، وتزيد من السواتر والستائر، وتضيق على الإبداع والمبدعين، وتجرمهم أو تكفرهم .

- عدم تطبيق القانون بشكل عادل، وعدم سد الثغرات في القانون كان بمثابة معبر لكل الديدان، والحشرات والجراثيم والفيروسات، وهي بساط مفروش أمام المنافقين والحاقدين. .

- الحال الثقافية التي لا تسرّ ولا ترضي، والتي لم تصل إلى مستوى الحدث، سواء على الصعيد الخاص والعام والأفراد والمؤسسات، وهو لم يكن مميزاً يوماً، لأنه حين يتطاول وجودنا في المهمات الثقافية، والمنافذ الإعلامية سنوات. من أين سيطل الشباب، حين نفعل المستحيل لنبقى في مواقعنا، كيف ستتقدم الأجيال القادمة، حين نتسابق إلى ظلال السلطات، وفتات النافذين، ورنين المتخمين، كيف سنكون المثال الذي يحتذى ؟! **فحالتنا الثقافية واهنة**، لأنه لا يليق بالثقافة أن تفاجأ، أو تتفرج، أو تختبئ، أو تحتار، أو تنتظر..: **الثقافة** ليست راية تميل مع النسيم، أو غصناً تكسره العواصف.

- تقصير بعض المثقفين، وتخاذلهم، حيث حذر الكاتب هؤلاء بقوله:إن من ينحني طويلاً حتى في الأيام العادية لن يكون بمقدوره أن يستقيم أيام الشدة، وإن من يمد يده طويلا باسطاً كفه، ليس من السهولة أن يرفعها، ولن تحترم مهما حييت أو اعترضت!، وأن من ينتظر انقشاع العجاج ليحدد موقعه لا مكان له، ومن ينتظر الرياح أن تهدأ ليحدد وجهته لا مكانة له، ولا يستحق أن يقدره الآخرون. **وينتقد الصامتين** الذين لم يتخذوا موقفاً مما يجري في سورية من الحرب حيث هناك من يتفادى كتابة كلمة واحدة عن الأحداث في سورية، فيتساءل الكاتب هل ماتت الحواس، أو تبدلت المشاعر. إن العقوق والنفاق والسمسرة والسكوت عن الحق لم تكن يوماً من أدبيات الأدباء ولا أخلاق المثقفين!! فقد أطال الكثيرون الانكفاء الراجف تحت وابل الضخ القاتل، والتحريض الفاجر، أو التنقل المتوتر بين الشاشات، ويعبر الكاتب عن ألمه لموقف هؤلاء بقوله: إنها الخيبة والمرارة والحرقة من جراء حالة البعض ولا سيما المحسوبين على

الثقافة والفكر والإعلام. لأن أقسى وأظلم ما يصيب الإنسان هو أن تسرق ذاته من خلال تدافعه المهين للاستعباد والاستزلام والاستلاب، فيسرق المرء إنسانيته. إنها سقطة مصيرية وميتة جاهلية ما يفعله هؤلاء . ويستغرب الكاتب كيف يستمر البعض في مواقفهم بعد بيان خطورة وهدف العدوان الذي يستهدف الوطن، إلى جانب انتقاده الصامتين بحجة الحيادية، ويتساءل هل هناك حيادية في القضايا التي تمس أمن الوطن وحياة المواطن وكرامته. وهل الثقافة قراءة كتاب ومنابر وحماسات آنية أوقات المكافآت والدعوات والمناسبات والمهرجانات والولائم فحسب، هل الثقافة نشر وإصدارات ومهمات فحسب، هل الثقافة تدليس وتلفيق ومحاباة أو منافسات، ومناكفات، وأحقاد . هل الثقافة اطلالات مضادة محسوبة وموصوفة وعروض ؟.

ويرى الأديب الكاتب ونوس أن المثقفين ليسوا كتلة واحدة، ولن يكونوا، ولقد تراوحت حالات المثقفين من إمكانية أن تكون منبهة دالة إلى عبء، أو تابع، أو جزء من المشكلة . ويقدم تعريفاً إبداعياً للثقافة فيرى فيها المنارة التي يهتدي إليها من يضيع الجهات والجذع التي يتكئ إليه من يبحث عن مسند آمن، إنها، أو يفترض أن تكون الكتلة التي تضمن الاستقرار والتماسك وعدم الانفلات والتشرذم حين يميل المركب تحت وقع تقلبات الموج؛ والمادة الحافظة التي لا تنحل أو تذوب، حين تعكر السوائل. **ويرى الكاتب ونوس أن** المثقف ليس ملك نفسه، والفكر السديد يتميز بالتجدد والتحرك الذاتي والحيوية ومراجعة المواقف وتدارك العثرات .

المفكر ليس شاهد عيان، ولا ناشطاً حقوقيا أو سياسيا وليس محللاً عسكرياً أو مراسلاً ميدانياً، وهو ليس متنبئاً جوياً، يخرج على الناس يومياً، وليس قارئ فلك أو طالع لا يحتاج إلا إلى اسم البلد وملامح الأشرعة ليبشر بجهة الرياح . ويشير أن تهميشاً كبيراً لحق بالمثقفين الحقيقيين، وتضييقاً اقتصادياً قد مورس على الشريحة الأهم وهم الشباب، ولاسيما المتعلمين منهم، تعييناً وتوظيفاً في ميادين العمل . من خلال تهريبهم من الذهاب للأرياف، والاكتفاء بالمدن، والانبطاح واللجوء إلى الصمت واللامبالاة مما يدور على وطنهم من عدوان .

وحول الحوار وضروراته وماهيته، يؤكد الأديب ونوس إن لا لقاء وحوار مع من يتمسح بأعتاب الخارج، ويتقاوى بالأجنبي وغاياته المفضوحة، وإن القاتل هو القاتل، سواء القادم من خارج الحدود أو من يعيش بين ظهرانينا، و ضرورة الاعتراف بأن هناك مأجورين ومخربين ومسلحين . وينتقد الذين يصرّون على المناداة بالحوار، وفي الوقت عينه يتمسكون بإلغاء الآخرين، وتحميلهم كل المصائب، بل وإلغائهم من الوجود، ويؤكد على صعوبة الحوار بين أصحاب المنطق والفكر الظلامي . ويرفض المساواة بين من يعتدي ويُعتدى عليه، بين من يندفع مهاجماً المواطنين والممتلكات، وبين من يدافع عن نفسه وأهله وبلده، والسكوت عن

الفظائع والعفو عن المجرمين، ويؤكد على ضرورة المحاسبة البعيدة عن الانتقائية والانتقام، واستغلال للظرف، بل أن تكون المحاسبة بمصداقية، ومسؤولية، ومشروعية، وعدل، ووطنية واسعة شاملة . ويشجب الحوارات الشجارية التي تجري على بعض الفضائيات، والتي تشبه صراع الديكة، التي تدفع إلى التصادم والخلاف، وبث الفتنة، والفرقة، والتصدع في المجتمع، وتعطي دروساً قاتمة في أساليب المعارضة، وتسوق العنف وصولاً إلى الإرهاب.

وحول مفهوم الإصلاح: يطالب الأديب ونوس الجميع بتحمل مسؤولية المواجهة، ويرى في الاعتراف بالمرض، وقراءة أغراضه أساس لابد منه للبحث عن العلاج، والاعتراف يكون من النفس أولاً، ما قصرت به تفكيراً، أو دراسة أو تخطيطاً، وما أخطأت بممارسته، أو تنفيذه، أو استثماره، والإصلاح ليس مطلباً محدداً من قبل أشخاص محددين يعني شريحة بعينها، موجهاً إلى أناس معينين عليه القيام به، إنه مطلب الجميع، ويعني الجميع، وفي كل حين، ومسؤول عنه الجميع، وهو رؤية شاملة، ورغبة حقيقية، وهاجس ملح، وإحساس دائم بأهميته.

وبالتالي علينا أن ندرس المفازات التي دخلت منها الشرور، ونستكشف المواقع التي كانت أضعف مناعة، وأكبر استغلالاً، وهذا يتطلب وعياً بطبيعة الأشياء والواقع، لإجراء تحول ضروري في البنى التحتية، وإغنائها بالنيرين المقنعين القادرين على العطاء والحوار، وتطوير البيئات الظلامية حتى تتحول إلى بيئة حاضنة للفكر الخلاق، والثقافة، والإبداع لمختلف الأجيال، والمجالات من خلال العلم والثقافة، والاهتمام بالتعليم الفني، والعاملين الفنيين ومعاملتهم معاملة جيدة.

كما يؤكد الكاتب على ضرورة **تنفيذ إجراءات المحاسبة على الجميع**، وأن لا يكون المسؤولون من مختلف الدرجات خارج هذا النطاق، وأن يظهر ذلك إلى العلن من دون أي حرج أو حياء . ويرى المؤلف ونوس أن الحرب على سورية أسقطت أقنعة بعض قوى اليسار لأن من يدعي الوطنية لا يتعامل مع الأعداء سراً أو علانية، ولا يجتمع مع رموزهم، ولا يظهر عبر إعلامهم الصريح، أو المتحالف معهم، ومن يطالب بالدولة الوطنية لا يسعى إلى شل اقتصادها، ويخرب المؤسسات الوطنية، ويتغافل عن القتل المتعمد، ويتعامى عن الخطف والتنكيل، والاغتصاب، ولا يعترف بالوجود المنظم للسلاح، أو يسوّغ وجود السلاح وحامليه بحجة الاضطرار إلى الدفاع عن النفس، فهؤلاء بنظر المؤلف ونوس عقول محنطة، وكراسيَ منبتة ببذلات مختلفة، ونياشين معاكسة، ويؤكد أيضاً أن اليسار العالمي ليس واحداً، فليس كل يسار يناضل ضد القهر، أو يكون مع حقوق الشعوب المظلومة بإطلاق، فالاشتراكية الدولية تضم فصيلاً من الكيان الصهيوني، كما تضم تلك الاشتراكية فصائل عربية بزعامات طائفية إقطاعيه، وأحزاباً

من اليسار الأوروبي، وهم يتبارون في دعم القوى الظلامية بالإعلام، والمال، والدعم الديبلوماسي في المنظمات الدولية، إنه الفجور والتزوير المفضوح، والتضليل السافر والنفاق الماكر .

وحول دور الإعلام الوطني يرى المؤلف أنه ليس هناك مسوغٌ لجمود الإعلام الرسمي، لأن بإمكانه أن يكون ممثلاً لأكبر شريحة من الناس بأفكار مختلفة، آراء متعددة، بل من واجبه الإشارة إلى الأخطاء، وتعرية الواقع بلا اتهام مجاني، وبلا خوف من خسارة، ومن واجبه حماية السلم الأهلي، وعدم إثارة الفتن، والحد من تفاقم التصدعات، ويفترض بالذي يكون في موقع القرار الإعلامي أن يكون قادراً على التحرك بوعي ومسؤولية، ولديه الخبرة والثقافة، والإدراك، واختيار الأكفأ، والأكثر قدرة على الفهم، والصياغة، والحوار في البرامج المتنوعة، والتخصص والمعرفة في القضايا المتناولة، سياسية كانت، أو اقتصادية، أو اجتماعية أو ثقافية وينتقد الدور الخبيث لبعض الإعلام العربي الذي يفيض حقداً وضغينة .

وفي رؤيته لدور رأس المال، يوضح الفرق بين المال الوطني والمال الخائن، فيرى أن المال الذي يقصد الأماكن الخطرة، أو يسهم في إشعال الحرائق، وإيقاظ الفتن، وتصدير الحروب، ويشتري السلاح للمجرمين والقتلة، و يمول وسائل الإعلام التي تحرص على القتل، هو رأس مال خائن وعميل، وبالمقابل هناك رأس مال يدعم المواطنين في تأمين حاجياتهم، واستمرار وجودهم، وبالتالي فرأس المال هو رهن رغبات صاحبه وموقفه.

ويؤكد المؤلف على ضرورة تدعيم وتقوية الوطن، ومعالجة الأخطار بموضوعية، بعيدة عن التسرع الأحمق، ومتسمة **بالتسارع، والتخلص من** الفاشلين، والمنافقين، والساكتين عن الحق، الذين سيبقون العبء الأكبر على أي تحرك حقيقي في الإصلاح، والرابضين في عقولهم المتحجرة، أو أفكارهم البائدة، شحيحو المعرفة، فاقدو المرونة، الباحثين عن مزيد مما لا يستحقون من جاه ونفوذ، لا يمكن أن تكون لديهم، أو على كاهلهم الحلول، فليس شرطاً أن من قام بالتخريب يستطيع أن يصلح ما خرب . **كما يؤكد على البحث عن المخلصين** ممن يمتلكون الحصانة الذاتية، والحكمة المعرفية، والرصانة العقلية لأن هناك من أبناء الوطن من لديه الحماسة للبذل، والعطاء بلا حساب، وبلا تفكير في أية مكافأة أو جزية .

ويرى المؤلف ونوس، أن الوعي لا يتوقف على الشهادة، ولا يتعلق بالموقع، ولا بكثرة الظهور المأجور أو المجاني، ولا بالضوء المصطنع، ولا بالحذلقة في الكلام، والأناقة في الهندام، فالوعي الشعبي العام، هو الضامن الحصين للوطن . ويؤكد على ضرورة الوقفة الجدية مع الذات ومقاربة جادة، ومسؤولة مع الواقع الراهن، والوقائع المرتسمة على الأرض. **كما يؤكد الكاتب،** وهم كثر، ومعدنهم أثمن، ورؤاهم نبراس، وصمودهم متكآت، وصبرهم ركائز

للوطن والإنسان والتاريخ ويضرب مثلاً صمود المناضل صدقي المقت وأمثاله الجبابرة، هؤلاء كبار النفوس، كغالبية أبناء سورية والأخوة العرب فيها، الذين ما ارتاعوا وما انصاعوا وما باعوا، طلاعي الثنايا، الكبار، الذين ليس في أعينهم سوى العظائم فالكبير لا يصغر، يظهر في الملمات، والعزيز لا يهون، فالشدائد مختبر، والمثقف والمتعلم والتقي والمفكر، لا يسقطون لدى أول هزة، ولا يشاركون في الجهالة، ولا يصمتون! ويؤكد أن سورية وطن الود والأمان، الألفة والرحابة، السماحة والثقة والعنفوان، العراقة، والتاريخ، والسلوك الحضاري الأصيل، ويطالب أبناء الوطن بالدفاع والتضحية بقوله: إن من واجبنا أن نلمم أشلاء الفتنة، فالقيام بالواجب في حدود الإمكانية التي يمتلكها، أي منا أمر ضروري، وملح للنفس إن من لم يهن في عهد أو عسف تهديد، ومن لم تسقط من قامته الراية مهما أظلمت الدنيا وأدبرت، فله محفة في كل هودج، وتاج في كل علاء، من أجل وطن لا يهون عليه هوانه، وعَلم لا نرضى أن ينوس خفقاته .

ويحي **أبناء الوطن الشرفاء** الذين ضحوا في سبيل الوطن بقوله: للمروءات فرسانها، وللآفاق جيّابها، وللمكارم رجالاتها، وتعرف الديار من صانوا وما هانوا، وتعرف الذين صبروا وصابروا منهم، من قضى منهم، من في آفاق الشهامة والاعتزاز ماضون وما بدلوا تبديلا . آليس في **المواقف الشعبية** الغالية، نبل وإحساس عال بالخطر الأهم والمؤامرة المعلنة، لم يحتج الأبناء الشرفاء الطيبون إلى بيانات، ولا إلى خطابات، الشعب أسقط القناع، وأحبط المؤامرة، وصد العدوان، وأد الفتنة، بسبب الوعي الذي يشتهر به السوريون، والعزة التي تكتنفهم والكرامة، والإخلاص في التعامل اللاحق مع الوقائع، فالتحية والتقدير والعرفان والعزة للشعب المثقف، فكما سُقي الاستقلال بالدم الطاهر حتى تحقق الجلاء، فإنه ما برح يستسقى دماً طاهرة في مسيرته المتواصلة، كأن سورية على موعد متجدد مع التضحية والصمود والانتصار. ويذكرنا المؤلف بقول الأديب التونسي أمين بن مسعود عذراً سورية الذي يتوج به عنوان كتابه والذي يقول :

عذراً يا حضن العروبة، في زمن النفاق، والعمالة، والشقاق، ومساوئ الأخلاق . عفواً يا أرض الحضارة، والمقاومة، والممانعة، والمجابهة، في وقت التطبيع، والخنوع، والخضوع، وعناق الصهيونية، أي صديق هذا لسورية، هذا الذي يكذب، ويضلل، ويحرض إعلامياً، وسياسياً، ودبلوماسياً على دمشق، والذي يمد يده "لإسرائيل " ويعلن جهاراً نهاراً تحالفه الاستراتيجي مع الكيان الصهيوني، ويدعم معا رضين سورين مسلحين يقاتلون نيابة عن الصهاينة .

ويشكر المؤلف ونوس الأوفياء والأصدقاء الذين وقفوا مع سورية الذين ربطوا القول بالفعل وانسجموا مع مبادئهم، وهؤلاء الأوفياء من العرب وغير العرب أبَوا أن يكونوا إلا مخلصين لتاريخهم وكراماتهم، هؤلاء الذين لم يشغلهم

الرنين عن الحنين إلى الألفة والنبل والصدق، لقد فضحوا الساكتين والمنافقين، الأوفياء الشرفاء الـذين لا يملـون، لم يتبـدلوا، ولم يقنطـوا، المؤمنـون بـأن خـلاص سـورية خـلاص لكـل المناضلين المقـاومين، هـؤلاء لـن ينـساهم شـعبنا العظيم .

ويؤكد الأديب ونوس، أن سـورية منتصرة، بسبب تلاحم الشعب والجيش والقيادة، وصلابة محـور المقاومـة، والأصدقاء في العـالم . ويـرى أن القطيعة مع أعداء سورية، والمواجهة مهما كانت قاسية، ومهما كانت مستلزماتها، وعناصرها، ونتائجها، وضحاياها، شرف وكرامة وأخلاق، ونبالة وشهامة.

وفي الختام نقول ما قال محي الدين بن عربي :هناك عطاء، وهناك معرفة، بعضهم لديه عطاء ولكن ليس لديه معرفة، وبعضهم لديه معرفة، ولكـن لـيس لديـه عطـاء. ولكـن عنـدما يتـوافر هـذان الاثنـان عنـد شـخص، فـإن ذلـك الـشخص يكون موفقاً توفيقاً عظيماً ومثل هذا الشخص لا نظـير لـه وهـذا هـو حـال الأسـتاذ الأديـب غـسان ونوس في كتابه موضوع دراستنا .

❑❑

شهوة التواصل*..

❑ د. رضوان القضماني**

ثقافة التواصل كتاب يثير ـ بذاته– شهوة القراءة. وأقول بذاته لأؤكد طرفاً من أطراف التواصل وهو الرسالة /النص. فقد توقف صاحب الكتاب في نصوصه عند طرفين آخرين: المرسل/الكاتب، والمتلقي/القارئ، لكن الرسالة /النص بمعزل عن طرفيها هذين تحمل في بنيتها وظيفة إثارة شهوة القراءة، أي تلك الوظيفة التواصلية التي سمّاها رومان ياكبسون ـ صاحب نظرية التواصل – وظيفة شعرية. الشهوة تعني رغبة شديدة، والرغبة الشديدة مرتبطة باللذة، واللذة يحققها جمال، وكأننا عندما نتكلم على "ثقافة التواصل" بهذا المنحى المرتبط بشهوة القارئ للقراءة نسلخ النص عن المكون التواصلي الأهم فيه وهو حواريته. وحوارية النص ركن أساسي في هذه التواصلية، وهو ركن تكونه ثقافة الحوار، وهي نقيض للخطاب الواحدي.

ثقافة الحوار التي تمثلت في روح نصوص الكتاب من أوّل نص فيه إلى آخر نص تقوم على خطاب التلاقي، وهو خطاب يدفعك لأن تبحث في الآخر عن شيء فيك ومنك، فيه ومنه، يكملك ويكمله، أن تبحث عن لقاء لا عن صراع، فالصراع ينقص ولا يضيف، والحوار يسعى نحو الاكتمال إن لم أقل نحو الكمال، والكمال غاية الجمال، والجمال ليس نقيضاً للاختلاف، لأن البحث عن اللقاء يبعد التناحر والقطيعة ويبعد الخلاف، والفرق هائل ما بين اختلاف وخلاف، لأن الاختلاف يفترض وجود الآخر ويعترف به ليقيم معه تواصلاً، أما الخلاف فينفي هذا الآخر ليحول الخطاب إلى خطاب تناحر يؤدي إلى قطع التواصل. ولهذا فرق صاحب الكتاب بين نوعين متقابلين من الثقافة: ثقافة التواصل و(ثقافة) التناحر، ثقافة التواصل تحمل قيماً، فهي ثقافة الحرية وليست ثقافة الاستبداد، أي إنها ثقافة لا تقوم على الادعاءات التي تتحصن

---

* "ثقافة التواصل" كتاب للباحث عطية مسوح صدر عـن دار الينابيع، دمشق2008 .

** باحث، أكاديمي من سورية.

خلف سورٍ من الإلغاء والعنف المعنوي المتزامن معه بحق كل من يشف صمته عمّا يعرّي هذه الادعاءات. إنها ثقافة يؤكد عطية مسوح اعترافها بالنقيض، ويصر على أن وجود هذا النقيض ضرورة لامحادة عنها، وهو وجود يكمل ولا يلغي، يقوّي ولا يضعف، يُسرُّ ولا يغضب. إن وجوده استكمال للفرد، بل كمال للوطن، لأنه في النهاية بحث عن مشروع المواطنة، أي عما يجعل منك مواطناً تلتقي مع الآخر على مفهوم المواطنة، أي أن تقف على أرض وطنك على قدمين اثنتين لا على قدم واحدة، فالآخر عند عطية مسوح جناحك الآخر الذي لا تستطيع أن تحلق من دونه في سماء الوطن. أما (ثقافة)التناحر – وقد راقت لي هذه التسمية جداً – فتقوم على قيم أخرى تحمل نسباً عالية من العنصرية والطائفية والمذهبية والعشائرية والاستبداد والعنف والإلغاء والادعاء والتعالم والاستعلاء والزيف والخداع، كما أثبتت (تحاليل الدم الثقافي) التي تؤكد أن على المثقف أن يحلل دمه الثقافي ومنفوثه الثقافي ليتخلص تواصلُه مع الآخر ثقافياً من استغفاله واحتقار عقله، وربما يتخلص أيضاً من خداع الذات، وأما الكذب، على اختلاف مسمياته، فلا تستقيم مع اعتناقه ثقافة، وما أكثر معتنقيه! وثقافة التواصل تقوم على صدق في مواجهة الذات أولاً، وصدق في علاقتها مع الآخر، ومن دون صراع مع هذا الكذب لن تقوم لثقافة التواصل قائمة. إن مثل هذا الصراع، وهو نقيضٌ للحوار لكن لابد منه، يجعل خطاب ثقافة التواصل مرتبطاً بالممارسة، فالخطاب عند عطية مسوح = الممارسة، ولا يجوز عنده بحالٍ من الأحوال أن ينفصل أحدهما عن الآخر، إذ إن الانفصال بينهما ـ إذا حدث- لن يكون إلا كذباً على الذات وعلى الآخر. إذا كان الخطاب يقوم على الكلمة، والكلمة وحدة معنى، فإنها تصبح في خطاب ثقافة التواصل وحدة فعل. وإذا كانت الكلمة في الخطاب عموماً وحدة معنى، وقد سمّاها ميخائيل باختين (إيديوم)، أي وحدة فكر، فهي تتماز بذلك عن الوحدة الأيدلوجية (الأيديولوجيم) فالفرق بين الأولى والثانية كالفرق بين الانفتاح والانغلاق، بين اليقينية (المرادفة للتسليم) والحوار، بين الدوغما (وحدة العقيدة، أو وحدة اليقين) والفكر، بين ثقافة للتواصل (تحمل وظيفة) وثقافة للتداول (تحمل منفعة آنية كالتي تحملها أوراق البنكنوت تنخفض قيمتها مع كل تضخم نقدي)، إنها تقابلات بين تحرر التواصل وانحصار التداول. وعلى هذا استطاع عطية مسوح أن يميز تمييزاً حدّياً بين ركني تقابل ثنائي استبعادي: ثقافة التواصل/ ثقافة التداول. تقوم الأولى على انفتاح الإعلام ليكون ديمقراطياً، بينما تقوم الثانية على انغلاقه ليكون إعلام ثقافةِ تداول منفعي (براغماتيّ)، فـ(الثقافة) الـ(براغماتية) لا تطلب من تابعيها أكثر من أداء يمن الكذب، أو يمين المشاركة فيه، بينما يبرز في الأولى (التواصلية) عدم المساهمة في ذاك الكذب، وعدم مساندة الأعمال الكاذبة من دون حاجة بل من دون تفكير بقسم أو يمين، قانوني أو غير قانوني، رسمي أو غير رسمي. وقد تجلى هذا الصدق مع الذات والآخر في تمييز عطية مسوح بين مثقفي أيدلوجيات ومثقفي فكر، وهو تقابل بين ثقافتين في علاقتهما بالآخر، فالأولى تقوم علاقتها مع الآخر على النفي والخلاف، والأخرى تقيم معه علاقة توافق واعتراف لتكون الأولى منظومة (ثقافية) مغلقة، بينما تكون الثانية منظومة ثقافية منفتحة، وتلمس هذا لمساً محسوساً منذ النص الأول: "ثقافة التواصل والتفاعل" في حديثه

عما تعانيه الثقافة من سلوك القوى السياسية والحزبية المختلفة التي لا تبحث عن نقاط الالتقاء بل عن نقاط الافتراق، وعندما تسعى إلى غير ذلك يتحول التوفيق عندها إلى تلفيق. وأكثر ما يلفت الانتباه ويثير شهية القراءة في نصوص عطية مسوح تمييزه نوعاً آخر من "الثقافة" سماه (ثقافة الجهل) التي يصفها بأنها تلك الثقافة التي تتسم بالعدوانية وروح التعصب، وتقوم على التخوين والتكفير والرفض التام ويتسم أصحابها بالتسليم واليقينية المطلقة في مقابل ثقافة التواصل التي تُحِلّ الشك (الذي يتجلى في كل أشكال النقد) محل اليقين والتسليم، وتستبدل المستقبلية بالماضوية، وتنفر من العدوانية لتحل محلها نزوعاً إنسانياً عارماً.

إن مثل هذا الفهم للثقافة التي لا تقوم إلا على التواصل جعلت عطية مسوح يدقق في المفهومات والتعريفات، وإذا كنا نعرّف الثقافة بأنها صهيرة من عدد لا متناهٍ من النصوص المقروءة والمكتوبة فإن عطية مسوح يحدد هذه النصوص بأنها نصوص الآخر... الثقافة لا تقوم إلا بتمثّل نصوص الآخر، وكل تعريف لا يأخذ هذا بعين الاعتبار تعريف قاصر، مما دعاه إلى أن يخص قصور التعريفات ومحدوديتها بحديث منفرد، ثم امتد ليتناول تعريفاتٍ/مفهوماتٍ مثل السعادة والحب، لكن الأهم –وليس الأجمل كما هو حال الحب والسعادة – تدقيقه بعض المفهومات بطرح أسئلة من مثل: هل من ثقافة مستوردة؟ وكان ذلك في حديثه عن وهم ما بعد الحداثة عربياً، وأن ما بعد الحداثة لا يكون إلا نتيجة لتطور تتابعي تسلسلي موضوعي لابد أن تسبقه حداثة، فهل أنجز العرب حداثتهم ليفكروا فيما بعدها؟! وفي سياق هذا التدقيق المعرفي يتوقف عطية مسوح عند مصطلح القطيعة المعرفية الذي شاع حتى صار دُرْجَةً (موضة) عند كل حديث عن الحداثة العربية ليؤكد علاقة القديم بالجديد، وأن انقطاع الجديد عن القديم ليس إلا وهماً يراد منه تأكيد خصوصية مطلقة تجعل المعرفة قائمة على دوائر مغلقة لا تنجو من أنها تقوم أيضاً على يقين وتسليم بأن كلُّ ما قَبْلُ ليس صالحاً لما بعْدُ، وهو ما يجعل هذه القطيعة قطيعةً مع واقعٍ قبل أن تكون قطيعة مع فكر.

إن كل قارئ تواصلي ـ أي استثارته شهية القراءة- لا يشاء مع قراءته نصوص عطية مسوح إلا أن يتوقف عند مفهومه: (اختيار الأعداء) فثقافة التواصل تقوم على اختيار الأعداء بالتوازي مع اختيار الأصدقاء. واختيار الأعداء في ثقافة التواصل يعني أن سلوك المرء تجاه من يختلف معهم لا يجوز أن يكون سلوكاً تناحرياً، بل لابد من ضبط العداء وترشيده، وهذا يرتبط بارتفاع منسوب الوعي والسلوك الحضاري. ومثل هذا الفهم لا ينطبق على سلوك الأفراد فحسب، بل على سلوك المؤسسات أيضاً.

إذا كانت ثقافة التواصل تفتح حقل الحوار مع الماضي لا القطيعة معه وتضعه موضع نقاش واسع فإن هذا يشمل الفكر الحزبي والسياسي على صعيد الأحزاب المختلفة وما رافقها من سياسات، فقد صار لهذا الفكر وممارساته السياسية ماضٍ طويل يمكن أن يشكل تراثاً يفتح حواراً ـ لا قطيعة- مع الذات والآخر في آن، مما دفع بعطية مسوح إلى أن يفرد قسماً من نصوصه لروّاد بشخصهم وكتبهم، فنفي القطيعة يعني أيضاً أنصاف الرواد، وهم روّاد ما داموا مرتهنين زمانياً ومكانياً وواقعياً، فحركة النهضة العربية قدمت أعلاماً شكلوا نقلة في

ثقافة التواصل وحامليها، ومن هؤلاء الأعلام الروّاد كان إبراهيم اليازجي ونجيب عازوري وأحمد لطفي السيد وكريم مروة وخالد محمد خالد وسليم خياطة وسلامة موسى، لذا يقف مسوح عند كل منهم وقفة خاصة، لكنه لا يخفي إعجابه واعتزازه بريادة المفكر الإسلامي خالد محمد خالد ويتحدث عنه في أكثر من نص ويؤكد مقولات هذا الرائد النهضوي التي جاءت في ثنايا كتبه وخصوصاً في كتابه (أزمة الحرية في عالمنا) ليبدأ من مقولته إن النظم السائدة في عالم القرن العشرين كانت متفقة على انتهاك حرية الإنسان تحت ذرائع مختلفة تخفي مصالح طبقية أو فئوية أو حزبية أو سلطوية، ولا ينتهي عند ذلك، لأنه يجعل الحوار مع خالد محمد خالد مفتوحاً ومستمراً عند مقولة خالد :"حين يصير التغيير الثوري ضرورة تاريخية في بلدنا فإننا نجد الديمقراطية هي المناخ الذي يمدُّ هذا التغيير بقوة الانطلاق".

إن اللافت للنظر في حديث مسوح عن التواصل والريادة ضرورة الحذر واعتماد الشك والبعد عن اليقين في ما تورده بعض الموسوعات من تعريف بالرواد، ويلفت الانتباه إلى "أن واضعي كتب التراجم والأعلام يجب أن يحرصوا على الموضوعية، وأن يتجنبوا إقحام مواقفهم الشخصية فيما يكتبون، لأنهم يقدمون للأجيال ما قد يعد مرجعاً أو مصدراً للمعلومات" وكان ذلك في معرض التعريف المغلوط الذي ورد في أعلام الزركلي بسلامة موسى.

إن ثقافة التواصل التي تنطلق من حوارية الأنا والآخر لا تنفي أن البوح حوار مع أنا الداخل، حوار مع الذات، من هنا كان القسم الأخير من كتاب مسوح مخصصاً لبوحه الذي سماه هموماً، إلا أن هذه الهموم حملت دائماً تأسيساً معرفياً، نذكر من ذلك مثلاً أنه يميز بين المتلقي والقارئ، فعلاقة التلقي عنده علاقة سلبية أما علاقة القراءة فهي علاقة إيجابية. ويميز بين الكاتب القارئ والكاتب الضحل، فالكاتب القارئ يتسم بالشك المعرفي، أما الضحل فضحالته تنبع من ثوابته –وهي محدودة- ويقينيته وتسليمه. جاء هذا تحت عنان طريف، "يستسهلون الكتابة ويستصعبون القراءة".

إن كتاب عطية مسوح الذي يُقرأ "بشهية قراءة عارمة" كتاب يهتم بطرح الأسئلة ليفتح حواراً.. وما أكثر الأسئلة في نصوص الكتاب. أما الصفة التي يتسم بها هذا الكتاب فهي تلك ذاتها التي أضفاها على كتاب "قصة الإنسان" حين قال: "إن الصفة التي تسوق الكتاب إلى أعماق نفسك وتدفعك إلى التفاعل معه، وتجعل تأثيره في الضمير لا يقل عن تأثيره في العقل... هي النزعة الإنسانية التي تغمر الكتاب من أول فصوله إلى آخرها، متجلية بحب الإنسان والثقة بقدراته وتميزه وتفوقه ونزوعه إلى الخير والتقدم والحرية".

❑❑

رواية (قصر المطر) وعذابات وطن ..

❑ هدى وسوف

عندما قررت الكتابة عن هذه الرواية كنت مترددة وخائفة ، إذ ما الذي يمكن أن يقال في هكذا عجالة عن كتاب مؤلف من سبعمائة صفحة، كل صفحة فيه هي في حد ذاتها تحفة فنية ولوحة إنسانية مشغولة ببراعة لا تضاهى، أبطالها بشر معجونون من تراب هذه الأرض، عاشقون حتى النخاع لهوائها و حجارتها الزرقاء وخرائبها المتهدمة، طافحين بالحب و الخير، مفطورين على الشهامة وعزة النفس والكبرياء إنهم (آل الفضل) الذين يرفضون الانصياع و التبعية (لآل حمدان) و العمل في أراضيهم مرابعين خلافاً لبقية أهل القرية، مكتفين بمهنة البناء التي توارثوها من الجد القديم. لكن هذه الاستقلالية تحرض الحسد و الضغينة عند (كنج الحمدان) فيسعى لتعلم مهنتهم ويرافق (كامل الفضل) إلى المقلع، لكنه لا يطيق صبراً على تقطيع الحجارة الكبيرة فينسحب و يرجع إلى تسلياته و تصرفاته الطائشة التي تزعج أمه فتقرّعه وتنتقده بشكل مستمر.

وبعد استلامه للمشيخة إثر وفاة أخيه يضيّق على (كامل الفضل) و أسرته، ويسعى إلى إرهابهم، فيعمد إلى جلد ابن عمهم (سعيد) بعد وشاية كاذبة بالسرقة، فيموت سعيد تحت التعذيب، وهنا يغدو حلم (كنج) بالحصول على أخته (صباح) مستحيلاً وقد كان يعشقها بجنون. و عندما يحاول (نايل الفضل) الأخ الأصغر لكامل الثأر لابن عمه، يتصدى له (كنج) و يقطع يده ويتركها معلقة دون بتر كرسالة موجهة لآل الفضل أجمعين وينشر رجاله المسلحين حول دارهم.

أمام هذه القوة الهائجة العمياء، يفكر (كامل) بسلامة العائلة، فيأخذ أسرته وأسرة عمه ويمضي بهم خارج القرية إلى الخرائب المسماة (أم الجرابيع) ليستقروا هناك.

هؤلاء هم آل الفضل ((الذين صنعوا من الخرائب و من عنفهم و قوة أحقادهم قلاعاً وخبئوا فيها انتظارهم و ترقبهم)) ص 582.

إنه الصراع القديم الجديد، صراع القوة المادية المسلحة بكل صنوف الأسلحة، في مواجهة الخير الأعزل إلا من قيمته الأخلاقية لاغير.....

تؤرخ الرواية لزمن قديم، هو زمن الاحتلال الفرنسي لسوريا ودخول القوات الفرنسية إلى محافظة السويداء وقراها، وفي مقارنة سريعة لما يحدث في هذا الزمن على أرض الوطن، نجد أن التاريخ يعيد نفسه وأنه قدر مكتوب على هذه البلاد ففي الصفحة (649) يقول شيخ المزار لكامل وأخته (ثنية): ((شايفين هالمزار ؟ ما صار خضر إلا يوم حارب التنين ! هذي البلاد انكتب عليها تكون بلاد حرب من يوم يومها بيجيها الغزو، فمين بقي فيها ياخي ؟! أهلها))

يبدأ السرد بطريقة الخطف خلفاً، عندما تستيقظ ذاكرة (حسان)فجأة إثر سماعه لأصوات الرصاص، فيسارع ليرى الشخص الممدد على الأرض ميتاً ويتعرف على أخيه (هايل) مقتولاً برصاصات رجال كنج، فتتداح الذكريات و يحضر الماضي البعيد من الجيل الماضي، عندما كانت روح (حسان) تسكن جسد شخص آخر هو (كامل الفضل) قبل عشرين سنة و يتذكر لحظة موته و كنج يطلق أيضاً عليه الرصاص و هو يسأله : ليش يا كنج ؟.

تمضي الرواية في زمنين الحاضر الذي يمثله حسان و الماضي الذي يسيطر على كل الحاضر و الذي يستذكره حسان ويسرده لنا فنعيش مع (كامل الفضل واخوته هايل، شامل، صايل، نايل) و الشقيقات الثلاثة :هندة، غريبة و ثنية الكبرى حكيمة آل الفضل الشاعرة، التي تنشد الأشعار و تشدو لهم الأغنيات و المواويل في عتم الخرائب لتؤنس وحشتهم وتواسيهم.....

يعيشون في خرائب (أم الجرابيع) في عزلة عن الناس، شبه منبوذين، منسيين، لا يجرؤ أحد على زيارتهم، بعضهم إرضاء لكنج و الآخر خوفاً منه، ولا يأتي أحد لتعزيتهم عندما يُقتل (نايل) برصاص الفرنسيين وهو برفقة إخوته وأصهاره، الذين وجهوا حقدهم المخبأ و عنفوان رجولتهم إلى صدر العدو الغريب القادم من خارج البلاد للسيطرة و الاحتلال،وبعد سنين يصفهم (جان دوتي) في كتابه الفرقة الجهنمية فيقول : ((كانوا يطلقون من بنادقهم وهم يصرخون في عزيف كعزيف الجن مرددين ياالله، ياالله ثم يختفون كالبرق في أحشاء الصخور المجنونة، مخلفين في صفوفنا بضعة قتلى، ورحنا نطلق عليهم بغضب عشوائي مطراً من الطلقات الرشاشة ولكن أين ذهبوا ؟!)).

يسارع البيك (كنج الحمدان) ويمد يد العون للمحتل، حفاظاً على مشيخته ووجوده فيرسل أزلامه المسلحين لجمع المئات من رجال القرية بالقوة لإجبارهم على العمل سخرة في شق الطريق، ويوجه أزلامه لأسر أي واحد من آل الفضل، فيحاصرون (صايل) لوحده و يأسرونه ويسوقونه للعمل مع الآخرين.

و عندما يقرر العريف الفرنسي بناء مخفر إلى جانب الطريق، يدلهم (كنج) على البنّاء الوحيد (صايل) ويوكل إليه هذه المهمة إمعاناً في أذيته وإذلاله...

ينجز بناء المخفر في ستة أشهر بمساعدة الإخوة الذين كانوا يأتون في الليل خفية، مما أخاف الجنود الفرنسيين الذين ظنوهم عفاريت، وعندما جاء (جون دوتي) لاستلامه ((كانت غيمة كانونية خصيبة تمطر، وكانت أشعة الشمس تتسلل في الثيات الرقيقة للغيمة، برقت آلاف البللورات في البازلت الأزرق الطازج ومن النوافذ هبت ريح شتائية هاربة و سطع سهل الزرازير تحت وطأة المياه المتدحرجة على صخوره، عندئذ أطلق العريف المزلزل على المخفر اسماً سيظل يرافقه إلى الأبد : قصر المطر)) مما يثير جنون (كنج الحمدان) و يعتبر أن القصر لعنة من آل الفضل ضد آل حمدان، ستظل ألف سنة أخرى حتى يتمكن من تدميرها و عندما يصفون له كامل الفضل على صهوة جواده و هو يقاتل الفرنسيين، يسارع ليبدو هو الآخر بمظهر الشريف، فيجمع رجاله و يدفع بهم إلى المعركة

وعندما يلتقيان، ينظر إليه (كامل) دونما ضغينة، متمنياً أن يكون (كنج) قد تحرر من أحقاده و أن يتوحدا لقتال العدو الغريب، لكنه سرعان ما يكتشف العكس حين يخاطب (كنج) الفرنسي بلغته وهو يهجم عليه بسيفه.

(يفكر بهذا الكنج الذي صار يعرف الفرنسية و يصادق أصحابها و يعاديهم متى شاء، لا يدري لماذا رأى في أفعاله جبناً و نذالة و بدا له أن الرجل ما كان سوى قط مناسبات) مما يزيد ضغينة (كنج) وكرهه (لكامل الفضل) هروب أخته (دلال) وزواجها من (كامل) الذي شعرت انه الرجل الوحيد الذي يستحقها، بعدما جاء إلى القلعة وهدد (كنج) أمام رجاله المسلحين.

((كانت تشق طريقها إليه وسط الضباب الناعم، انتظرها حتى دانته ووقفت أمامه وهي ترتجف وتلهث في إيقاع مطري مبهر، لم تستطع النطق بحرف، أخرج محرمة بيضاء من جيبه ثم جفف الماء عن وجهها وقال (جيتي لوحدك)، بدا غبياً في السؤال لكنها عرفت ان اللقاء المفاجئ قد صدّأ كلماته وتفكيره فتمتمت (اي لكامل الفضل).

قصر المطر رواية موشاة بالحب و العشق للإنسان و الوطن، بالحنين للأرض، والأمكنة، و الهواء......

يرجع (كامل) من إحدى المعارك وهو يحمل على ظهره، صهره الجريح بعد مسيرة يومين على قدميه، و يحدثه مع معرفته أنه لا يسمعه فيقول

له (وصلنا ، بدك تسألني كيف عرفت، بسيطة ، بعرف من الأرض وبعرف من الهوا القديم فيها ، لها ريحة خاصة ، و لون جاي من بطن الأرض لون غروب يابو منصور، حزين يعني، مشتهي ابكي شوي قبل ما نوصل، ابتسمح لي ؟!)).

قصر المطر سيمفونية عذبة ، ملحمة مدهشة عن بشر مدهشين بتفاصيلهم، و التي هي تفاصيل عن الحياة و الموت، عن الحب و الكره عن مغزى الوجود في هذا الكون، عن رحلة الأرواح، عن وطن و عذاباته.....

قصر المطر رواية تستحق كل الحب هي ومن أبدعها....

❑❑



ـ واحـــــــة.. ريـــــاض طــــبرة

وإلى لقاء ..

واحـــــة..

❑ رياض طبرة

ها أنت أيتها الأرواح تتجددين في هذه الأجساد.. كم من الوقت مضى وكم من الوقت سيأتي وأنت صابرة محتسبة يدفعك الأمل وتحيين من أجل جسد نقي لا يتطهر بالنار، أو ربما يتطهر بالنار.. هأنت تقفين على عتبة الحقيقة في كل طور من أطوار القوة أو أطوار الضعف، وفي هذا تبيان لكنه الوجود ولأحقية العدالة في أن تحكم البشر وسلوكهم وحقوقهم.. وفي وقوفك على هذه العتبة تكونين في بداية مشوار سرعان ما يود الجسد لو عرف منه شيئاً. تحاولين اقتلاع هذا الجسد من همومه وأفكاره؛ أسئلته التي تتوالد كلما ازداد ألمه وقلت حيلته فلا تجدين بداً من تذكيره برحلة الإبحار في مرامي المعرفة وحين تتكسر على تلك الشواطئ موجات الشك وتتلاقى مع الحقيقة في شيء ومع جانب منها في شيء آخر تكون بداية مرحلة جديدة قد انطلقت.. ما أعظم أعمالك يا رب كلها صنعت بحكمة.. فمن يداوي جراح الجسد بمزيد من الحكمة وبمزيد من الادراك والمعرفة؟..! يا سيدتي أيتها الأرواح المتجددة القادمة من أكوان الله الواسعة هل بمقدور المحدود أن يتسع لغير المحدود الكلي المعرفة والقوة والمجد..! ماذا عن رحلة من رحلاتك الأبدية السرمدية وهذا المسعى لإدراك الأكوان؟ هل وجدت كوناً واحداً قد اكتمل وأغلق نوافذه على ذاته وتحجر ولم يتسع لشيء جديد تحمله الشمس في كل صباح ومع اطلالة كل مساء؟..

ماذا لو أن هذا الكون أغلق على ما به من داء وما به من سأم وملل، وما به من فجور؟ كيف للعفة أن تتحسر؟.. وكيف للحقيقة أن تتبدد؟.. يا سيدتي هل امتلأ كأسك وفاضت من جوانبه سعادة لامتناهية؟ ثم امتلأ كأسك حزناً وألماً ففاض من جديد ليملأ هذا الكون نحيباً؟.. أيتها الأرواح لك ان تعيشي طاهرة نقية في طور ولك أن تجرّبي كيف تتدنسين بهذه الأجساد وتفجرين وتعرفين ملذات البشر وكيف يستخرجون من باطن العشب جنوناً يقتاتون به تارة ويلتهمونه متعجلين الرحيل في امتطاء جديد للزمن تارة أخرى .بجسد جديد وحلة باهية تقوين أنت على الأمراض وتجعلين من الشيخوخة طوراً مضى وانقضى.. ومن العدالة لك أيتها الأرواح ان تلبسي جسد امرأة جميلة أو تكوني رجلاً.. تتعرفين على الكرة من جوانبها فتنظرين كيف هي واحدة وكيف هي ليست بواحدة.. كيف هي أمامك، تركض فتركضين كما لو أنها رغيف خبز وكيف هي خلفك تطاردك كقرص قذفته يد حاقد لتتعثري في خطاك أيتها الأرواح؟.. هل لك أن تكشفي لنا سر هذه الحروب؟ وهل لك أن تنفي لنا وجود روح شريرة وروح أقل شراً؟ أم أن الروح هي خير مطلق وان حلولها في الجسد هو الذي يحرك بها هذه الشهوات فتكون الحروب وتكون الشرور وتتزايد الاختراعات والتجارب المدمرة لينعم القوي بما لديه ويزداد المحرومون حرماناً؟.. من يقف وراء هذا الدمار بلا شفقة وبلا رحمة؟.. هل صحيح ان قلة قليلة باتت تمتلك مقدرات هذا الكون تعيث فيه فساداً وبانتظار خلاص أبدي يخفف من وطأة السؤال.. أستميحك أيتها الأرواح ان تجيبي على سؤال واحد من أسئلتي: «إلى متى» هذا هو السؤال؟..

❑❑